

ميغان نولان

أفعال اليأس



ترجمة: هدى شبطا

هل حقاً يمكن لنظرةٍ أن توقعك في حب شخصٍ لا تعرفه؟
كيف يمكنني وصف ما حدث لي دون ذكر كلمة الحب؟
وقفت في تلك الصالة وانتابني ذلك الشعور، الذي لم يكن انجذاباً جنسياً فحسب (وهو شعور هامشي أدركته بضبابية كما يدرك المرء الضوضاء المرافقة لحدث) وإنما شعور ثقيل ومقلق بالشفقة. ولا أعني بقولي هذا أنني شعرت بنفسي متفوقةً عليه. فخلال معظم تلك الفترة التي قضيناها معاً، كنت أرى كياران شخصاً أفضل مني في كل النواحي، الجوهرية منها والسطحية. ما أقصده بكلمة الشفقة، هو أنني بمجرد أن نظرت إليه، شعرت بقلبي يرقّ بشدة لحالته: كونه إنساناً. في تلك اللحظة كانت مشاعر الودّ العادية واللهفة، التي أشعر بها عادةً إزاء أي إنسان، عميقةً جداً لدرجة فقدت فيها أنفاسي.
وإلى اليوم، وبعد كل ما حدث بيننا، لا أزال قادرة على الإحساس بمدى تأثري به آنذاك.
لم يكن كياران أول رجل وسيم نمت معه، ولا أول رجلٍ استحوذ على كل مشاعري، وإنما كان أول رجلٍ أعبده. كان جسده بالنسبة لي محراباً للصلاة ومكاناً أنسى فيه جسدي الحيّ وأكون مع جسده وحده. كان جسده شيئاً في غاية الجمال وقمة في المتعة.
أتظنّ أنني لا أعي أني أصف جسده بكلماتٍ مثل شيء ومكان؟ أتظنني لا أدرك معنى أن تتحدث امرأة عن جسد رجل بهذه الطريقة؟ ما الذي أعرفه أنا عن جسد الرجل، وهل يستحق أو يحتاج جسد أي رجل أكثر من دقيقةٍ للتغني بهِ؟ أي شعورٍ يجب أن ينتابك لكونك شخصاً جميلاً مع قدرتك بأن تكون غير مرئي متى أردتِ ذلك؟ أن تكون رجلاً جميلاً؟



ميغان نولان

أفعال اليأس

ترجمة : هدى شبطا





Author: **Megan Nolan**	اسم المؤلف: ميغان نولان
Title: **Acts of Desperation**	عنوان الكتاب: أفعال اليأس
Translated by: **Huda Shabta**	ترجمة: هدى شبطا
P.C.: **Al–Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2023**	الطبعة الأولى: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 · + 964 (0) 780 808 0800 · + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 · + 961 706 15017 · + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 · + 963 11 232 2275 · + 963 11 232 2289

ص.ب: 8272

إلى أمي سو

إلى أبي جيم

وهل نلتَ ما أردته من هذه الحياة، برغم كل ذلك؟

أجل.

وما الذي أردته؟

أردت اكتساب لقب الحبيب، وأن أشعر بنفسي شخصاً محبوباً على هذه الأرض.

• «جزء متأخر» **ريموند كارفر**

في مشفى الأمراض النفسية، أخبرتني فتاة صغيرة بعمر السابعة عشرة أنها خائفة لأنّ القنبلة الذرّية كانت بداخلها.

• «النفس المنقسمة» **رونالد لينغ**

أبريل 2012

دبلن

-1-

في أول مرة رأيته فيها انتابني شعور رهيب بالشفقة عليه. كنت أجول بنظري في المكان بحثاً عن ركن المشروبات لأروي عطشي، وهنا كانت بداية حكايتنا.

كان يقف في صالة العرض بجانب منحوتةٍ ورديةٍ قبيحة الشكل، تعكس ما بدا لي نسخةً لأذنٍ بشرية مشوّهة. وكان غارقاً في نقاشٍ عميقٍ مع أحدهم مشيراً بإيماءات قوية إلى المنحوتة خلال الحديث. أدركت لحظتها أنها ليست المرّة الأولى التي أراه فيها.

في إحدى المرّات جلست قبالته في مكتبة **راثماينز** وحينها، كما الآن، سقطت في حالة من الذهول الشديد لدى رؤيته لكونه أجمل رجلٍ وقعت عليه عيناي في حياتي. أذكر أننا تبادلنا نظرةً مطوّلة. كنت في ذلك الوقت مع شخصٍ آخر، ولكن ذلك لن يغير في الأمر شيئاً، فأنا لم أبادر رجلاً في حياتي قط فهذه ليست طريقتي. فكرت فيه في الأيام التالية وافترضت أنه مجرّد زائر في المدينة. وفكرت أنّه لا يوجد في **دبلن**، ولا في **إيرلندا** كلها، شخص بهذه الهيئة وهذه الطلعة البهية. لا يمكن أن يكون هناك شخص على هذا القدر من الجمال قاطناً بيننا.

وها قد رأيته مرةً ثانية، واقفاً على بعد أقل من عشر خطواتٍ مني.

تميّز **كياران** بذلك اللون الأشقر الغامق الناعم الذي يتحلى به الطفل فور انتهاء مرحلة الطفولة. وكانت له عينان رماديتان واسعتان، وأنفٌ روماني معقوف وتحته يتوقد بأناقة فمٌ ملائكي. كان الفم وردياً بدرجة صادمة وملتوياً قليلاً كأنه يتبرّم أو على وشك الضحك. كانت له قامةٌ فارعة الطول اتخذ لها تلك الوقفة البائسة لشخصٍ وجد نفسه طويلاً جداً، بعمر مبكر، فحاول إخفاء ذلك.

تميّزت يداه بنعومةٍ لا تتناسب مع ضخامة حجميهما رغم انسجامهما مع الساعدين الطويلين المرتبطين بهما. وإجمالاً تشعر أنّ عظامه، نوعاً ما، أكثر رقةً من عظام أي شخصٍ آخر. ومع أنّ ملامح وجهه كانت تضج جمالاً أيضاً، فإنّ تلك الجاذبية النابعة من شدة تناسقها تسرق منك تركيزك بالدرجة الأولى، فذلك الارتفاع الحاد لعظام وجنتيه يجعل عينيه خاليتين من الرحمة، وتلك الطريقة التي تتشبث فيها أصابعه الطويلة عمداً بالهواء وهو يتكلم كأنه يبدع تصميمات زخرفية.

الفكرة التي أريد إيصالها عن **كياران** لا تنحصر في كونه رجلاً يتمتع بوسامةٍ لا نظير لها، وإنما هناك أيضاً ذلك الجمود الهائل الذي يتألّق في كل جزء من جسده. كان الجمود رابضاً في كل إيماءاته ونظراته وضحكاته. كان رجلاً لا يريد شيئاً قطّ من محيطه.

في تلك الصالة المخصّصة لعرض أعمالٍ فنية، حيث تجتاز فيه نظرات الشخص الذي تتحدّث إليه كتفك بحثاً عن المشرف باستمرار، كان للأمر وقعه الصارخ. ورغم أنه لم يكن يبدو شخصاً سعيداً جداً، فإنه بدا شخصاً متكاملاً دون ريب، كأنّ كل عالمه مضبوط داخل ذاته.

-2-

هل حقاً يمكن لنظرةٍ أن توقعك في حب شخصٍ لا تعرفه؟

كيف يمكنني وصف ما حدث لي دون ذكر كلمة الحب؟

وقفت في تلك الصالة وانتابني ذلك الشعور، الذي لم يكن انجذاباً جنسياً فحسب (وهو شعور هامشي أدركته بضبابية كما يدرك المرء الضوضاء المرافقة لحدث) وإنما شعور ثقيل ومقلق بالشفقة. ولا أعني بقولي هذا أنني شعرت بنفسي متفوقةً عليه. فخلال معظم تلك الفترة التي قضيناها معاً، كنت أرى **كياران** شخصاً أفضل مني في كل النواحي، الجوهرية منها والسطحية. ما أقصده بكلمة الشفقة، هو أنني بمجرد أن نظرت إليه، شعرت بقلبي يرقّ بشدة لحالته: كونه إنساناً. في تلك اللحظة كانت مشاعر الودّ العادية واللهفة، التي أشعر بها عادةً إزاء أي إنسان، عميقةً جداً لدرجة فقدت فيها أنفاسي.

وإلى اليوم، وبعد كل ما حدث بيننا، لا أزال قادرة على الإحساس بمدى تأثري به آنذاك.

لم يكن **كياران** أول رجلٍ وسيمٍ نمت معه، ولا أول رجلٍ استحوذ على كل مشاعري، وإنما كان أول رجلٍ أعبده. كان جسده بالنسبة لي محراباً للصلاة ومكاناً أنسى فيه جسدي الحيّ وأكون مع جسده وحده. كان جسده شيئاً في غاية الجمال وقمة في المتعة.

أتظنّ أنني لا أعي أني أصف جسده بكلماتٍ مثل شيء ومكان؟ أتظنني لا أدرك معنى أن تتحدث امرأة عن جسد رجل بهذه الطريقة؟ ما الذي أعرفه أنا عن جسد الرجل، وهل يستحق أو يحتاج جسد أي رجل أكثر من دقيقةٍ للتغني بهِ؟ أي شعورٍ يجب أن ينتابك لكونك شخصاً جميلاً مع قدرتك بأن تكون غير مرئيٍ متى أردت ذلك؟ أن تكون رجلاً جميلاً؟

-3-

لفت **كياران** انتباهي، وكما تمنيت، اتسعت عيناه وابتسم لي قليلاً – حسبما أذكر عن لقائنا السابق. مشيت نحوه، وهو قطع حديثه واستدار نحوي.

«أوه، هذا أنتِ،» قال لي كأننا رتبنا هذا اللقاء مسبقاً.

«ذات الشيء» أجبته بكل غباء، وتورّد وجهي خجلاً مع سماعي لصوتي يصدر كأنه من خارج رأسي. بدا صوتاً إيرلندياً قحّاً وأجشّ تغزوه نغمة فرح مصطنعة. وكان **لكياران** لهجة لم أستطع تمييزها.

«ما اسمك؟» سألته.

«**كياران**» قال لي. وأردف قائلاً، كأنه قرأ ما يجول في ذهني، «مع أنّ والدي إيرلندي، ولكن أنا دانماركي»

التقطت نظرة عينيه، وانتابني شعور بالارتياح بيننا طغى على شعوري بالخجل.

ابتسمنا بعضنا لبعض بحياء.

«ما رأيك بالمعرض؟»

حاولت صياغة إجابةٍ سريعة وقوية قدر المستطاع فقلت: «أوه، إنها في الواقع تبدو لي مجموعة أشياء موجودة في غرفة، أليس كذلك؟ إنها لا تعني لي الكثير. وقد أتيت فقط لأتناول بعض المشروبات»

تجاهل تلك الجملة الأخيرة التي تقصّدت قولها آملةً أن تأخذنا خارج تلك الصالة إلى مكانٍ يمنحني مزيداً من الراحة.

«أليس جزءاً من واجبنا أن نفهم السبب وراء وجود هذه الأشياء في هذه الصالة تحديداً؟» قال متسائلاً.

تمحّصت في سؤاله خوفاً من انطلاء السخرية عليه، ولكنه بدا لي سؤالاً جديّاً طرحه بكل طيبة.

«الفكرة أنني في مجال الفن لا أفقه شيئاً أبداً. ولكن في المجالات الأخرى أمتلك بعض المعرفة التي تخوّلني لخوض نقاشٍ حولها. أمّا فيما يتعلق بهذا المجال، فليس لديّ ما أقوله أبداً. وليست لديّ أي معرفة مرجعية به».

ابتسم لي مرّة ثانية ولمعت في عينيه نظرة فيها شيء من الشهوانية والكثير من الشماتة بالتأكيد.

«حسناً، هذا هو أكثر شيء أحببته فيما يخصّ الفنّ. هل نذهب لتناول مشروبٍ ما؟» سألته.

قال لي: «أنا مضطر للمغادرة، وبكل الأحوال ركن المشروبات في الخارج. تفضلي، خذي مشروبي» وناولني زجاجته المليئة تقريباً بالجعة، ثمّ حمل حقيبته. وقبل مغادرته سألني: «هل ترغبين بمرافقتي في نزهةٍ غداً؟» وراح يكتب رقم هاتفه على منديلٍ ورقي أعطاني إياه، معتبراً نظراتي المحدقة به بمنزلة موافقة. وقال لي «جيد» ثمّ غادر.

-4-

في ذلك الوقت، كنت أسكن في حيّ **رانيلاغ** في غرفةٍ بمستوى الشارع حيث أمكنني ترك النافذة مفتوحةً في الليل لأقفز للداخل في حال أضعت المفتاح، وكثيراً ما أضعته. في أول ليلة لي في تلك الغرفة، جلست في سريري بعد أن أفرغت حقيبتي، ورحت أتفرّج على قطع الحليّ والأشياء الأخرى التي أحتفظ بها للذكرى. كانت عبارة عن رسومات وقصاصات ورقية عليها عبارات من عشّاقٍ وأصدقاءٍ قدامى. وكان بينها أيضاً بطاقات بريدية وصور وقطع فنية من البورسلين وصحون سجائر عتيقة. كنت أحتاج هذه الأشياء، ولطالما حملتها ورتّبتها فور وصولي إلى أي مكانٍ جديد أحلّ فيه، ولكنني يومها كنت وحيدةً وبدت لي تلك الأشياء تافهة وسخيفة. بدت كأنها قطع إكسسوارات ضمن عملٍ مسرحيٍّ رديء صُمّمت ضمن محاولةٍ لاستحضار شخصيةٍ هامّة لا وجود لها أبداً.

مع قراري بالعيش وحدي، بدأت أنفصل عن ذاتي بطريقة أقوى وأشدّ غرابةً من قبل. كانت لي حياتي العامة التي واظبت فيها على عملي وارتدت حفلات الرقص والشرب، وكنت شخصاً ظريفاً ومفعماً بالحياة مع الأصحاب، حيث رمقت الرجال بنظراتي في الحانات وذهبت معهم إلى المنزل أحياناً. قلت للناس إنني أحب العيش وحدي، وصدقوني لشدّة ما كنت سعيدة. لقد كنت فعلاً سعيدة عندما كنت أبدو سعيدة. لا أستطيع الكذب فيما يتعلق بمشاعري، ولكن كل ما في الأمر هو أنّ المشاعر تفتقر إلى التماسك، ولا تستمر من ساعة لأخرى. وأيضاً كانت هناك تلك الحياة التي أقضيها في شقتي حيث أحاول تعذيب نفسي بإخضاعها وتخميدها، فلا يمكن أن أكون سعيدة في أوقات الوحدة، ولأنني أعرف أنّ هذا يدلّ على الضعف، فقد أرغمت نفسي على تحمل الوحدة قدر المستطاع قبل

الخلوص إلى كسرها، رغم ما مررت به من لحظات شعرت فيها أنني أكاد أفقد عقلي.

بالنسبة لي، كان التواجد مع أشخاصٍ آخرين هو الشعور بأن هناك من يفهمني ويحسّ بي. ولهذا السبب أردت عيش علاقة حب. في الحب لا تحتاج لذلك التواجد الجسدي طوال الوقت مع من تحب ليفهمك ويشعر بك. والحب بحد ذاته يرمّم ويُغني تلك الأوقات المقيتة التي، لولا الحب، ستعمل على تبديدها في ذرع غرفتك الحقيرة جيئةً وذهاباً لإثبات وجودك كشخص، وترغم نفسك على الصمود حتى الساعة السابعة لفتح زجاجةٍ من النبيذ.

الوقوع في الحب يمنحك نوعاً من الرضا. قال لي أحد الأصدقاء مرةً إنه عندما يكون في عمله، يتخيل أنّ الله أو والده يراقبه لإجبار نفسه على الإنجاز. لقد كان هذا معنى الوقوع في الحب بالنسبة لي. كان غطاءً يحميني، وهدفاً سامياً، ووعداً بشيء لا يد لك فيه.

في ليلة لقائي الأول **بكياران**، شربت وثملت كما لم أفعل من قبل. كنت أصل للثمالة في حالتين: الحالة الأولى كانت فيها الوحدانية المسيطر الأول عموماً، وتتولد من الرغبة بتمضية الوقت بطريقةٍ أقل بؤساً، وليس من الرغبة بالوصول إلى حالة الثمالة. كنت فيها أحتسي النبيذ ببطء، بمعدل كأس كل نصف ساعة أو نحو ذلك، ودون إفراط، ولكن ليس أقل من زجاجةٍ كاملة. وتتميز بعاطفة جياشة من الإشفاق على الذات، قد تجعلك أحياناً شخصاً عنيفاً.

أما الحالة الثانية التي كنت أصل فيها إلى الثمالة، فقد كانت أكثر جموحاً وتميّزاً بوافرٍ من المعنويات العالية والوصول إلى حالة الهوس الجماعي. في تلك الليالي كنت أنفق مبلغاً ضخماً من المال لم أكن أملكه، وذلك لأن كل ما وراء اللحظة الحاضرة من زمن بدا -أكثر من المعتاد- غير واقعيٍ على الإطلاق، واحتياجات اللحظة الحاضرة كانت مُلِحّة للغاية.

الإسراف في تلك الليالي لم يكن أمراً محبطاً كما كان يحدث، فقد كان عادياً لكوننا في عمر الشباب، ولا التزامات لدينا ولا نعرف الاستقرار. تستطيع عادة تمييز تلك الليالي قبل بدئها، حيث يمكنك استشعار مزاج

المشاكسة يطغى في الغرفة مع البدء باحتساء المشروب. كنا نفرغ الكؤوس الأولى في أجوافنا بشراهة، متعجلين بنهم ذلك الشعور بالارتخاء والهوس. كانت هناك أشياء نتوقع الحصول عليها اليوم، أشياء لم نكن نملكها.

في مثل تلك الليالي، التقيت أشخاصاً مختلفين عني، أشخاصاً وِلِدوا أغنياء وعاشوا في شقق منحهم إياها آباؤهم بذات الأريحية التي مُنِحنا فيها أساور ساحرة وكتباً تذكارية في أعياد ميلادنا.

كان **روجرز** أحد هؤلاء الأشخاص وهو شابٌ نحيل وضئيل القامة يتحلى بخصلة شعر أشقر معقوص (على شاكلة بطل مسلسل **برايدزهيد ريفيزيتيد**) تتطاير فوق جبهة وجهه الأبيض الناعم. أنا و**روجرز** تركنا الجامعة في ذات الوقت تقريباً، وبعد بضعة أشهر، التقيته صدفةً في إحدى الحفلات، وسألته حينها عن عمله. فاجأني جوابه بأنه يتبوأ منصباً في الإدارة الوسطى في شركة كبرى من شركات العلاقات العامة، علماً أننا لم نكن حينها نتجاوز التاسعة عشرة من العمر وليست لدينا أية مؤهلات. كنت آنذاك لا أزال أتنقل من عملٍ لآخر في الحانات وأعمال التجزئة ذات الأجور الزهيدة.

عندما سألته بكل براءة عن كيفية تحصيله عمل كهذا، غمزني وقال لي: «اسم عائلة **روجرز** له وزنه في هذه المدينة!»

سماع تلك الجملة بحد ذاته كان منفّراً، ولكنها أصبحت عبثيةً على نحوٍ مضحك عندما باح لي أحد الأصدقاء المشتركين بالسرّ وهو أنّ تلك الشركة تعود ملكيتها لوالديه. في كل مرّة رأيته بعدها، كنت أشعر بمزيدٍ من السخط، وأقول بيني وبين نفسي إنّ اسم عائلة **روجرز** له وزنه لدى عائلة **روجرز**.

كما معظم أصدقائي، كنت سكّيرةً جيدة، وأعني بقولي هذا أنني أحب شرب الخمر وأستطيع شرب كميات كبيرة منه دون التحول إلى شخصٍ كريه في حالة الثمالة. لقد أفسدت حياتي بسبب الإفراط في تناول الخمر. فآثار الثمالة كانت أحياناً شديدة ورافقتني حتى ساعات الصباح في معظم الأيام، ربما مرتين في الأسبوع، حيث أضعت أياماً بأكملها وأنا أتكور في سريري مع هاتفي المحمول بيدي وأصابعي تنقر على الأيقونات دون متعةٍ أو هدف، وأستمرّ حبيسة تكرار ذلك كإجراء حماية.

نظرت عبر الستائر لأرى شمس الساعة الرابعة عصراً، وقررت أنه من الأفضل البقاء في السرير حتى حلول الظلام، فقد كنت خائفةً جداً.

أذكر أنني ملأت مرّة استبياناً لتحديد مستوى إدمان الشخص على الكحول. في الجزء المخصص لتحديد «المرحلة الأخيرة لمدمني الكحول والاقتراب من الموت» كان السؤال الأخير: «هل تشعر غالباً برعبٍ رهيب فور استيقاظك من ليلةٍ شربت فيها بإفراط؟» عندما قرأت ذلك أدركت أنّ مصطلح «الرعب الرهيب» هو التوصيف الأنسب لحالتي. يلخص مصطلح الرعب الرهيب، نوعاً ما، الشعور الكبير بالخوف الذي كنت أحسّه لحظة استيقاظي في الصباح. لقد ذكرني هذا الشعور بالتصوير السينمائي لنساءٍ عجائز مات أزواجهنّ وبتن يتأرجحن على حافة الخرف عاجزاتٍ عن تذكر تفاصيل منازلهن، يعشن في حالةٍ من الشرود لا شعور فيها سوى الكرب والذهول العميم. اجتاحني هذا الرعب الرهيب عند كل استيقاظ طوال الوقت.

في المراحل الأخيرة من إدمانه على الكحول، سافر **ويليام فوكنر** إلى نيويورك لزيارة أصدقائه وحضور بعض المسرحيات. وبعد عشرة أيام من الإفراط في شرب الكحول، اختفى الرجل. ذهب أحد أصدقائه إلى الفندق الذي كان ينزل فيه للاطمئنان عليه. طرق باب غرفته وناداه باسمه بأعلى صوته ولكن دون جدوى. توجه إلى طاقم الفندق وألح عليهم بطلبه السماح له بدخول الغرفة. وبالفعل، اقتحموا الغرفة ووجدوا **فوكنر** نصف واعٍ، يئن أنيناً ثقيلاً على أرضية الحمام. وكانت هناك رائحة غريبة كريهة تعبق في المكان، والنوافذ جميعها مفتوحة رغم انخفاض درجات الحرارة تحت الصفر. ما حدث هو أنّ **فوكنر** نهض في الليل من سريره وهو يشعر بالغثيان ولكنه سقط على أنبوب المدفأة المائية وفقد وعيه فوراً ولم يشعر بأنبوب المدفأة يحرق طبقات جلده ويخترق ظهره على مدى ساعات عديدة. ولم يشعر بالحروق ويكتشف ما حدث إلا بعد وصول الحروق إلى الدرجة الثالثة.

في المشفى، تم استدعاء طبيبه، **الدكتور جوي**، الذي سأله: «لماذا تفعل هذا؟»

دفع **فوكنر** فكّه للأمام بوضوح متبرّماً وأجاب: «لأنني أحب فعل هذا!» رافقه ناشره **بينيت** في تلك الفترة.

قال له: «لماذا يا **بيل** تفعل هذا خلال إجازتك؟» ويمكنني تخيل **بينيت** مطرقاً ينظر إلى يديه ويهز رأسه قليلاً غير قادرٍ على النظر في عيني صديقه.

جَفِل **فوكنر** مع سماع السؤال، وسحب نفسه في سريره منتصباً بطوله الكامل، وقال: «**بينيت**، بالنهاية هذه إجازتي أنا».

لماذا فعلت هذا؟ لأنني أحب فعل هذا.

المقصود في كلامه: حتى لو لم أستمتع كثيراً بما فعلته، ولكن: أنا اخترته.

«وحقاً لا أدري ما أفعل: فالذي أريده لا أفعله، وأما الذي أكرهه فإيّاه أفعل. ما أشقاني من إنسان! فمن ينقذني من هذا الجسد الذي مصيره الموت؟ »

رسالة رومية: الإصحاح 7.

في ليلة لقائي مع **كياران**، شربت حتى تقيأت، وانتبجت الشعيرات الدموية تحت عينيّ وفوقهما وتحسستها بنعومةٍ أمام المرآة لمعرفتي أنها ستكون علاماتٍ للبداية.

-5-

شهدت بداية مرحلة البلوغ أحداثاً أسوأ حقاً من المنحى الذي اتخذته علاقتي **بكياران** لتمثّل محطّات قذرة في حياة امرأة جريحة. لا يمكنني الاستعجال في الحديث عن هذه الأمور الآن، لأن أسماءها وحدها سيكون لها فعل السحر في تعطيل اهتمام القارئ المستنير. معاناة النساء رخيصة كما أنها موضع استغلال دنيء من قبل نسوة لعوب يسعين فقط لجذب الاهتمام، فمن بين جميع خطايانا المتأصلة لا شكّ في أن السعي وراء الاهتمام يندرج ضمن تلك القائمة.

كل المعاناة التي تحملتها قبل لقائي **بكياران**، تحمّلتها مثل طفل. ولا أقصد أن أقول هنا إن المعاناة لم تكن قاسية، لأنها كانت كذلك، أو أنني لم أستوعبها، لأنني فعلت. ولكنني قبل معرفتي **بكياران**، كنت أتأمل المعاناة وأراها أمراً ذا مغزى. وحتى تلك المآسي المستعصية على الفهم، أدركتها ورأيتها مُتخمةً بغايةٍ ما وإن كانت تلك الغاية مجهولةً حتى الآن.

لطالما شعرت أنّ هناك أناساً محظوظين وأناساً غير محظوظين، وأنا كنت شخصاً محظوظاً. ولطالما عرفت هذا حتى في أسوأ حالات اكتئابي، وبدا لي دوماً أنّ مصدر تعاستي نابعٌ من معرفتي بأنني لم أكن شخصاً جيداً بما يكفي لإيجاد تفسير موضوعيّ للحظ الذي ملأ حياتي.

من المؤكد أنني لم أفكر بحرفية الكلام ولا العمق الديني بقولي: «كل شيء يحدث لسبب، أو إنّ الله لا يحمّلنا ما يفوق قدرتنا على التحمّل» ولكن الشعور لم يختلف كثيراً عن ذلك. إنه الشعور بأنّ لكل إنسان قصته وقدره. إنه الشعور بأنّ البلوى، وإن كانت عظيمة، فإنها في النهاية تلعب دوراً في هداية كل واحد فينا نحو خاتمته المحتومة.

حسب مفهومي، كان لكل فعلٍ دوره بهدايتي إلى حيث ينبغي أن أكون في النهاية، وكان ينبغي أن أكون واقعة في الحب.

كان الحب هو العزاء العظيم، القادر على إشعال الفتيل وإلهاب كل النواحي في حياتي دفعةً واحدة، دون ترك نقطة واحدةٍ معتمة خلفه. لقد تخيلته المعدّل الأعظم والقوة القادرة على تنظيفي، وأنّ مجرّد وجوده في حياتي يجعلني جديرةً به. لم أؤمن بأي عقيدة دينية في حياتي التالية لمرحلة الطفولة، فالإيمان العميق بعقيدة الحب هو ما اعتنقه قلبي.

أوه، لا تسخروا من كلماتي أو لأنني امرأة تقول لكم كلاماً كهذا، فبوسعي أن أسمع ما أقوله.

-6-

بعثت له في الصباح رسالةً نصيّة، واتفقنا على اللقاء الساعة الثانية بعد الظهر أمام متحف التاريخ الطبيعي. اغتسلت بماءٍ يقارب الغليان في حرارته، وبصقت دماً في المغسلة أثناء تنظيف أسناني. كنت ثملةً جداً ولكن ليس إلى حد الإعياء والمرض، وإنما بتلك الحالة من الانتشاء اللطيف التي تسبق استعادتي لكامل رصانتي، وكنت سعيدة بنفسي كذلك.

أن تعيش حياتك مخموراً لهو بلاء، ولكن بالمقابل، الحياة دون خمر ليست سهلةً أبداً. فحالة الخدر والغشاوة الناجمة عن آثار السُكر تترك يومك يمرّ دون أن تشعر به كثيراً، حيث تشغلك الأوجاع والشعور بالعطش لدرجةٍ لا تولي معها اهتماماً لأي شيء آخر قد يزعجك.

لم أكن قد تناولت أي طعامٍ منذ وجبة غداء البارحة، وشعرت بتوتر كبير وأنا أمشي. حاولت تذكر ملامح وجهه، ولكنّ إعجابي الشديد به لم يكن يسمح لي بذلك. استطعت تذكّر أجزاءٍ متفرّقة من هيئته، وعندما حاولت تركيبها بعضها مع بعض، تبعثرت وطافت في فوضى متلألئة. أضحكني ذلك رغم توتري، ونفضت رأسي الغارق بعاطفة حبٍ لذاتي. فأنا أحب نفسي عندما تكون في حالة حب. أحسّ أن مشاعري آسرةٌ وإنسانية، وأتمكن لمرّةٍ واحدة من التعاطف مع أفعالي.

عندما وصلت إلى المكان، كان يتجول بين فسحات المرج الأخضر وينظر إلى السياج النباتي المجزوز بأشكال حيوانات. ذهبت إليه، ووضعت يدي على مرفقه، فشعرت به دافئاً في السترة الصوفية القرميدية القديمة التي كان يرتديها. في لقائنا السابق في الصالة، لاحظت الشيء ذاته، وهو أنه يرتدي ثياباً رغم أناقتها ولياقتها لجسده، فإنها تبدو قديمة وعلى وشك الاهتراء. والأمر لا يتعلق بكونها ممزقة على نحوٍ يساير

الموضة، وإنما لأنها بدت في حالةٍ حقيقية من انتهاء صلاحيتها كثياب قابلة للارتداء. وأنا لا إرادياً اعتبرت هذا: سعة حيلة. قال لي والدي ذات مرّة إنّ سعة الحيلة من أكثر الشّيم التي يقدّرها في الحياة، ومنذ ذلك الحين وأنا أبحث عنها.

تبادلنا التحية وتعانقنا، وشعرت بشدة نحوله تحت طبقات ملابسه الناعمة الرثّة. شعرت بشيء مختلف قليلاً عما شعرته تجاهه في الليلة السابقة. ما زال هادئاً بصلابة، ولكن ثمّة قلق بدا على وجهه. وخطر لي أنه ربما كان متوتراً. أمّا توتر أعصابي أنا فكان ناجماً بصورةٍ رئيسية عن حالة الرصانة المغلّفة لكل ما نفعله. أجزم أن جميع العلاقات الرومانسية التي خضتها قبل لقائي **بكياران**، بدأت وأنا في حالة سُكْر، وأغلبها حدث بالصدفة.

لم يكن المتحف خياراً موفقاً كمكان لأول موعدٍ في علاقة غرامية حيث لا مجال سوى للتجول في الأرجاء والانتباه للأشياء الموجودة بدلاً من التركيز بعضنا على بعض. ساد اللقاء فترات من الصمت قطعناها بإبداء ملاحظاتنا على المعروضات وبعض الدردشات الخجولة الكافية لمعرفة الخطوط العريضة في حياة كلٍ منّا. عرفت أنه انتقل منذ عامٍ للعيش بشكل دائم في **دبلن**، وذلك للبقاء إلى جانب والده الذي أُصيبَ بوعكةٍ صحيّة آنذاك، ولكنه تحسّن وأصبح أفضل حالاً اليوم. قبل مجيئه، كان يقيم في منطقةٍ على أطراف **كوبنهاغن**، حيث مارس مهنته في كتابة النقد الفنيّ. أمّا هنا فقد استمرّ في كتابة مقالاته النقدية، ولكن عمله الذي يتقاضى لقاءه أجراً، يقتصر على أعمال النسخ والمراجعة لمصلحة إحدى المجلات.

أثارت فترات الصمت لهفةً لا تُطاق بداخلي، لدرجة أنني خشيت أن تفلت مني ضحكة قوية في أي لحظة. لم يكن المكان ملائماً قط، فالمتحف له أجواؤه الجميلة ولكنه عتيق وقديم ومعتم، والقطع الفنية المعروضة فيه تدفعك بلحظاتٍ للضحك بشكل هستيري دون قصد. كنت وأصدقائي نقصد المتحف أحياناً ونحن في حالةٍ من السُكر وندخل في نوباتٍ من الضحك الهستيري الممتع أمام معروضات أعمال التحنيط البالية غير المتقنة. ولكن **كياران** كان يتجول بينها بجديّة بالغة وشعرت بنفسي غبيةً لذلك السرور في

داخلي. وقف يعاين الفراشات المحنّطة، فانتهزت انفرادي بنفسي لأتأمله على مهلٍ. أردت أن أكون أكثر قرباً، فاقتربت وتأبطت مرفقه الدافئ، وسألته إن كان يرغب بالذهاب وتناول بعض الطعام.

اجتزنا السلالم بمزيد من الصمت، وأصبحنا خارج المتحف، وهناك التفت نحوي وقال: «حسناً، هذا متحفٌ بشعٌ للغاية». جعلتني جديته المفرطة أضحك عندها وضحك معي.

قضينا بقية اليوم معاً، وتحدّثنا أكثر عن حياة كل منا. وصف لي مدينته التي نشأ فيها، وأنه لم يحزن يوماً على مغادرتها. وأنا أخبرته كيف تركت الجامعة، وحدثته عن المهن الغريبة التي عملت بها بعد ذلك. وأخبرته أيضاً عن كتاباتي، بذات الطريقة التي أخبر فيها الناس عادةً بهذه المعلومة؛ حيث أطرق عينيّ للأسفل كعيني قديسٍ ورعٍ وأشيح بنظري بعيداً، مع شعورٍ بالقلق وقليل من التفاؤل السرّي برغبتهم في سؤالي عن ذلك. معظم الرجال لا يقدّرون هذا القلق ولا يرون له أي مبرر، **وكياران** لا يختلف عنهم في ذلك. أومأ برأسه بخفّة، ومضى في حديثٍ آخر.

وفي المساء تمشينا على أرصفة الميناء، ثمّ غادرني للذهاب إلى محتَرفِه وإنجاز عمله. قبَلني ثمّ أخذ رأسي بين يديه وتفحّص وجهي بكثيرٍ من الارتياح، وقال إننا سنلتقي قريباً.

سرنا في الطريق باتجاهين متعاكسين. استدرت للخلف قليلاً لألقي نظرةً خاطفةً عليه، وهو فعل ذات الشيء؛ فشعرت بنفسي أحلّق بخفّة. كنا كلانا نضحك. سرت في طريقي مبتعدةً عنه، ثمّ بدأت أركض، وكان يجب أن أركض فالشعور كان قوياً جداً. ركضت وركضت، دون التمكن من التوقف عن الضحك وسط ذهولي، فكرت كيف قبّلني، وشعرت بأنني لا أرغب بتقبيل أي رجلٍ آخر غيره في تلك الساعة.

عندما أعود بذاكرتي إلى ذلك التاريخ، أرى أن أغرب ما كان في ذلك اللقاء هو تلك الرصانة الطاغية طوال ذلك اليوم معه. كنا منسجمين تماماً ومتوافقين ومنجذبين بعضنا لبعض بوضوح، ولكن ثمّة لحظة لم تكن موجودة؛ وهي لحظة الانبهار التي تنتابك أثناء الحديث. تلك اللحظة، التي

عشتها مع غيره قبل لقائي به والتي تشعر فيها أنّ كلّ الأجزاء تتراصف بعضها مع بعض بتناغمٍ آسر، إلا أن اللقاء كان خالياً من لحظة كهذه.

أعتقد أني حتى في تلك اللحظة التي أخذتني فيها حماوة اللقاء الأول، والسير على رصيف الميناء ساعة غروب شمس أبريل، كنت واعية لذلك. لم أهتم لشكله المضحك، أو لرأيه بي، أو ما هي الكتب التي نشترك في قراءتها.

كنت غارقةً في حُبه منذ البداية، ولم يكن له أو لغيره أن يفعل شيئاً لتغيير ذلك.

-7-

قبل كياران، عاشرت رجالاً آخرين على سبيل التجربة. كنت أجرّب أشياء كثيرة. كنت في مرحلةٍ عمرية غريبة. لم أكن تلك الفتاة المراهقة تحت السنّ القانوني العارفة بكل شيء التي تستخدم ذلك كقوة تأسر بها قلوب الرجال. ولم أكن قط تلك المرأة البالغة الرزينة التي قد تجذب الرجال بطريقة استقلالها وتحررها.

استمتع الأشخاص بصحبتي لأنني رغم ما أتمتع به من جاذبية ساحرة، لم أكن فتاةً مخيفة. حظيت بشخصيةٍ مرحة، حسنة المعشر، ومع القليل من اللؤم أحياناً ولكن بظرافة. كنت أبدو كامرأة وأضاجع كالنساء ولكنني كنت قادرة على التحدث وشرب الكحول وتعاطي المخدرات مثل الرجال.

كان عادياً بالنسبة لي اصطحاب أحد منسقي الأغاني، من ذوي الأجسام النحيلة والأطراف الطويلة إلى منزلي، وفي الصباح نذهب معاً لإضاعة الوقت في شوارع المدينة، دون ذلك التلميح الأخرق للرومانسية أو الالتزام.

كنا نشرب القهوة ملتحفين بمعاطفنا الفرائية المضحكة، أو نحتسي كأساً مبكرة من الجعة المغشوشة قبل أن نفترق ويذهب كل منا في طريقه، ومن ثمّ أراه في ذات الليلة في نادٍ آخر مع واحدةٍ من ذلك النوع من الفتيات اللواتي يبدون بالنسبة له فتياتٍ حقيقيات، فتياتٍ طويلات القامة ورشيقات، يتخذن من عرض الأزياء وغيره عملاً جزئياً بينما يتابعن دراستهن في كلية الفنون الجميلة. أعتقد أنّ أكثر ما أردته في حياتي هو أن أكون فتاةً حقيقية مثل أولئك الفتيات، ولكن لم أكن أعرف كيف أصبح مثلهن. لم أعرف طريقاً للتقرّب من أولئك الشبّان سوى مرافقتهم واللهو معهم. لم أكن فتاةً لا أهميّة لها، ولكن الأهميّة التي تمتعت بها لم تكن تلك التي أريدها، ولم أعرف كيف أستبدلها.

تلاشت حياتي كفتاةٍ لاهية. نمت مع الكثير والكثير من عشاق فتياتٍ أخريات، وتقيّأت بتأثير الثمالة في الكثير من غرف الجلوس.

أقلعت عن ذلك المرح الممتع وتحولت إلى المرح المحموم، ثمّ شعرت بأنني قد كبرت جداً على هذا وذاك.

وقعت أسيرة عادة مرافقة الرجال الأكبر سناً فقط دون درايةٍ بما أفعله بنفسي. كان اختراق حياتهم سهلاً جداً. لم يكن يعنيهم كثيراً إن كنت فتاةً جميلة حقاً أو استثنائية أو مثيرة للإعجاب. فأنا، وإن لم أعد آنذاك صغيرة كفاية لأكون بدعةً في الحياة الليلية، فقد كنت ما أزال صغيرة جداً من المنظور الأوسع للأمور. كنت صغيرةً كفاية لأسرهم بحكم شبابي فقط، حيث أقف أمامهم مثل نَصبٍ لأشياء لم يعد لديهم أي سبيل للوصول إليها.

التقيت برجلٍ من هؤلاء في حفل توقيع كتاب قبل فترة قصيرة من لقائي **بكياران**. كان أمريكياً ويعمل محرراً في صحيفة شعرية صغيرة مستقلّة. وكان يضع نظارةً سميكة مضحكة، ويرتدي سترةً صوفية دون أكمام، وله صوت يصفُر بنبرةٍ عالية خلال حديثه، وهذا أول ما جعلني ألاحظ وجوده؛ حيث كان يتحدث مع صديقه أثناء إلقاء الكلمات الافتتاحية لحفل إطلاق الكتاب دون أن يعير الكثير من الاهتمام للحاضرين من حوله لدرجةٍ جعلتني أضحك. رد عليه صديقه همساً وحاول تنبيهه إلى خفض صوته ولكن عبثاً لاحظ المحرر ذلك، واستمرّ ببث حديثه متشدّقاً بلكنة كاليفورنية جامدة. انتبه إلى نظراتي وابتسم لي، وأمضينا باقي السهرة نحتسي الكحول معاً.

ثمّة أمر أثار ذهولي في معرفة هؤلاء الرجال، وهو أنهم رغم عدم جاذبيتهم اعتقدوا بحقّ أنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يحلو لهم ويحصلوا على أي شيء يريدونه والحصول على أيّ شيءٍ يريدونه. كنت دوماً أحتسب بدقة علمية بالغة نسبة جمال الأشخاص الذين أرغب بمرافقتهم، وأبتعد كليّاً عن أولئك الذين يفوقونني جمالاً. ثم يحدث أن تلتقي أشخاصاً مثل هذا الرجل يمضون في الحياة مرحاً ويتطلعون ببهجة طائشة إلى كل ما يلمع في طريقهم. بالنسبة لهم، لم يشعروا بالحاجة لإبرام صفقةٍ متعادلة حيث

يتقدمون نحوك ويبتسمون لك قليلاً، بخجلٍ ربما، وتكون استحقاقاتهم خرافية وساحرة لدرجةٍ يُحسدون عليها.

«لديّ حبيبة» زفر هامساً في فمي، بعد أن دفعني إلى الحائط.

«حسناً» أجبته، ثمّ أشحت بنظري وقبّلته مرة ثانية.

عندما أخذني إلى منزله للمرّة الأولى، بعد بضعة أسابيع، خسرت من اللحظة الأولى زمام التفوق الذي ظننت أني حظيت به فقد كان الرجل ثريّاً. كان منزله كبيراً بغرفتي نوم، ويقع في ساحة **ميريون**. تحلى الأثاث كلّه بقماش موبرٍ ناعم بتدرجات ألوان البيج. وعلى الأريكة تمددت كلبة صغيرة ناعسة من فصيلة **كورجي**، اسمها **دوتس**، رفعت نظرها إلينا ورمشت لنا بعينيها. كوني شابة وجميلة أيضاً، منحني أحياناً شعوراً بأنني أملك الكثير، شعرت بأنّ هاتين الصفتين توازيان قوة العالم الواقعي، ولكن المال يطيح بهما في كل مرّة.

أخذني إلى السرير، وكنت أشعر بخجلٍ شديد لم أختبره من قبل. فخامة المنزل أرخت ثقلاً قابضاً، وملابسي الداخلية الرخيصة بدت مبتذلة. في النهاية، نزع عني ملابسي بالكامل ووضعني على السرير ثم جثا فوقي وراح بصبرٍ يزيح يديّ في كلّ مرةٍ امتدتا فيها لإخفاء الأجزاء الحساسة في جسدي. استمرّ يفعل هذا إلى أن توقفت عن محاولة تغطية نفسي، واستلقيت ساكنةً تحت ناظريه. بدا سعيداً جداً باحتضاني. لمس كل جزء في جسدي وقبل جبيني بلطف.

«أردت هذا منذ فترة طويلة، منذ رأيتكِ أول مرّة» قال لي.

«وأنا أيضاً» قلت له، وأنا أعلم تماماً أني لا أعني ذلك.

لم أرغب بالنوم معه، وعلى الأصح، لم أرغب إطلاقاً بالنوم معه. أردت الحفاظ على التواصل والحديث بيننا، الاستيقاظ على رسائل منه، أردت أن نسلّي بعضنا بعضاً، أردت للقاءاتنا البريئة على فنجان قهوة أن تستمر وتستمر، كي تستمرّ معها كل تلك الأشياء دون نهاية. ولكن هذا الذي حدث بيننا، الجنس، كان النهاية، وكنت أعلم ذلك.

بالمجمل كانت تجربةً جيدة إلى حدٍ ما، وذلك لأنه بدا متحمساً جداً،

وقد أسعدني أنني من بثّ فيه هذا الحماس، ولكن في نفس الوقت كان الحزن يملأ روحي مع كل خطوةٍ جديدة يقوم بها تجاهي. كل خطوة خطاها كانت خطوةً نحو النهاية. وما إن فرغنا من فعل كل ما يُمكن فعله، حتى استغرق في نوم عميق بينما التصقت بمعدته القوية ذات الملمس الناعم التي تبث شعوراً أبوياً بالاطمئنان -شعوراً مختلفاً تماماً لا يشعر به سوى الأيتام المشردين- وانخرطت بالبكاء

في الصباح استيقظت قبله، وذهبت إلى المطبخ لأشرب بعض الماء. تجولت قليلاً في أرجاء المنزل ورأيت أشياء لم ألحظها ليلة أمس لشدة ما كنت ثملة. في واحدةٍ من الغرف، التفت الكتب لتغطي الجدران من زاوية لأخرى، وتخلق جوّاً مريحاً وهادئاً بمجرد الوقوف وتأمّلها. وفي أكثر من زاوية انتشرت الكراسي المريحة، حيث يمكن لشخصين الجلوس للقراءة بصمت ممتع طوال اليوم قبل حلول المساء حيث يعودان لقضاء الوقت معاً. ربتُّ بيدي على **دوتس** التي كانت تلهث أمامي بفرح، ثم نظرت إلى الساحة عبر النافذة، وتخيّلت لو أني أصحبها للمشي في نزهةٍ إلى الساحة كل صباح ومساء، أن يكون لي نشاط روتيني كهذا في غاية الانتظام، تخيلت تلك الحياة التي تستيقظ فيها كل صباح وأنت تعلم ماذا عليك أن تفعل.

عدت إلى غرفة النوم، ولاحظت وجود حذاءٍ نسائي بكعبٍ عالٍ وزجاجة عطر وكريم مرطب ماركة **آفين** عند زاوية الجهة التي نمت عليها من السرير. فكرت أنها ولا بد أشياء تخصّ حبيبته التي قد تكون بعمر والدتي. شعرت بوجود حياة حاضرة وحياة واقعية اقتحمتها وأنا أجرّ أوحال ذاتي معي. لم أشعر يوماً أنني بعيدة تماماً عن الصفات الإنسانية كما شعرت يومها، وكأنني أداةٌ هشّةٌ صُنِعت تماماً للاستعمال لمرّة واحدة ولتؤدي وظيفة واحدة فقط. طلب لي سيارة أجرة لتقلّني إلى منزلي، وعرفت أني لن أسمع صوته بعدها، وهذا ما حدث فعلاً.

-8-

في تلك الفترة، كنت أعمل نادلةً في مطعم يقدم وجبات الهمبرغر بمختلف أنواعها، حيث لازمني الجفول من كثرة الحركة في المكان ومن رشفات الكوكايين التي كنا نستنشقها في الحمامات أثناء نوبات العمل المزدوجة.

كنت وصديقتي **ليزا** نعيش معاً في منزل نطلق عليه وصف كوخ التزلج الذي انخفض سقفه الخشبي بطريقة غريبة لدرجة تشعر كأنه يطبق عليك ببطء. التقينا أنا و**ليزا** في أول أسبوع لنا في **دبلن**، حيث عبست كلتانا حزناً في نهاية احتفالية المستجدين المرعبة، وأغمضنا أعيننا لنخفف بعضاً من كربنا. قَدِمت **ليزا** من بلدةٍ يعتبرها أهالي **دبلن**، المعتدّون بأصلهم، أقل شأناً وأكثر بساطةً حتى من بلدتي، فهم ينظرون إلى جميع الأشخاص الوافدين من خارج ضواحي مقاطعاتهم البائسة على أنهم فلاحون ساذجون وبسطاء.

انسجمنا بسرعة بعضنا مع بعض وبقينا هكذا حتى بعد انقطاعي المفاجئ عن الجامعة. عندما قالت إنها ترغب بارتياد حفلة راقصة بهدف الرقص، فاجأتني لاكتشافي أنها كانت تعني ذلك حرفيّاً، وليس كتعبير ملطف لرغبتها في الشرب حتى الثمالة. ما أقدره في **ليزا** هو أني رغم إسرافي الكبير في شرب الكحول، فأنا أشرب أكثر منها بكثير، لكن لم تبدر منها يوماً أي كلمة تجعلني أشعر بالخجل من نفسي لذلك، ولا حتى إيماءة تشير إلى أنها تلاحظ أمراً كهذا. تميزت ببساطتها وروحها الاجتماعية، فنادراً ما تراها وحيدة. ليس من جانبٍ في شخصيتها رام الإغفال أو شاء خصوصية العزلة. أحببت هذا فيها، وأثار إعجابي في مرونته وصلاحه، رغم إدراكي لتلك الحبكة المختلفة الخاصة بي في إغواء الصُحبة، والتي كانت مشروطة وكارثية في حال فشلها.

انتقلنا للعيش معاً بعد تخرّجها من الجامعة، وعملنا نادلاتٍ بدوامٍ كامل أو أقل قليلاً حسب ما تسمح أهواء أصحاب العمل. قضينا أيام العطل متكورتين تحت البطانيات والأغطية الصوفية على أريكتنا العجفاء البالية، نقضي الوقت بالاستماع للمذياع وتدوين كلماتنا في دفاتر مذكراتنا أو إرسال بريد إلكتروني أو البحث على شبكة الإنترنت، وهذا تحديداً كان بالنسبة لي يعني قراءة مدونات الموسوعات حول القتَلة المتسلسلين الأقل شهرة، وتدوين فقرات التفاصيل المذهلة بالنسبة لي مثل: «أثناء احتجازه للفتاة كرهينة، أعطى ضحيته رواية جزيرة الكنز لتقرأها، وشاهد معها فيلم هوك» أو مثل: «استطاع القاتل الوصول للنشوة الجنسية كأنه مراهق، فقط عندما شقّ ثقوباً في صور النساء»

شربنا الشاي المختمر اللاذع بترك أكياس الشاي في الكوب، واستمتعنا بالتدخين المتواصل للفافات السجائر، وفي بعض الأحيان، كنا نتسلى في فترة المساء بحلّ الكلمات المتقاطعة معاً. طبخنا وجباتٍ من البقوليات المعلبة والخضار الذابلة مع الكثير من الثوم والطماطم المقطعة والأنشوفة[1]. وغالباً كنا نكسر بيضة قبل إطفاء الموقد فوق كل شيء نطهوه تقريباً، ثم نلتهمه كله مع مسح الصحن ببقايا الخبز التي تكون إحدانا قد أحضرتها من المطعم الذي نعمل فيه. رغم شعوري الدائم بالتململ والضجر، خلافاً لليزا، يجتاحني القلق حول ما سيحمله الغد، إلا أنّ تواجدنا معاً كان عاملاً مخففاً. أذهلتني بطريقتها في تحويل أي مكان إلى منزل. فخلال أيامٍ من وصولنا كانت كل الزوايا -بما فيها المرحاض المريع المليء بالرطوبة- مزيّنة بتعليقاتٍ على الحائط وتماثيل صغيرة تمنحنا الإحساس بأننا في منزلنا.

كانت حكيمةً لدرجةٍ أنني كنت أعجز عن الإتيان بأي رد فعلٍ سوى تدوير عيني، وكأنّ ما ترتبه من نزهاتٍ وحفلات عشاء راقيةٍ مزدانة بأصناف الزهرة والسمك المشوي ومغامراتٍ في القطارات، كانت تحدياً لي. في الحقيقة وددت لو أني أريدها، وأحببت لو أن لي حياةً كهذه. أو على الأصح، أحببت أن أبدو كأنني أعيش حياةً كهذه. كل الأشياء التي صنعتها ليزا لتحقيق

1- الأنشوفة أو البلمية، نوع من أنواع السمك الصغيرة: المترجم

سعادتها الحقيقية بدت لي أشياء جيدة، لكنني لم أتطلع إليها كغايةٍ أرغب بتحقيقها بحد ذاتها، وإنما رأيت أن مثل هذا النمط من الحياة الذي يبدو نقيّاً وأنيقاً وسامياً سيحقق لي غايتي الحقيقية، وهي جذب أكبر عدد ممكن من الناس ولفت انتباههم وإثارة رغباتهم وفضولهم.

في بعض الأحيان انتابني بعض الشعور بالازدراء لدى التفكير بأشخاص مثل ليزا، أشخاص لا يفقدون السيطرة على أنفسهم أبداً، ليس لديهم الكثير من أي شيء، لم يسهروا يوماً إلى ما بعد الواحدة صباحاً. كان تثميني كبيراً لأفكاري الخاصة بمزاجي الحرّ، واستعدادي لفعل كل ما أريد فعله في أي وقت، وقابليتي للانقياد تحت تأثير أي دافعٍ جسدي كان يغويني في كل لحظة. بالنظر إلى ما كنت عليه في الحياة، أليسً هناك بعض الحقيقة في أنّ هؤلاء الأشخاص الذين يعيشون أجواءً أكثر أماناً، كانوا جبناء جداً لدرجة لا يمكنك السير على نهج حياتهم؟ لم يخطر لي أن ليزا كانت ربما تفعل بالضبط ما أرادت فعله، من المحتمل أنها راغبة بعيش حياةٍ هادئة ومليئة بفعل الخير تماماً كما عاشت. لم يخطر ذلك ببالي قط، لأنني لم أستوعب قط كيف يكون الشخص قادراً على شرب الكحول دون أن تكون لديه الرغبة بالاستمرار في الشرب، لم أدرك أن هناك بعض الأشخاص ليس لديهم مثل هذه الرغبة بداخلهم.

كانت في بعض الأمسيات تجلس وتفتح زجاجة من النبيذ الأحمر، من تلك التي تكون إحدانا قد سرقتها من المطعم الذي نعمل فيه، تأخذ رشفةً صغيرة وتتبعها برشفةٍ أكبر ثمّ تتنهد بسرور وتضعها جانباً لتحتسيها على مهل خلال ساعةٍ أو ساعتين وهي تقرأ كتاباً أو تشغل نفسها في المطبخ. الاستمتاع بكل رشفةٍ من الكأس الأول كانت فكرةً غير واردةٍ قط بالنسبة لي أنا التي اعتدت ابتلاعها بعبسة وجه واحدة، فالكحول، علاوةً على تأثيره المُسكر المديد، له طعم حامضي لاذع لا يزول إلا بعد سريان مفعول أول كأسين.

في عيد ميلادي الحادي والعشرين، رتبت حفلةً في منزلنا. وقفت ليزا وحبيبتها الجديدة هين في المطبخ بالطابق السفلي تصنعان لي قالب الحلوى بينما أنا في غرفتي في الأعلى أجهز نفسي وأسمع حديثهما الرومانسي الطَرِب ينبض بحلاوة الغزل. هللتا بفرح مع نزولي على السلم الحلزوني لكوخ التزلج وأنا أرفل بفستاني الأحمر.

ما فعلته ليزا في حياتها أمرٌ مستحيلٌ كما استحالة تعاطي الكحول باعتدال بالنسبة لي: لقد بقيت عزباء، أو بالأحرى، نادراً ما واعدت أحداً، إلى أن عثرت على الشخص المناسب لها. نادراً ما قبّلت أحداً خلال السنوات التي عرفتها، وكثيراً ما سألت نفسي كيف لها أن تعيش هكذا دونما أيّ شعورٍ بالملل أو الوحدة، ولكنني كنت أعلم أيضاً أنّ هذه هي الطريقة الأصح في الحياة، فالصبر وضبط النفس مفتاحك لتظفر بقصة حبٍ أبدي.

وهذا ما حدث مع ليزا، فقد اتخذت لنفسها حياةً سعيدة ومتكاملة، ثمّ جاءت هين ودخلت حياتها، وهكذا كان. كانتا مغرمتين بعضهما ببعض ضمن حالة عشقية خلت من أي عذابٍ أو إذلال. كانت بالضبط كما أرادتا لها أن تكون. وكنت أعلم أن ذلك لا يمكن أن يحدث لي أبداً لأنني لم أكن لأتحمل قضاء يومٍ واحد، وليس سنواتٍ متعاقبة، دون الالتفاف حول نفسي بحثاً عن شخصٍ تتحرك مشاعري تجاهه.

أذكر كيف أبدى الكثير من الأشخاص إعجابهم بفستاني الأحمر، وطلبوا مني الدوران لرؤيته ينفرد حول خصري مثل سحابةٍ حمراء، وأذكر كم شعرت بنفسي جميلةً وظريفة. وأذكر انطلاق الجميع إلى البار في ساعةٍ ما وأنني تشاجرت مع أحد جيراننا بعد خروجنا وتسكعنا على حافة الرصيف لندخن وننتظر خروج البقية. أذكر ليزا تلف ذراعها حول ذراعي وتشدني وأنا أرد على الجار بوقاحةٍ وتحدٍّ تحت غمرة افتتاني بعيد ميلادي ولست أتذكر أي شيء بعدها أبداً، إلى أن استيقظت عصر اليوم التالي ووجدت نفسي في سرير ليزا، وليس في سريري، دون أي سبب واضح.

نزلت السلم بحذر وأنا أحاول التقاط نظرة شاملة للمشهد في الأسفل؛ فرأيت ليزا تنظف المكان من صناديق البيتزا وعلب المشروبات الطافحة برماد السجائر.

«يا للقرف، ماذا حدث ليلة أمس؟» قلت لها، وأنا أحاول أن أبدو على طبيعتي مع رنة مرح في صوتي، رغم الخوف والتوتر القابضين على معدتي. «لماذا كنتُ في سريركِ؟»

«لقد لوثتِ سريرك بالدماء ليلة أمس ثم رحت تتجولين، لذا وضعتك في سريري بعد أن نظفت كل شيء».

أجابتني وهي تشغل نفسها بالترتيب، دون أن ترفع نظرها وتضع عينها في عيني.

«أوه، يا إلهي، أنا آسفة جداً يا ليزا. لا بد أنني أزلت سدادتي القطنية عندما كنت ثملة. يا إلهي، أنا حقاً آسفة جداً».

«كنتِ مع بيتر في السرير» قالت لي وقد قطبت حاجبيها تجهماً من الحدث بحد ذاته ولاضطرارها إخباري بذلك.

عرفت بيتر من خلال غريتا، التي كانت صديقة مشتركة بيني وبين ليزا. كانت غريتا حبيبته التي يصلها يوماً ويتركها في اليوم الآخر، وهذا ما أثار تعاطف جميع من عرف هذه الفتاة الجميلة الغافلة عن أحابيل ذلك المغازل العابث.

عجزت عن قول كلمةٍ واحدة وجاءت ردة فعلي بأن ضحكت بشدة وكررت قولي «أوه يا إلهي»، وكأن ما قالته لا يتعدى كونه إحراجاً عادياً مثل إحراج شخص سكب مشروباً على الأرض. ثمّ رفعت عينيها وحدجتني بنظرةٍ أصابتني بالدمار؛ لأنها لم تحمل شعورها بالازدراء من فعلتي بقدر ما حملت اكتراثها المشوب بالقلق. عرفت في تلك اللحظة أن ليزا، وفقط ليزا، قادرة على رؤيتي على حقيقتي. وحدها ليزا تستطيع إدراك أنهار الحاجة الهائجة بداخلي التي لن تتوقف أبداً عن الفيضان وتدمير كل بقعة تصل إليها ولم تكرهني بسبب ذلك بل رثت لحالي. حفر إدراك هذه المعرفة الآنيّة المُجفلة عميقاً في قلبي، فانسحبت من أمامها وعدت أدراجي إلى غرفتي في الأعلى وبقيت فيها حتى سمعت وقع خطواتها تغادر المنزل.

لم يمض وقت طويل بعد تلك الحفلة عندما أخبرتني ليزا بأنها ستنتقل إلى برلين مع حبيبتها هين. جزءٌ ما بداخلي انتابته الراحة لأنني لم أكن لأتحمل العيش معها فترةً أطول بعد تلك النظرة التي رمقتني بها، ولكنني لم أتحمل أيضاً فكرة أنها ستتركني وتغادر. لم أرغب بأن تكون قريبةً مني لأنها الشخص الوحيد القادر على رؤية ما أنا عليه، وفي نفس الوقت، لم أطق أن يتسبب ذلك في خسارتي لها.

اتخذت قراراً حازماً بالتصرّف كصديقةٍ وفيّة ومتفانية خلال الأشهر

المتبقية لنا معاً قبل مغادرتها. حاولت خلال تلك الفترة التعبير لها عن أنني بحاجتي لها دون قول ذلك صراحةً. حاجتي لوجود ليزا معي كان أصلح الحاجات التي أردتها في حياتي، ولسوف أحتاجها أكثر عندما تغادرني. وعدتني بأنها ستبقى صديقتي حتى لو انتقلت إلى مكان آخر، وبقيت وفيّةً لصداقتنا ولوعدها في أغلب الأحيان.

-9-

التقيت بكياران بضع مرّات في الأسبوع بعد لقائنا الأول، وكانت تلك اللقاءات غالباً بعد نوبات عملي المسائية المتأخرة في المطعم حيث أستقل سيارة أجرة أو أذهب سيراً إليه وأبقى عنده في شقته الأرضية الكائنة قرب مبنى السجن في كيليمنهام. ولم يكن يزعجه بقائي في منزله لساعاتٍ طويلة. لم يكن من الأشخاص الذين ينامون جيداً، والنوم العميق لا يزوره إلا متقطعاً بين الرابعة والثامنة صباحاً. كنت أصل إلى منزله بما أحمله من رائحة تعرّق خفيفة وروائح طبخ من المطعم، فأجده قد أعدّ لي حوض الاستحمام لأستحم وأسترخي فيه قليلاً وأنا أسمع همهماته وهو يعدّ لنا الشاي أو الشوكولا الساخنة مع صحنٍ مما لديه من كعك بائت.

لم يكن كياران يميل لشرب الكحول بكثرة وليس لديه أدنى اهتمام بالطعام، وذلك بسبب فقدانه لحاسّة الشمّ وجزء كبير من حاسة التذوّق جرّاء تعرّضه لحادث سير في طفولته، وهكذا اقتصر طعامه على تناول ما يحتاجه لشحن طاقته، حيث اعتاد تناول كميات كبيرة من خليط الشوفان مع الحليب والفاكهة ومعلبات الحُمص والأرز الأبيض.

فور انتهائي من تجفيف الحمام، كان يناولني من ثيابه قميصاً وسروالاً قديماً من القطن الخفيف عفا عليه الزمان فأضحى رقيقاً ومليئاً بالثقوب، ورغم كثرة المرّات التي نمت فيها عنده، فإنني لم أجلب معي يوماً ثياب نوم لي فقد أحببت ملامسة ثيابه لجلدي ورائحة صابونه المُطيّب برائحة الكمثرى.

وبعد ذلك، كنا نجلس على أريكته متعانقين يلمس واحدنا الآخر بلطف، ونتحدث بهدوء عن يومنا. كنا في غاية الدماثة في تلك الأمسيات، ضحكنا بمرح من أعماق قلوبنا على تعليقاتٍ أطلقها أحدنا على الآخر، تلامسنا برقّة

ولطافة لا مثيل لهما كما لو أن في داخلنا خوفاً من إيذاء تلك الحالة الجديدة التي يعيشها أحدنا مع الآخر.

في أول مرّة مارسنا فيها الجنس، شعرت بنفسي أفقد وعيي من فرط السعادة ومدى الصوابية الواضحة في ما يحدث بيننا. ثمّة رائحة زكية أحاطت بشفتيه تحسست مذاقها غالباً، وأدركت أنّه أيّاً كانت ماهية مكونات تلك الرائحة الغامضة فلا بد أنّ فيها ذات المكون الكيميائي الذي يحرّك جسدينا معاً.

(بعد بضعة أسابيع، صنع أحد الطهاة في المطعم الذي أعمل به، خلاصة الكمأة وقرّبها منّي وقال «شُمِّي هذا؟» خفقت بخارها تحت أنفي لشمّها، وعلى الفور قدّرتُ أنها *رائحة كياران*) استمعنا في أغلب الأمسيات للأغاني، خاصة تلك التي كنا أنا وهو نحبها مثل أغاني **بوب ديلان** و**هانك ويليمز**. وفي بعض الأحيان استأجرنا أفلاماً لنشاهدها معاً في سريره. كان ضخماً جداً حتى إنني جلست في حضنه دون التسبب في إزعاج راحته. شاهدنا معاً أفلام الدرجة الثانية الرخيصة العائدة لفترة الخمسينات، المحببة لكلينا والمضحكة جداً بالنسبة له. كان لديّ فضولٌ لمعرفة ما يراه ممتعاً أو ما يجعله سعيداً فقد كان رجلاً جديّاً للغاية.

في بداية الأمر، بدت أشبه بجدّية طفلٍ صغير يستكشف ما حوله من أشياء؛ تلك الجديّة البريئة والجذّابة، وتلك النبضة الحتميّة التي تخفق إثر تلقي معلومات جديدة. ربما كان **كياران** كذلك بسبب حداثة عهده في **دبلن**، حسب ما اعتقدت آنذاك، ولكن مع معرفة بعضنا لبعض أكثر فأكثر، بدأت أرى الجانب الآخر لهذه الجدّية.

كثيرةٌ هي الأشياء التي كانت تثير غضبه، وأكثر منها الأشياء التي تثير اشمئزازه. وكثيراً ما استنكر أحداثاً بدت بالنسبة لي عاديةً تماماً إن لم أقل مثالية. فمثلاً، عندما كنا نخرج للمشي في ساحة **ميريون** أو في حديقة **فونيكس** في أيام الآحاد، حدث أحياناً أن قذف الأولاد في الشارع الشتائم بصوتٍ عالٍ من خلفه، ساخرين من نظارته أو ثيابه الرثّة وهذا جعله يستشيط غضباً. سألني: «لماذا هم كذلك؟» وهو يرمقهم بنظرةٍ جانبية من فوق كتفه،

كأنما يريد الدخول في شجَارٍ معهم، بينما أجاهد أنا في ثنيه عن ذلك بلطفٍ قدر ما أستطيع موافقةً إياه بالرأي ومتعاطفةً معه.

كانت نقاشاتنا في منزله تحتدم وتصل لصراخ قد يدوم نصف ساعة عندما يكون الموضوع حول شخصٍ مشرّدٍ في الشارع أساء له بطريقةٍ أو بأخرى، أو حول فنان التقاه صدفةً في الطريق وتصرّف معه بوقاحة. وفي النهاية، كان ينهض واقفاً ويلفّ سيجارته بعنف ثمّ يدور في المكان وينفث دخانه وهو يعيد سرد ما حدث معتبراً إياه أمراً تافهاً. ولطالما كان احتواء غضبه أمراً يسيراً لدرجةِ أنه لم يكن يزعجني، بل في الحقيقة، ثمّة نبضٌ من الحيوية في بث شكواه لي، نبضٌ يبعث على التوحد والترابط.

كنت بطريقتي الفكاهية أغرقه بتعاطفٍ مفرط، حيث أتعلّق بكمّه المهترئ وهو يسير جيئةً وذهاباً، وأشده للجلوس بجانبي على الأريكة. ثمّ أقول له بحنو: «أوه، حبيبي المسكين» وأحتضن رأسه على صدري وأمطر وجهه بفيض من القُبل إلى أن أنجح بإضحاكه.

-10-

في نهاية شهر مايو، طلبتُ من **كياران** مرافقتي إلى نشاط قراءةٍ في صالة كان بعض أصدقائي قاموا بترتيبه، وقد التقى بعضاً منهم من قبل مصادفةً أو عرفهم معرفةً سطحية من خلال الحفلات الافتتاحية. ولكن كانت تلك أول مرّة نحضر معاً مناسبةً ونظهر كثنائي أمام الجميع. برأيي كنا آنذاك قد قضينا الكثير من الوقت معاً وبالتالي كنا فعلياً حبيبين سواء حصلنا على لقب ثنائي أم لا.

بدا **كياران** متجهم الوجه ونزقاً منذ البداية نظراً لعدم رغبته بالمجيء، ولكنه كان قد رتّب للقائي في ذلك المساء وبالتالي لم يمتلك حجّة مقنعةً للتنصل. عندما وقفنا مع الناس وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث. لم يشارك ولو بكلمة وراح يحدق بالفضاء فوق رؤوسنا كأنما أزعجه شبحٌ ما غير مرئيٍ بالنسبة لنا.

لاحظت أن الكثير من الناس يتغامزون بنظراتٍ سريعة توحي بأن سلوكه الغريب قد لفت أنظارهم. لاحظت في مناسباتٍ سابقة أنه يميل للهدوء، ولكن لم أره يتصرف بوقاحة صرفة. شعرت بالإحراج، وصرت أتحدث بصوتٍ أعلى وبوتيرة أسرع للتغطية على الموقف. أمسكت يده بلطف، وعندما وصل الحديث إلى إحدى دور النشر التي عمل لديها أحياناً، التفت إليه ووجهت له سؤالاً. هز رأسه قليلاً ثم عاد ليشيح بنظره بعيداً، مفلتاً يده من يدي ليدسّها في جيبه.

خلال نشاط القراءة، تسمّرت ملامح وجهه لتعكس، بطريقةٍ مضحكة، تعبيراً حاداً بالاشمئزاز. ثبتّ نظري إلى الأمام، وتمنيت ألا ينتبه له أحد آخر. وعند انتهاء النشاط، أمسكته من كمّه وسحبته خارج الصالة قبل أن يأتي أحد ما ونضطر للانخراط في حديثٍ معه.

«ما هذا الذي تفعلينه؟» قال لي وهو ينفض يده محاولاً إبعادي.

«لماذا تتصرفين بهذه الوقاحة؟»

كرهت نفسي لشعوري برغبة جامحة بالبكاء، ولكن هذا ما شعرت به. كل ما تطلعت إليه وأردته هو الذهاب برفقته إلى هذا المكان وتقديمه للناس والظهور على الملأ مع حبيبي الجميل الظريف.

«أمسية القراءة تلك كانت مقرفة».

نفض رأسه، ودسّ يده في حقيبته بحثاً عن علبة السجائر. ألقى نظرةً نحوي وأيقن أنني على وشك البكاء. التقط نظرة عيني وقدّر توقيت انهمار دموعي، فأخذ يمطّ فكه السفلي ويقلب شفتيه في إيماءة قرف مبالغ بها، ولسوف أحفظ هذه الإيماءة وأمقتها تماماً في قادم الأيام.

«بالطبع كانت مقرفة» قلت له «إنها مجرّد جلسة قراءة سخيفة وهذا ما تفعله أنت، فأنت تذهب لحضور فعاليات ينظمها أصدقاؤك بصفتك داعماً لهم، وتجاملهم مدعياً أنّهم بارعون حتى إن لم يكونوا كذلك».

«هؤلاء الأشخاص ليسوا أصدقائي، وكوننا أنا وأنتِ ننام معاً ليس سبباً ليصبحوا أصدقائي»

لم تسعفني كلماتي في الرد على ما قاله. اختصار علاقتنا بجملة «ننام معاً» لهو تأويل بَخس لما كان يحدث بيننا، ولا يمكن التفوه به إلّا بقصد إيذائي.

أطرقت رأسي وأطلقت العنان لدموعي، مع يقيني أنّ الأشخاص الذين أعرفهم ينظرون إليّ من رواق الصالة ويتهامسون بين بعضهم وبعض.

«ماذا؟» قال لي، وأردفها بسؤاله: «هل أردتِ أن أقول إنني غارق في حبك؟ لأنني ببساطة لست كذلك».

«لا». قلت له. وشعرت أن لا جلادة لي لفعل أي شيء مما كنا نفعله، فاستدرت وسرت باتجاه المنزل.

-11-

تلك كانت أول مرةٍ يتصرف فيها بهذا الجفاء تجاهي، رغم أنني لمحت جفاوته من قبل.

في إحدى الأمسيات كنا في مطبخه نتحدث حول أداء الفنان **كريس بوردن**، الذي سمعت به من الحادثة الشهيرة التي سمح فيها بتلقي رصاصةٍ في كتفه لتصوير أحد الأفلام. لمعت عينا **كياران**، ونصحني بالاطلاع على حوادث اختراق البث المباشر للتلفاز. التقط هاتفه وأراني صورةً لرجلٍ يقف خلف امرأة تجلس على كرسي، وقد أحكم قبضته على حنجرتها، ومن خلفهما لمعت الخلفية بلون أزرق لمّاع. بدت المرأة تقاوم للإفلات من قبضة الرجل.

شرح لي **كياران** المشهد: هذا المقطع من أعمال **بوردن** الأولى، التي وُلِدت من ولع **بوردن** بالتلفاز، وظهرت بوضوح في عمله اللاحق الشهير: الإعلانات التلفزيونية. وكان الظرف الذي أدى لحدوث ذلك الاختراق كما يلي: طلبت **فيليز لوتجينز**، وهي ناقدة في مجال الفن، من **بوردن** تحضير فقرة ضمن برنامج خاصٍ بالفن والثقافة، تقدمه على قناةٍ محلية. قوبلت جميع المقترحات التي قدمها **بوردن** بالرفض من القناة أو من **لوتجينز**. في النهاية وافق على إجراء مقابلة بدلاً من ذلك. وأصرّ على أن يتم بثّ المقابلة على الهواء مباشرةً.

لدى وصوله، بدأت **لوتجينز** المقابلة بطلبها إليه التحدث عن بعض الأعمال التي طرحها وتمّ إيقافها في النهاية. عند تلك اللحظة، وقف **بوردن** خلفها مشهراً سكيناً قرب رقبتها. وهدد بقتلها في حال قطعت المحطة البث. ثمّ تابع يشرح بالتفصيل ما أراد فعله، وهو إرغامها على تأدية حركات خليعة على الهواء مباشرةً.

لم تكن لوتجينز مدركةً لخطة بوردن، حيث بدا شعورها بالخطر والإهانة حقيقياً.

أصغيت باهتمام لحديث كياران، ثمّ حدقت بالصورة والقلق يغلي بداخلي.

سألته «لم تكن تعرف؟ لقد سحب سكيناً عليها؟»

قال: «هذه النقطة خارج الموضوع. وعلى أي حال، لم يزعجها الأمر. هذا ما قالته فيما بعد»

عندما قرأت عنها في الأيام التالية، وجدت مقابلات لها أكدت فيها أنها لم تكن شريكةً في الحدث وأنها فوجئت وخافت، ولكنها دافعت عن الفقرة - ببساطة، لأن هذا هو أسلوب بوردن.

تأملت الحدث، وفكرت بما قد يكون بديلاً مناسباً لذلك السيناريو تخيلت لوتجينز وقد تحررت من قبضة بوردن واستدارت لمواجهته، ووضعت عينها في عينه، تلك اللحظة التي توجب عليها اتخاذ قرارها: إما البكاء والصراخ في وجهه، أو أن تغمزه بعينها.

لو كنت مكانها ماذا ستختار؟ الخيارات كالتالي: إمّا أن تصبح مشهوراً لدورك الرئيسي بالصراخ في برنامج رجلٍ مشهور، أو قرباناً يُقدَّم لآلهة الفن، أو يمكنك أن تومئ برأسك وتصفق. يمكنك الجلوس على طاولة الكبار بصفتك أضحوكةً رائعةً. إذاً، هيا انطلق: ها ها ها.

أثينا، 2019

إن تهوين واقع أنكِ ضحية ليس سوى جزء من كونكِ امرأة. ولكِ الحرية في استغلال ذلك أو إنكاره، عشقه أو مقته، أو كل ذلك معاً. أن تكوني ضحيةً أمرٌ مملّ لكِ ولكل من حولكِ. فمن المضجر بالنسبة لي تقديم نفسي من خلال تجارب تُستغلّ دوماً لتكون أدواتٍ سردية في المسلسلات الدرامية والصحف الشعبية.

ألهذا السبب يا ترى أجد حرجاً كبيراً في الحديث عن أحداثٍ معينة، أو اعتبارها أحداثاً ممتعة؟ وعموماً هذا الأمر مرتبط بالخوف من التعرض للأذى. إنّ تجاربك معروفة جداً لدرجةٍ يستحيل فيها الحديث عنها بطريقةٍ ممتعة.

لو أردت قول شيء عما تعرّضت له من أذى، أجد أني أسمع صوتي يدخل في مجرى تيار النساء اللواتي تعرّضن للأذى، ويتحول إلى صوتٍ مجهول ليس صوتي.

ليست لدي القدرة ولا حتى تلك الرغبة بجعل نفسي مفهومةً. فلماذا يجب أن أجعل من تجربتي حالةً خاصة؟ وما الهدف من ذلك؟ هل يجب أن أخبرك عن الاغتصاب؟

أغضبني هذا الاضطرار للظهور على حقيقتي بوضوح على هذا النحو، رغماً عني. هناك سبب مقنع لخيارك بعدم العيش داخل جسدك طوال الوقت، وهذه الحادثة تحديداً أعادتني للسجن داخل جسدي لفترةٍ طويلة، إلى أن قاومت ونجحت في الخروج مجدداً.

أصابني التقوقع داخل الجسد بالاكتئاب لدرجةٍ تحولت معها إلى إنسانةٍ

مبتذلة. لم أملك ذلك الجسد الأغرّ أو الخارق أو النابض بالحياة، وإنما كان مجرّد مادةٍ للاستخدام. وهذه الحقيقة لم تزعجني أو تفاجئني بقدر ما أضجرتني: كنت أنظر إلى نفسي فأجدني متكتلة وغير أنيقة ومُهانة، فأقول لنفسي: وما الضير في ذلك؟

لم تكن ممارسة الجنس دون رغبتي أكثر شيءٍ أثار غضبي، وإنما تلك الفكرة المضجرة الراسخة في الذاكرة بأنّ الرجال قادرون غالباً على فعل ما يريدون، والبعض منهم يفعلون حقاً ما يريدون. أعلم أنّ تشبيه الاغتصاب بممارسة الجنس فكرة باطلة (فالمعنى الضمني يفيد بأن الاغتصاب فعل عنف وليس فعلاً جنسياً؛ ألا يمكن أن يكونا كلاهما قائمين كفعل؟ وأنه في بعض الأحيان يكون أحدهما متفوقاً في فاعليته على الآخر؟) وبالنسبة لي، بدا الاغتصاب شبيهاً بممارسة الجنس إلى حدٍ كبير. ومن وجهة نظر جسديّة بحتة لم أشعر ولا بفارق صغير بين الاغتصاب وبين بعض أمقت العلاقات الجنسية العرضية التي اختبرتها؛ تلك العلاقات التي أدركت فيها على الفور عدم رغبتي بمتابعة فعل الجنس، ولكن تابعت ذوقاً مني وتظاهرت بالمتعة لإنهاء الأمر بسرعة.

سيكون من الأسهل لو استطعت رسم خطٍ منصفٍ في المنزل، حيث أخضع للاغتصاب في النصف الأول، وللجنس في النصف الآخر. كثيرةٌ هي المرّات التي مارست فيها الجنس في حياتي دون رغبةٍ مني. وفي المرّة الوحيدة التي اعترضت فيها، مُنيت بالهزيمة.

ولست أشعر بوجود أي فهم مشترك يتنامى بيني وبين النساء الأخريات اللواتي تعرّضن للأذى بذات الطرق التي تعرّضت فيها للأذى. لا أرى أي خيط من خيوط التآخي يجمع بين تجربتينا. فسمةُ الحنان المتأصلة في شخصية المرء (الذي هو أنا) الذي تعرّض للاغتصاب، وما يزعمنه من النعومة والمرونة، لهي سماتٌ تثير اشمئزازي - أنثوية هذه السمات تثير اشمئزازي.

ألهذا السبب يا ترى أشعر بالخجل من نفسي؟ بالطبع؛ لا بد أنّ هذا يشعرني بالخجل نوعاً ما؛ قليلاً.

-12-

بعد بضعة أيام من شجارنا في جلسة القراءة، اتصل بي **كياران** واستأذنني في أن يأتي إليّ. جلست أنتظر لحظة قرعه الجرس، وأنا مقتنعة تماماً أنه آتٍ ليخبرني بإنهاء علاقته بي. وعندما وصل، كانت عيناه دامعتين ورقيقتين كما لم أرهما من قبل.

جلسنا بعضنا بجانب بعض دون تلامس لفترةٍ طويلة. وكنت أتحرّق للقول إنني تصرّفت بغباء، وإنني أريده أن ينسى تلك الأمسية بكل تفاصيلها، وأرجوه قائلةً: أليس بإمكاننا العودة لما كنا عليه، أيّاً كان ما حدث؟ ألا يمكننا ذلك؟ أرجوك، أرجوك، أرجوك؟

قبل استجماع قوتي للبدء في ذلك، سبقني وشرع بالكلام. بدا متوتراً وغير قادر على رفع نظره كعادته عند الحديث عن أمرٍ شخصي، ولكنه بذل جهده لقول الحديث الذي أعدّه.

لقد جاء معتذراً.

أراد مني فهم فكرة أنّ ما حدث بينه وبين حبيبته السابقة **فريجا**، سبب له جرحاً عميقاً. لم تكن **فريجا** مخلصةً له إطلاقاً وخانته، ليس مع رجلٍ واحد، بل مع أكثر من رجل، وليس بحالاتٍ متباعدة، بل مراراً وتكراراً وباستمرار خلال فترة علاقتهما الطويلة. كانت **فريجا** أول امرأة أحبها، وعندما اكتشف خياناتها، عاشا فترةً طويلةً يدوران في حلقةٍ معيبة من الجدالات والخصام، تلاها وصالٌ مليء بالدموع، ثمّ عراك وصراخٌ في آخر الليل، ثمّ خروج إلى الحانات للشرب حتى الثمالة وتحقيق الانتقام بممارسة الجنس مع الغرباء.

ارتبطا بعضهما ببعض برابطٍ وثيق جداً لدرجةٍ لم يخطر له أن أحدهما قادر على الانفصال عن الآخر يوماً. وفقط عندما مرِضَ والده وقرر الانتقال

إلى **إيرلندا**، أدرك أن هذه فرصتهما للانفصال بهدوء. قال لي: «يجب أن تفهمي أني عشت أجمل أيام حياتي مع **فريجا**. وأنها ليست شخصاً سيئاً».

تضيقت عيناي مع سماع ما قال. فتابع مستطرداً «لقد فعلت أشياء مريعة، ولكنها فعلتها لأنها لم تكن سعيدة. وقد آلمها أنها أساءت لي بتلك الأفعال. أنا أكرهها، ولكنني أحبها أيضاً. هل يمكنك فهم ذلك؟»

كان عقلي يعمل بطاقات مضاعفة ليستوعب أو يرفض، بشكل انتقائي، المعلومات الكثيرة التي كان يخبرني بها. لقد كان آسفاً: هذا جيد. كان منفتحاً في الحديث عن ماضيه: هذا جيد. ولكنه أحبها: هذا سيئ.

«نعم» قلت له وأنا أحاول التفاعل كشخصٍ ناضج.

قال لي: «آلمني ما حدث كثيراً لدرجةِ أنني منذ ذلك الوقت، لم أرغب بالتقرّب من أي شخص. شعرت بنفسي مستنزفاً، ولا أريد التعرّض للأذى مجدداً، ولا إيذاء شخصٍ آخر. لا أريد إيذاءكِ، ولكن أريد المحاولة». وما زلت أذكر بكل دقة ما فكرت فيه بتلك اللحظة، بأنني لا يمكن أن أؤذيه أبداً. أتذكر تلك الغيرة العنيفة تعتلج في صدري. وعدت نفسي بأني سأجعله يثق بي، وسوف أعيد بناء ما دمرته فيه.

ضغط بجبهته اللاهبة على جبهتي وأغمضنا أعيننا، وكنا معاً.



نوفمبر 2012

-1-

فصلت حياتي مع **كياران** عن حياتي مع أصدقائي، مع الاستمرار بحمله لمرافقتي لحضور بعض المناسبات، ولكن فقط المناسبات الكبيرة العامة التي لا تتطلب المكوث فيها طويلاً ولا الحديث مع الناس. ورغم أنه نادراً ما بَدَرَ منه تصرّف وقح، كما فعل سابقاً في جلسة القراءة التي شهدت أول شجارٍ لنا، فإنه لم يكن ماهراً في تصنّع الاستمتاع.

في النهاية، بدا لي أنه من الأسهل تركه وشأنه ليفعل ما يسعده، وأنا أذهب للقاء أصدقائي حسب ما يسمح وقتي. وجود تلك الكراهية بينه وبين أصدقائي لم يكن في بعض الأحيان مريحاً، ولكن ليس أكثر من ذلك. وبكل الأحوال، فضلت أن أكون مع **كياران** بمفردي.

أصبحت حالات التجهم وفورات الغضب أقل تواتراً، وفي المرّات التي تذَمّر فيها من شيء ما، فعل ذلك مع إلقاء بعض اللوم على نفسه واستهجان ذاته، والاعتراف بأنه يتصرف مثل عجوزٍ مشاكس.

مع ازدياد برودة الطقس، ارتدى معطفاً قديماً بالياً، مع قفازات تغطي الكفّ دون الأصابع ووشاحاً صوفياً رقيقاً عديم الفائدة من قماش **الطرطان**[1]. لا أذكر أننا تشاجرنا ولو مرّةً واحدة في تلك الفترة من السنة، حيث مضيت قدماً في علاقتنا بعزيمة صماء. وبتُ بمرور الأيام أشعر بمزيد

1- نوع من القماش الصوفي الطويل الذي ابتدعه الإسكتلنديون، ويشتمل على خطوط عريضة ملونة تتقاطع بزوايا قائمة على خلفية من الألوان الثابتة - المترجم

من الأمان والارتياح معه؛ حيث تكفّل الزمن بإضفاء الشرعية على العلاقة. وكلما بدأ شهر جديد غمرتني السعادة بدرجاتٍ متميزة.

تأملت كيف التقينا في شهر أبريل، وأننا اليوم بتنا في شهر نوفمبر، إذاً، قضينا فصلين كاملين من العام معاً، وها نحن نسير بانسجامٍ جيد نحو الفصل القادم.

-2-

في واحدةٍ من ليالي العطلة الأسبوعية، وتحديداً عند الساعة الثانية صباحاً؛ حيث كنا قد انتهينا تواً من ممارسة الجنس، وذهبت إلى المطبخ لأحضر بعض الماء لكلينا وعدت إلى السرير، التفت إلي وسألني: «ما عدد الأشخاص الذين نمتِ معهم؟»

«لماذا تسأل؟» قلت له مع الحفاظ على نبرةٍ صوتٍ عادية ومنخفضة.

«من فترةٍ قريبة جرى حديث بيني وبين أحد زملائي في العمل حول ذلك، وبدا حديثاً ممتعاً. الأمر مجرّد سؤال ليس أكثر»

ذهبت بتفكيري إلى فيرجا التي خانته مع الكثير من الرجال، ثمّ رحت أحسب بسرعة كم عشيقاً ذكرت أمامه وفوقهم الأشخاص الذين أشرت إلى وجودهم في حياتي يوماً، وما الكذبة التي ستكون مقنعة.

«تسعة» قلت له.

«أرأيتِ؟» قال بسرعة وقد استقام في جلسته والتفت نحوي كأنه كان يتوقع هذا الجواب. «أنا أيضاً نمت مع تسعة أشخاصٍ، ولكن أنتِ أصغر مني بسنوات. كل من أعرفهم ناموا مع أشخاصٍ أكثر مني. ما بال الناس هكذا؟ هل يفعلون ذلك مع أي شخص؟»

في الواقع، لم أستطع إحصاء عدد الأشخاص الذين نمت معهم. على الأغلب كانوا نحو ثلاثين شخصاً وقتها، أو ربما أكثر. في المرّة الأولى التي تركت فيها المنزل، كنت أشرب الكثير من الكحول وضاعت من ذاكرتي فترات زمنية طويلة، ولست أستطيع ولا حتى لديّ الرغبة بتذكر ما حدث آنذاك بالتفصيل.

لم يزعجني أني اضطررت للكذب وإنما سرعة بديهتي في اختلاق تلك الكذبة.

-3-

في تلك الأيام خففت من شرب الكحول، ولم أسرف إلا خلال لقاءاتي مع أصدقائي. كان **كياران** يستاء من الأشخاص الذين يشربون حتى الثمالة، وقال إنه لا يحب الوصول بنفسه إلى هذه المرحلة، ولكننا في العطل الأسبوعية كنا في بعض الأحيان نتوقف عند حانة **الستاغ هيد** وما هي إلا كأسان أو ثلاث وتراه يترنح منتشياً.

أحببت أنه يسكر، وأحببت عندما كنا نسكر معاً. بالمعنى الدلالي لكلمة سكّير لم يكن **كياران** سكّيراً جيداً مثلي، يتمايل إلى حدٍ ما بذات الطريقة دوماً - كان سكّيراً رائعاً. فهو إن ثَمِل، تختفي جدّيته ويتحول إلى شخصٍ مثير ودمث، وتلمع عيناه بشغفٍ تائه، ويصبح حنوناً مثل طفلٍ صغير، ويحملني بين ذراعيه ويدور بي ثم ينزلني ويغمرني بالقبلات. كان سعيداً، خلافاً لما كان عليه لفترة طويلة بحكم طبيعته الرزينة. طبعاً كانت سعادةً مزيفة، ولكن من يستطيع لومي على تصديقها وقتما كانت تتحقق بسهولة وباستمرار؟

في ليلة السبت، كنا أحياناً ونزولاً عند رغبتي، نحتسي النبيذ الروسي الأبيض، ونشاهد أفلام الرعب ونسهر حتى الفجر ونحن نستمع للأغاني. والأجمل من ذلك عندما نكون وحدنا، ويسمح لنفسه بالإسراف بالشرب حتى يثمل فعلاً، وعندها نقضي الوقت ونحن نرقص ونلفّ في أرجاء غرفة المعيشة ونملأ المكان بضحكاتنا.

وفي غمرة النشوة، ثبتّه على الأريكة ودغدغته، ورحت ألمس بشفتيّ ذلك الجزء الرائع بين سرّته وإبزيم حزامه وهو يشهق ويتلوى. انقلبنا على الأرض معاً متلاصقين ومترنحين. في تلك الليالي، مارسنا الجنس هناك على السجادة الرثّة القديمة وفوقها تمددنا بوجهينا المتوردين وأنفاسنا المنقطعة من الحركة العنيفة. وفي الصباح أشعر بالذعر لرؤية كدماتٍ حاميةٍ

مزرقة على ركبتيّ أو ظهري، ولكن سرعان ما أدرك أنها بسبب ليلة أمس، وأبتسم سرّاً.

في بداية واحدةٍ من تلك الليالي، وقعت بيننا تلك المشكلة المتعلّقة بقصائد كتبها **لفريجا**.

كنا نحتسي الخمر في حانةٍ قريبة من منزله، حانة صغيرة من نمط **الدايف بار**[1]، التي تتميز بلافتاتٍ مكتوبة بأنابيب مُضاءة، وأرضيتها مغطاةٌ بنشارة الخشب. كنا نجلس إلى البار على الكراسي الدوّارة بعضنا قبالة بعض، ويدا كل منا إمّا مرتخيتان على رجلَي الآخر، أو ممدودتان تلامسان بنعومة العنق أو تمسحان على الشفاه، أو تلتهيان بلمس موضعٍ آخر.

كنا نتحدث حول كتابات **كياران**. وكان آنذاك قد ارتقى في عمله إلى منصبٍ أفضل تميّز بيوم عطلةٍ إضافي في الأسبوع ليتمكن من التركيز على عمله الإبداعي في الكتابة. لم يسبق له أن سمح لي بقراءة شيءٍ من كتاباته، عدا بعض المراجعات والكتابات الأكاديمية، التي كانت بمعظمها كتاباتٍ فارغة بالنسبة لي. كان يتحدث عن سلسلة قصائد بدأ بكتابتها منذ فترة. أصغيت إليه وهززت برأسي تأييداً مع شعوري بالفخر والدعم، إلى أن زلّ لسانه في لحظة سُكر وقال: «... وهذا الفصل سوف يضمّ القصائد التي كنت أكتبها عن **فريجا**...».

لم يرد اسم **فريجا**، إلا نادراً، بعد تلك المرّة التي حدثني فيها عنها، منذ ستة أشهر خلت. لم يزعجني الأمر، لأنني كنت عازمةً ومتأكدةً من سير الأمور بيني وبين **كياران** نحو الكمال، ولم أحسب لها أي حساب.

«أيّ قصائد؟» سألته ودقات قلبي تتسارع.

«لا بد أنني أخبرتك عنها من قبل» أجابني، وهو يأخذ رشفةً من جعته. «ألم أخبركِ؟ كنت أكتب سلسلةً من القصائد عنها وعن علاقتنا، وتحديداً فترة البداية حيث عشنا معاً في **أوسلو**»

أومأت برأسي ببطء، وأنا أسمع هذا وأحاول تقليبه في ذهني بسرعة قدر المستطاع.

1- نمط من الحانات تحتوي باراً صغيراً وغير لامع وقديماً، مع مشروبات رخيصة - المترجم

قلت لنفسي: *لا تقيمي وزناً للموضوع*. كنت براغماتية، اجتاحتني حالةٌ من الذعر فعلاً، وحاولت جهدي استعادة رباطة جأشي.

(ما الأفعال التي أتوقع من الناس أن يتسامحوا معي بها؟ وإلى أي مدى يمكنني طلب ما أحتاجه بمنطقية؟)

(لا شيء، لا شيء، لا شيء).

ذهبت إلى الحمام ووقفتِ قرب المغسلة، وبكيت بحرقةٍ فوراً، دون أي تفكير. كنت أعرف أنّ هذا التصرّف صبياني ولكن كان من المؤلم جداً تلقي ذلك التذكير العرضي، أنّ كل الاهتمام الذي بذلته واقعٌ في مهب نزوات الآخرين.

خرجت من الحمام وعدت للجلوس على الكرسي الدوّار، لمست وجهه بيد وضغطت على ركبته بيد، وابتسمت قدر ما استطعت. بدا خجلاً ولكنه ألقى بعض الابتسامات الفاترة أيضاً. فكرت بيني وبين نفسي، مع ذرّة من الكراهية، بأنه لم يكن ليخبرني بذلك لولا أنه كان مخموراً. رغم كل تصرّفاته المعبرة عن كراهيته للسكارى القذرين، فبوسعه أن يتصرف كواحد منهم.

«لستِ منزعجة، أليس كذلك؟»

«لا، بالطبع لا. أنا فقط متفاجئة».

«جيد، جيد». واستمر برسم تلك الابتسامة البلهاء المبهمة، دون النظر إلي مباشرةً.

«لأنني، في الواقع، أعتقد أن تلك القصائد جيدة جداً. كانت **فريجا** معجبةً بها»

تغضن وجهي لا إرادياً، كما حدث عندما كنت وحدي أمام المغسلة قبل دقائق.

«أرسلت القصائد لها؟ أرسلت **لفريجا** القصائد التي كتبتها لها؟»

«نعم، لأعرف رأيها فيها. وفكرت بأنها ستحب الاطلاع عليها. نحن أصدقاء فقط، وأنتِ تعلمين هذا».

حدقت فيه، غير مصدقةٍ لما سمعت، مع شعور بالقهر. لم أبكِ في

الواقع، ولكن أصابني شيءٌ من الهمود الجسدي الذي شعرت به، ولا بد أنه كان واضحاً للعيان.

حتى تلك اللحظة، لم أعرف كيف كنت أخفي كل ما في قلبي مع تلك الأشهر الثلاثة الأخيرة بكلّ عناية ودقة. شعرت بجسدي كأنه يحبس أنفاسه منذ وقتٍ طويل، وللتو أدرك أنه لن يقوى على فعل ذلك للأبد.

ما شعرت به كان خذلان الخرافات والتعويذات، وعدم جدوى الصلوات.

-4-

عندما كنت طفلةً صغيرة، دهست سيّارةٌ مسرعةٌ قِطيَ الصغير وأكملت طريقها دون أن تتوقف. في تلك الليلة، تمدد القطّ في الحظيرة بانتظار أن يتم دفنه.

انتظرت حتى نام الجميع، وتسللت إليه تحت جنح الظلام، فوق الأرض الرطبة المليئة بالطحالب. سحبت البطانية التي كانت تغطيه، ووضعت يدي على بطنه المعهود بحيويته، ولكنه بالطبع كان ملمسه مختلفاً بكل المقاييس: بارداً حدّ التجمد حيث يجب أن يكون دافئاً، ومتحجراً مثل لوح كرتون جديد حيث يجب أن يكون طريّاً.

مع لمسي لهذا الاختلاف، عرفت أخيراً أنّ ما حدث أصبح حقيقةً لم أستطع تصديقها. تابعت تمسيد بطنه وتمسيده، وأنا أحاول إبرام صفقات النذور مع الربّ. فكرت بوعده بالبقاء هناك طوال الليل؛ أو ماذا لو أني مسّدت ذلك البطن الميت القبيح ألف مرّة بالتمام والكمال، وأتضرّع إلى الله: أرجوك، أرجوك، أعده لي، أعده لي، لن أتوقف عن التوسل إليك.

-5-

منذ شهورٍ وأنا أعيش مع **كياران** في صفقةٍ مستمرّة. كل يومٍ مرَّ معه بسلاسة وراحة وشعورٍ بأنني حبيبة جيدة، رافقه تقديم الشعائر.

توقع جسدي أنّ ما يبذله من صبر وجلادة سوف يؤتي ثماره يوماً. ولكن اتضح فجأةً أنّ كل ما صبوت إليه مجرّد تفاهات، ولم أعد قادرةً على سَحرِهِ لإيقاعه في حبي أكثر مما فعلت لإعادة حيوانٍ إلى الحياة.

عندما نظرت إليه مجدداً وأنا في حالةٍ من الانهيار، بدا أكثر لؤماً.

«بالله عليكِ، لا تتصرفي كالأطفال»

أحدث خدشاً في الأرض وهو يدفع كرسيّه الدوّار إلى الخلف، لينهض ويسير متجاوزاً إياي.

تحركت شفاهي غريزياً تناديه: «انتظر».

كم أتمنى لو تعود بي الأيام إلى تلك اللحظة، لأضبط نفسي، وأربت بيدٍ مطمئنةٍ على قلبي وأقنع نفسي بالتمهل. كنت سآخذ كأساً أخرى من الكحول وأهدئ من روعي ثم أعود إلى المنزل. ولكن جسدي كان يتحرك دون عقلي، حيث هرعت ألملم أشيائي تحت طاولة البار، وخرجت أركض مسرعةً على سكة الترام، وألتفت محدقةً يمنةً ويسرةً. رأيته يسير مسرعاً أسفل المتحف الوطني. كان يتحرك بخطواتٍ ثابتة متمكناً من إخفاء كل علامات الثمالة التي كانت عليه قبل دقائق. لحقت به، وناديته بصوتٍ واهن: انتظر، انتظر. تمكنت من اللحاق به، وقبضت على كتفه عندما وصلت إليه.

دفعني بعيداً عنه بعنف حتى أن جسدي ارتد للخلف وتعثرت، بكيت بحرقة ورجوته مراراً وتكراراً.

ما أثاره الشجار الذي حصل بيننا للتو من كراهية في نفسه لي، تضاعف

في حدّته مع مشهد انهمار الدموع، فالبكاء بالنسبة له فعلٌ مثير للنفور. تضيقت عيناه، واختفى من ملامحه كل أثر لعاطفةٍ دافئة. ولسوف يشيح بوجهه عني ويرفض مشاهدة دموعي.

هل كان محقاً في شعوره بالاشمئزاز من منظري؟ هل كان كل ذلك مجرّد استعراضٍ أو حيلة لكسب العطف؟ لا يمكنني الجزم في أيٍّ منهما، ولكنني أجزم أكيداً بسيادة الضلال وغياب الوعي. لم ينجح الأمر ولا مرةً في إثارة أي عاطفةٍ أو شعورٍ إيجابي، ورغم ذلك استمررت في فعله.

لم أرد قط فعل ذلك، ولكن بدا كبح هذا الفعل أشد استحالةً من كبح فعل التقيؤ اللاإرادي، وجدارته في إبعاده لم تحفزني سوى لتكراره بقوةٍ أكبر.

أظنّه كَرِه فقدان السيطرة أكثر من أي شيءٍ آخر، فرؤية شخصٍ بالغٍ يبكي معاناةٌ مزعجة لأنّ نحيب الشخص البالغ يبدو صبيانياً ومنقوضاً على نحوٍ مثيرٍ للشفقة خلافاً لنحيب الأطفال (فالشخص البالغ ملعونٌ باتساع خبرته، ويفتقر إلى النقاء الأحادي التفكير لحزن الأطفال)

ثمّة جزءٌ مني قرر فعلاً العيش لأجله والسماح له بتحمل العبء الأكبر من ذاتي. كنت أيضاً خائفة جداً منه ومما فعله بي، لدرجة أنني لم أستطع يوماً البوح بهذا القرار له أو حتى لذاتي.

وبالتالي كنت في لحظاتٍ كهذه اللحظة، التي وجدت فيها نفسي في مواجهةٍ مباغتة مع حاجتي، لا أجد رد فعلٍ سوى إنكارها -إنكاراً هيستيرياً- إنكار أنها موجودة أصلاً. ومن هنا يأتي عويل الاعتذارات والترجي، من الرغبة في جعله ينسى في الحال أنني قد طلبت منه شيئاً.

في هذه اللحظات -ذلك أن تلك كانت أول لحظة من لحظاتٍ تكرّرت في النهاية مئات المرّات، شهور وسنوات بأكملها من الانبطاح- توسلت له لأدرك كم كنت تافهةً بالفعل. وفي لحظات جثومي واختبائي قلت إنني لا شيء، بل كنت سعيدةً بكوني لا شيء إن كان هذا أكثر ما يرضيه. وإذا كانت صفة اللاشيء أصغر مشاكلنا، فسأكونها وبكل سرور. كنت على استعدادٍ لأكون شخصاً فارغاً وساكناً تماماً إن كان ذلك يجدي نفعاً، أو صاحبةً حسب ما يطلبه مني لتبديد صمته. كنت على استعدادٍ لأكون بقمّة النشاط

والحيوية إن شعر بالملل، وفي حال سئم ذلك، سأتحول إلى كينونةٍ عاديةٍ ذات فائدة، تماماً مثل أدوات المائدة.

لم أطلب منه الحب. لم أكن أريد منه أن ينظر باتجاهي ويراني حيث لا شيء لديّ لأقوله بكل ثقة لأعبّر عن نفسي. كنت أصاب بالرعب إن ظهر شيء من احتياجاتي ذلك أنها كانت حقيقية.

كانت الحاجة حقيقةً واقعة وجزءاً من إنسانيتي، ولكنني لم أشعر بأي شيء آخر يجعلني حقيقيةً أو إنساناً، وهكذا بدت الحاجة ضرباً من الإثم والشذوذ.

سار باتجاه المنزل دون أن يمنعني ولو بإيماءةٍ من اللحاق به. تجاهلني، واحتملت ذلك، بل كنت في تلك اللحظة أشعر بالمتعة، فالأفضل أن أثبت له أنني شخصٌ مُغرِقٌ في الهدوء والطيبة. عندما وصلنا إلى منزله، وقف أمام الباب والتفت نحوي.

«يمكنك الدخول، ويمكنك البقاء، ولكن لا أريد التحدث في هذا الموضوع الليلة ولا حتى في وقت آخر. أنا و**فريجا** شخصان راشدان. نحن أكبر منك سنّاً. نحن على علاقةٍ معقدة، ولكن لا شأن لكِ بها، وليس لها أي تأثيرٍ عليكِ. مفهوم؟»

هززت رأسي موافقةً بلهفة. لم أنبس بكلمة واحدة في ذلك المساء، نظفت أسناني، وخلعت ملابسي بصمت. عرفت أنه سيدير لي ظهره في السرير فلم أرغب بإزعاجه ولم أعترض.

استيقظت عند الفجر. كانت السماء في الخارج تلمع بلون رماديٍ موحّد، وتنبئ باقتراب أعياد الميلاد.

ألقيت نظرةً على **كياران**، غارقاً في النوم والعبوس يعتلي وجهه. بدا أكثر شباباً وهو نائم، وبرز نحول جسده بوضوح مع ارتدائه قميصاً قديماً ضيقاً. كان جسده ينضح بسخونةٍ نديّة مثل سخونة طفلٍ أعرقته الحمّى. لا أزال أنزلق بسهولةٍ في حبّه عندما أفكر فيه بهذه الطريقة تحديداً. بدا إلى حدٍّ ما قادماً من عصور ما قبل التاريخ، مخلوقاً شارداً، أو حيواناً غير جاهز بعد للوجود، ولا فائدة تُرجى من إظهار الشعور بخيبة الأمل معه.

انسحبت من السرير بحذر، وأنا أشعر بقليل من الغثيان والخوف في جوفي. خرجت إلى الغرفة الأمامية ووقفت أحدق خارج النافذة، بينما أتمطط وأمدد ذراعيّ نحو السقف.

ألقيت نظرةً خاطفةً في المكان وأنا أفكر في تناول وجبة من الشوفان والفاكهة، وإذ بي أرى هاتف **كياران** مُلقىً على الطاولة. حضرت الخطة خلال ثوانٍ: **كياران** غارقٌ في مرحلة نومه العميق، ومن المؤكد أنني سوف أسمع حركته إذا نهض، ولا وجود لمفتاح قفل في هاتفه.

عرفت في قرارة نفسي أنني أقتحم مكاناً جديداً لا يمكنني الخروج منه. كنت أخترق حياته وخصوصيته، رغم أنني حاولت جاهدةً إلزام نفسي بعدم فعل ذلك بوازع استكانتي له. فتحت بريده الإلكتروني. كانت معظم الرسائل من وإلى **فريجا**. سحبت الشاشة للأسفل، ورأيت أنهما على تواصل يومي منذ أشهر، وطوال الفترة التي عرفته فيها. فتحت آخر رسالة أرسلتها له ووصلت إلى بريده يوم أمس، وتحديداً قبل لقائي به في البار بوقت قصير. تجاوزتها بسرعة، دون أن أجرؤ على استغراق الوقت الكافي لقراءتها، فقد كانت رسالةً طويلةً تنطوي على بضعة آلاف من الكلمات. تضمنت الفقرات الأولى فيها على ملاحظات نقدية للقصائد التي أرسلها لها، وبعدها انتقلت للحديث عني:

«الآن، وبعد قراءة قصائدك، حان دوري لأتكلم وتسمعني. حاولت التحدث معك بشأن علاقتنا ولكنك رفضت سماعي بحجّة وجودها. وكلانا يعلم أنك تستخدمها كوسيلةٍ لإغاظتي وإثارة غيرتي. لا حاجة لذلك، لقد نجحت، وأنا فعلاً أشعر بالغيرة والتعاسة والغضب. صورتكما معاً لا تبرح خيالي، وأنا أقضي ساعات في المكتب باحثةً عن صورها على شبكة الإنترنت، وأحاول تخيل الشيء المميز الذي تراه فيها. تبدو لي فتاةً جذّابة، ولكنها بدينة قليلاً بالنسبة لك، أليس كذلك؟ كنت تعشق طول قامتي ورشاقتي، وليس فيها شيءٌ من ذلك. هل هذا ما يميزها؛ أنها مختلفةٌ تماماً عني؟ هل أصبحت بنظرك شنيعةً جداً لدرجة الابتلاء بالسعي وراء امرأة مناقضة لي. أليس ثمّة غرابة أن تكون هي شريكتك في السرير ولست أنا، بعد كل هذه السنوات؟»

«هل يقول لك الناس إنكما تبدوان ثنائياً رائعاً كما كانوا يقولون لك أيام كنا معاً؟ كنا نبدو مناسبين بعضنا لبعض، لأننا فعلاً كذلك. هل أذكّرك بأول ليلةٍ لنا في المنزل الجديد في **أوسلو**، بعد أن انتهينا من نقل كل أغراضنا وترتيبها في المكان؟ جلسنا في تلك الليلة بعد إنهاء الترتيب على الشرفة نحتسي الويسكي ونتأمل كل زاويةٍ من منزلنا الجديد، عندما مرّت سيدة متقدمة في السنّ وتوقفت أمامنا. نظرت إلينا وقالت: «أنتما أجمل ثنائي رأيته في حياتي» وعندما ضحكنا لها، قالت وهي تكمل طريقها: «فليعتنِ واحدكما بالآخر» استطاعت هذه المرأة، من تلك المسافة البعيدة، الشعور بذلك الحب الكبير الذي كان بيننا، لأن أي شخص كان سيشعر بذلك. عندما التقينا كنا كلانا ضائعين ويائسين، وهذا أحد الأشياء التي خلقت الحب بيننا. لقد رأيت هذا الشيء فيك منذ بداية تعارفنا. ثمّة انكسارٌ بداخل كلّ واحد منّا لا ترميم له إلا بيد الآخر، ولهذا السبب كان يجب أن نكون معاً. كنت أستيقظ يومياً على نظرات عينيك تحدّق بي، وعلى يديك تمسّدان شعري، وكأنك غير مصدقٍ أني حقيقية. لا يمكنك إلغاء أو إنكار ما كان بيننا».

«هل تذكر تلك الأيام التي كنا نمشي فيها في **نوردماركا** لساعاتٍ طوالٍ حتى ينال منّا التعب، فنعود إلى المنزل ونستحمّ معاً. كنت تقرأ لي قصائدك، أو نتناقش حول ما كنت أقرأه في الجامعة، ثمّ نجفف بعضنا بعضًا ونخلد للنوم على الأريكة أمام المدفأة».

«هل تتوقع مني أن أصدق أنك تفعل معها ما كنت تفعله معي؟ أنا أعرف ما بداخلك، وأعرف كم يصعبُ عليك إظهار حتى القليل منه أمام الناس».

«لو أنك فقط تمنح علاقتنا فرصةً ثانية، لكنت سأثبت لك حبي. كما أنني لم أفعل شيئاً سوى ممارسة الجنس؛ مجرّد علاقة سطحية لا تعني شيئاً. لم أفعل يوماً ما تفعله أنت الآن. لم أتشارك المنزل مع شخص آخر غيرك، ولا خرجت في مواعيد غرامية أو ما شابه من هذه الحركات القذرة».

«لقد تركت المكان هنا لتكون بجانب والدك ولكنه بخير الآن. أنت بلسانك قلت إنك لا تراه. عُد إلي. أو سآتي أنا إليك – لا يهم. سأذهب إلى أي مكان أنت فيه».

«ليس لي وجود من دونك. كل يوم، أعود إلى المنزل بعد العمل وأرتدي كنزتك الصوفية القديمة وأرفعها إلى وجهي بحثاً عن أي أثرٍ لرائحةٍ لك عالقة بها. أتخيل نفسي وأنا أقبّل عظم ترقوتك، وأضلاعك، وأجفانك. أغمض عينيّ وأتخيل الشعور لحظة عودتك لي، وإحساس تلاشينا معاً».

«أنت تعرفني يا كياران. تعرف أن حياتي لا عشّاق فيها. ولم يكن في حياتي قبلك سوى أشخاص نمت معهم. لم أحب أحداً سواك، وقد أحببتك لسنواتٍ طويلة حتى الآن. سبع سنوات. هذه علاقة لا تشبه أي علاقةٍ أخرى. لن أتمكن من تجاوزها والانتقال إلى علاقة تالية. أنت حبي الأوحد. وستبقى حبي الأوحد للأبد».

شتمتها بيني وبين نفسي: يا للعاهرة المجنونة، يا للعاهرة المجنونة. وتدفقت مشاعر الغيرة المروّعة تسري في كل أجزاء جسدي كالسّم. عاهرة مجنونة، عاهرة مجنونة.

تقززت نفسي من حميميتها المفرطة، واللهجة المتملّقة في تحسّرها على نفسها، وتلك اللغة الشجيّة التي استخدمتها، وأكثر من كل هذا توصيفها المغرور لتفاصيل ما كانت عليه علاقتهما الخاصة: قراءة القصائد في الحمام، وانبهار الناس فرحاً بجمالهما كثنائي، وشيء من الإدراك المشترك بينهما بأنهما أكثر قلقاً واضطراباً من أي شخصٍ آخر.

سمعت صوت هسهسةٍ من غرفة النوم، فسجلت خروجاً من بريده وأغلقت الهاتف كما كان. فتحت الصنبور وملأت كأساً من الماء وعدت إلى غرفة النوم. انزلقت إلى جانب كياران في السرير، واستدرت إلى جهته أعانقه من الخلف ملامسةً ذقني بكتفه. مدّ ذراعيه للخلف وشدّني إليه.

أثينا 2019

أن تكون على قيد الحب، لا يشبه بشيءٍ أن تكون على قيد الأمل؛ الأمل الصافي الواضح الذي يستحيل أن تصنعه بنفسك. إنّ أحد أكثر الأشياء تعاسةً هو شعورك بأنّ العالم لا يأتيك بجديد، أنك استنزفت كل تفاعل لديك معه. في الفترات التي لازمني فيها هذا الشعور، كنت أستيقظ يومياً بعد غروب الشمس وحلول الظلام، مع شعورٍ شديد بالأسف لأنّ شيئاً لم يحدث بين ليلة وضحاها ويقلب حياتي. استيقظت في ذلك الوقت المتأخر من اليوم، لأنني رغم عدم قدرتي على الصمود في حالة الوعي، لم أكن قادرة على تحمّل محاولات الخلود للنوم أيضاً. مجرّد الاستلقاء في الظلام والتفكير ولو لدقيقةٍ واحدة أمرٌ لا يمكن وصفه، لذا أستمرّ في الشرب حتى أفقد الوعي، أو أحدق بالتلفاز إلى أن يثقل النعاس عينيّ وتنسدل أجفاني من تلقاء نفسها.

مع اللجوء للسفر في محاولةٍ للتخلص من هذا الشعور، تبرز المدن متداخلةً بعضها في بعض بصورةٍ ضبابية. لا شيء أفعله سوى هدر المال في التسكع وحيدةً مع أحزاني في ساحة عامة، وتناول وجبةٍ رديئةٍ من المعكرونة باثني عشر يورو، مع احتساء الكثير من النبيذ، ولا بد من وجود رجل سمج هناك يحوم حولي محاولاً طوال الوقت فتح حديثٍ معي.

ومع تجربة العودة إلى منزلي في مدينتي الأم ووترفورد في محاولةٍ للخروج من تلك الحالة، واستعادة التواصل مع ذاتي ومع أيام الماضي، لم أرَ سوى الموت يخطف الناس من حولي طوال الوقت، والدخول في جدال مع والديّ بسبب عدم رغبتي بمرافقتهما لأداء واجبات العزاء والمواساة.

لا أريد سماع قصص المرض والمآسي. في الحقيقة أذهلتني قدرتهما في المواظبة على حضور الجنائز واحدةً تلو الأخرى. شعرت كأنني لا طاقة لي لفعل أي شيءٍ سوى الأكل والنوم وقضاء الساعات في حالةٍ من الخمول، وتكرار ذلك – وفي الواقع، هذا فعلاً ما استطعت القيام به. مفعول مضادات الاكتئاب يعلو قليلاً ويخبو، دون إحداث فرقٍ كبيرٍ في واقع نظرتي إلى كل جانب من جوانب الحياة، ولكل ما خلقه الله من حُسن على هذه المعمورة ولجميع أصناف الجنس البشري حيث كانت ردة فعلي غالباً تتجلى بسؤالي: وماذا يعني هذا؟

ثمّ يأتي الحب ويتغير كل شيء. مع الحب يبدو كل شيء جديداً، حتى أنا. في الحب يتجدد جسدي وعقلي وطريقتي في رؤية أبسط الأشياء. وأروع ما في ذلك، أنّ هذا الشعور بالتجدد لا ينحصر في المرّة الأولى للوقوع في الحب، فحتى لو تحطمت في تلك المرّة الأولى، يعود الشعور ليجتاحني بنفس القوة في المرّة الثانية.

حتى النظر عبر زجاج النوافذ في وسائط النقل العامة يغدو محفّزاً لا يمكن تحمّلهُ، فمشاهد حقول اللفت تدفع الدموع للانهمار من عيني، ومشهد الساحل المتعرّج يخطف أنفاسي. وحتى ذهني الذي كان يبدو متبلّداً وكئيباً يغدو فجأةً متوقداً يعجّ بمعلومات جديدة مثل ذهن الطفل. ما يحدثه وجود شخصٍ جديدٍ في الحياة لا يقف عند قلب الحياة الموحشة المضجرة إلى حياةٍ مليئة بالمتعة، بل إنه يجعل منها حياةً مختلفةً كل الاختلاف. فترات العصر التي اعتدت قضاءها وأنا أتكور وحيدةً في سريري، أحاول الاختباء من أشعة الشمس الغاربة المتسرّبة عبر الستائر، أقضيها اليوم على ضفة القناة بين قراءة الشعر وإطعام البط. وهذا أكثر تحوّلٍ سحري حققته على أرض الواقع.

عندما تقع في حب شخص ما وتلمس التجديد في حياتك، تدرك غريزياً أنّك يجب أن تولي عنايةً كبيرة لهذا العالم الرقيق الذي تبنيه مع حبيبك. هناك بنية تحتية يجب التعامل معها، وجسورٌ وسدودٌ وأروقة مدينة بأكملها يجب التخطيط لها. الدقة المحفوفة بالمخاطر لعملكما المشترك، ستجعلكما تبكيان في كثيرٍ من الأحيان، من شدّة الخوف تارةً ومن فرط المتعة تارةً

أخرى. حركة خاطئة واحدة قد تؤدي إلى انهيار كل شيء، قبل أن تتمكنا حتى من إتمام بنائه. كثيراً ما يغيب العاشقان معاً لأشهرٍ عن أعين الناس في المراحل الأولى لعلاقتهما، وهذا ليس ليختليا بعضهما ببعض فقط، وإنما لانشغالهما ببناء العلاقة.

-6-

في أول مرّة ذهبت فيها مع **كياران** إلى السينما، وكان ذلك خلال الأسابيع الأولى لنا معاً، أذكر أنني تمنيت لو أشاهد فيلماً له رغم أنه كان جالساً بجانبي وممسكاً بيدي. أذكر رغبتي بوجود شاشةٍ كبيرة جداً، لا تترك لنظري أي مجال لرؤية أي شيء خارجها. أردت أن يتسرّب إلى كل خلاياي دون ترك أي مجالٍ لتسرّب شيء آخر. عرفت أني على وشك البدء بأصعب وأهم عملية بناءٍ في حياتي. شعرت أني على أعتاب مشروعٍ ضخمٍ، وسيكون أبدع أعمالي. سوف أبني حظيرةً حمراء كبيرة بأساساتٍ متينة تبقى شامخةً لقرون طويلة. سوف أشيّد كاتدرائية ذهبية رائعةً. سوف أصنع أعجوبة العالم الثامنة.

عندما قرأت رسالة **فريجا**، لم يجد عقلي سبيلاً لفهمها من منظور مشروعي، وبالتالي لم أستوعبها على أكمل وجه. فكرة أنّ عالمنا الذي بنيناه حديثاً سينتهي من الوجود، كانت حرفياً فكرةً مستحيلةً بالنسبة لي. وكان من السهل إنكارها، لأنّ المشكلة تنحسر عندما أكون معه جسدياً، حيث كل الاختراقات المحتملة تذوب وتتحول إلى مجرّد أوهام مثيرة للضحك.

مارست الجنس معه فجر ذلك اليوم دون أي شعور بالانزعاج أو الضيق. شعرت بأصابعه الطويلة القوية تلتف بنعومة حول عنقي. تلك الرائحة حول فمه، رائحة الحلاوة تحوم حول فمي. تركت ظهري يتقوس لأقترب منه أكثر وأستنشق تلك الأنفاس. رفعت يدي إلى وجهه واحتضنت خده بثبات بحيث بات ينظر في عيني وهو يتحرك، وهذه الحركة جعلت كل ثانية تمرّ مقدسة. نوعاً ما، بدا استمتاعي أمراً هاماً، تماماً كما كان أيام بداية شبابي. كنت أشعر إلى حدٍ ما بأنني أحقق شيئاً أكبر مما قد يحققه الآخرون عندما يفعلون ذات الشيء - بدا الجنس مع **كياران** أمراً جللاً. بدا في كل مرّة يسير نحو خاتمةٍ ما، والخاتمة، إن وصلنا إليها يوماً، ستحمل فكرةً عميقة تعلّمناها.

-7-

خلال الأسابيع القليلة التالية، سارت الأمور بيننا على خير ما يرام، وأفضل من السابق، وكأنّ تشابكاً ما قد تحلحل. فكرت برسالتها ولكن باشمئزازٍ غاضب تجاهها أما هو فلا شيء تجاهه.

أصابتني صدمةٌ من مجمل العالم الذي وصفته في رسالتها. تلك الحميمية الخاصة للهجتها في مخاطبته، وتلك التفاصيل التي ما كنت لأعرفها لو لم أقرأ الرسالة.

حاولت تخيّل كنزته الصوفية التي احتفظت بها، والشرفة التي جلسا عليها، والمناظر التي امتدت أمامهما. كان الأمر مزعجاً، كأنه خُلِقَ أبداً لتنبيهك إلى أنَ الناس مع وجهات نظرهم الخاصة وحياتهم الداخلية حاضرون في كل مكان حولك.

فكرة امتلاكها لمعرفةٍ طويلة الأمد عن شخصية **كياران** تسبق معرفتي بسنواتٍ، كانت مخيفة، ولكن الوجه الآخر لها كان شهوانياً أيضاً. لأول مرّة وضعت اسمها على محرك البحث **غوغل**، لأتعرّف على شكلها. وفي بعض الليالي التي جافاني فيها النوم، كان عقلي يرغمني على تخيلهما في وضعٍ حميمي.

كان **كياران** ألطف في تعامله معي وأكثر توددأ من ذي قبل. اشترى لي هدايا صغيرة، وفاجأني بباقات الأزهار، واصطحبني إلى العشاء.

بدت هذه الأشياء مميزة جداً بالنسبة لي، خاصة أنه كان بخيلاً فيما يخص المال. لم يكن يجني الكثير، ولا أنا كنت كذلك، ولا أي شخص عرفته آنذاك. في المرّات التي لم يكن لديّ فكّة لشراء فنجان قهوة، كان يشتريها لي دون أن ينسى مرّة واحدة مطالبتي بسدادها له. وجدت الأمر غريباً ومحرجاً،

خاصةً أنه لم يحدث معي فقط؛ فقد رأيته في أحد المواقف يطالب أصدقاءه بثمن مشروباتٍ يدينون له بها، بينما لم تكن لديهم أي فكرة عمّا يقول. وعندما أداروا رؤوسهم باستغراب، راح يذكرهم بالواقعة بالتفصيل: «ألا تذكر يا **هاري**؟ يومها كنا في حانة **الدوق** التي قصدناها بعد حضورنا الحفلة ما قبل الأخيرة للمتحف الإيرلندي للفن الحديث. كان ذلك قبل أسبوعٍ من استلامك لمرتبك لذلك اشتريت لك الجعة»

وعندها، ضحك الجميع وأمالوا عيونهم متضايقين من بُخلِه. لم يكن الموقف مضحكاً قط بالنسبة لي، بل كان مُخجلاً، ومخجلاً جداً، لأنني كنت معه بصفتي حبيبته.

انتابني خوفٌ مبهم من انطواء هذا البخل على أشياء أخرى بالنسبة للناس، فقد شعروا بالحرج نيابةً عني.

في إحدى المرّات التي ذهبنا فيها مع ثلة من الأصدقاء، بعد حضورنا حفل افتتاح في شارع **تالبوت**، لتناول العشاء في مطعم يقدم السوشي، كاد يدفع إحدى الفتيات للبكاء. كانت الفتاة متدرّبةً في إحدى صالات العرض في المدينة، ووافدةً جديدةً في **دبلن** حيث انتقلت للتو إليها قادمةً من **كراكوف**. وبدا واضحاً أنها كانت معجبة جداً **بكياران**. كانت أصغر مني في السنّ في التاسعة عشرة أو ما شابه، ولها شعرٌ لامعٌ وغزير وعينان كبيرتان غيورتان لم تتوقفا عن التحديق في **كياران** طوال السهرة.

كثيراً ما حدث مثل ذلك ولكن لم أكن أهتم كثيراً، لأنه هو نفسه لم يكن يلاحظ ذلك قط. كان تجربةً غريبةً بالنسبة لي الخروجُ مع رجل جذّابٍ للغاية. أثناء تواجدنا بين الناس، كانت مشاعري تنقسم بين الفرح الصبياني بالأمر، والشعور بالخوف مع نظرات الناس إلينا وحيرتهم الواضحة من التفاوت الكبير بيننا.

مع انتهائنا من العشاء، بدأ **كياران** يجمع الفاتورة ويبلغ كل شخص بالمبلغ المُستحق عليه. وكان المبلغ المُستحق على المتدرّبة أكثر ببضعة يوروهات مما تملك. ولكن **كياران** استمرّ بتكرار قوله لها: «المبلغ خمسة عشر يورو، هذا ثمن ما طلبتِ، مع ثمن الجعة»

«أنا آسفة، أنا.... أنا...».

أطلق ضحكةً كأنه غير مصدقٍ، وقال لها: «لست أفهم كيف تطلبين طعاماً وجعةً بقيمة خمسة عشر يورو، وأنتِ لا تملكين ثمنها»

التفت الناس في آخر الطاولة ليروا ما يحدث.

«تفضل، أنا سأدفع عنها» قال مديرها في الصالة، وقد مال بجسده فوق الطاولة ورمى النقود أمام كياران ورمقه بنظرةٍ هزلية.

في آخر ليلة لي في المدينة قبل عطلة أعياد الميلاد دعاني لنسهر معاً. ذهبنا إلى مطعم فرنسي وتناولنا طبقاً نادراً من شرائح اللحم واحتسينا نبيذاً غالياً. تعامل بلطفٍ مع النادل، وطلب الوجبات لكلينا بطريقةٍ جعلتني أشعر بأنني مدللة وصغيرة وسعيدة. تحدثنا عن العروض الرديئة التي شاهدناها سابقاً، وضحكنا على الفنانين وتسلقهم اليائس للسلالم وقبعاتهم التعيسة والبدلات الرياضية التي لا تناسب أعمارهم المتقدمة.

تلوثت شفتاه قليلاً بالنبيذ، فبدا مثيراً جداً لي وهو يتحدث بحرّية وانفتاح وحيوية مطلقة، دون أي مقاطعةٍ من تحفظه المعتاد أو حساسيته.

وعندما حان وقت مغادرتنا، دفعت كرسيّي إلى الوراء بعيداً عن الطاولة، ووقف هو خلفي لمساعدتي في ارتداء معطفي، وانحنى ليطبع قبلةً على خدي. فكرت في كل شخص في المطعم وهو يرى ما نحن عليه، ما كنا عليه حقاً، وكما سنكون من تلك اللحظة فصاعداً: شابان رائعان، وشخصان جميلان في بداية حياتهما معاً. قبل الخروج من المطعم، ألقيت نظرة خاطفة على الأزواج الآخرين - وعرفت أني كنت مُحقّة، فالناس كانوا فعلاً ينظرون إلينا.

ابتسمت لنا سيدتان متقدمتان بالعمر ابتسامات مليئة بالغبطة لدى مرورنا بجانبهما. وبتعابير عجزت عن تمييزها، حدق فينا الطرف الأنثوي لزوج من المثليين في منتهى الأناقة يرتديان ملابس باهظة الثمن. تورّدت خجلاً وامتلأ رأسي بالاعتزاز.

كنا حقيقيين، وكل تلك المشاكل التي واجهتنا بدت أمراً تافهاً، ليست سوى انعكاس لمدى الانفعال الذي يجتاحك عندما تعيش الحياة حقاً.

رافقني إلى رصيف **إيدن**، حيث وقفنا في ظلّ الأبنية المتراصفة على طول ضفّة النهر. احتضن يديّ بين يديه وقبّل أذنيّ وزفر أنفاسه الدافئة عليهما. وعندما وصلت الحافلة، أخرج من حقيبته علبةً صغيرة بلونٍ أزرق باهت وأعطاني إياها. «هذه هديتك،» قال لي وانحنى نحوي يحك خده الناعم بخدي مثل قطة، ويقبل جبيني. «أحبك».

لفّ جسدي هدوءٌ عميق مثل إقرارٍ بأنني لم أفقد عقلي بعد. نظرنا بعضنا إلى بعض، تبادلنا القبل مرّةً ثانية، وضحكنا من جديّة ملامح وجهينا، ثمّ تعانقنا عناق الوداع.

صعدت إلى الحافلة، ووجدت مقعداً أنأى فيه بنفسي قدر الإمكان عن باقي الركاب. أردت أن أكون وحدي، لأسبر وأصنّف جميع المشاعر التي كنت أحسّ بها، أتحقق منها واحداً واحداً.

لم أستطع منع نفسي من فتح العلبة. كان بداخلها قصاصة ورق مطوية كتب عليها:

كل عام وأنتِ بخير. أنتِ امرأة جميلة وأنا أحبك.

وتحت القصاصة الورقية، استقرّ بروش ناعم من العنبر العتيق. أمسكت الحجر الكريم بيدي وأغمضت عينيّ بقوة. بدا كأنه يشعّ حرارةً وينبض مثل كائنٍ حيّ. عندما وصلنا إلى **وترفورد** بعد ثلاث ساعات كنت ما أزال أمسك به. لاحت أضواء مدينتي الأم مقتربةً ودفعتني للبكاء كعادتها دوماً في كل مرّةٍ أعود إليها.

أثينا 2019

كنت في الأسبوع الفائت أجلس في المقهى مستغرقةً بقراءة كتابي واحتساء قهوتي بانتظار وصول القطار. كان المساء صافياً، والشمس قد غربت للتو، عندما هبّت عاصفة رعدية هائلة دون سابق إنذار. طلب منّا النُدُل الانتقال إلى داخل الفناء لنحتمي بمظلةٍ أكبر ونتجنب رشقات المطر. وهناك، جلست أنا وسيدة أعمال في الخمسينات من عمرها واثنان من الرجال المسنّين غير المبالين نشاهد ما يحدث في الخارج. كانت سيدة الأعمال تضع أحمر شفاهٍ شديد الحمرة والكثافة وراحت ترفع يدها إلى فمها مذعورةً كلما لمع البرق. كنت أراقبها وأراقب البرق دونما اهتمام عندما اندفع زوجان شابان مع طفل صغير في عربة إلى الداخل. كانا جميلين للغاية ومبللين جداً وكانا يضحكان. انطوت المرأة على نفسها وهي تقبض على معدتها التي كادت تنفجر من شدّة الضحك، بينما وضع زوجها يده على كتفها وفرك ظهرها برقّة. جالا بنظرهما في المكان ورفعا أعينهما إلينا مع تلك الابتسامة الكبيرة المُتحفظة، التي بدت كأنها تقول لنا: انظروا إلى المطر! انظروا كم تبللنا! وحتى بعد جلوسهما إلى الطاولة وحمل طفلهما في حضنهما، استمرّا بإطلاق ضحكاتٍ مقهقهة كل بضع دقائق.

عندما نظرت إليهما، شعرت بوحدةٍ موحشة، وأنا أتذكر (ولكن ليس بوضوح؛ وكأنما الذكرى مشوبة بغباشةٍ ما) تلك الحالة التي كانا يعيشانها؛ تلك الميزة في الوقوع في الحب التي تجعل أتفه التجارب ذات قيمة. أن ينتابك الضحك عندما يصيبك المطر بدلاً من أن ينتابك شعور بألم بسيط وأنت في طريقك إلى مكانٍ آخر.

وحتى عندما كانا يتناولان الشطائر ويشربان القهوة، بدا شعورهما بالاطمئنان مذهلاً.

أترى! لقد نسيت أنّ الحب لديه القوة ليفعل ذلك. حسدتهما، وشعرت بالسعادة لأجلهما، وبالخوف على نفسي.

تناول شطيرةٍ مع فنجانٍ من القهوة تحت المطر لم يكن شيئاً أستطيع منحه سحراً بنفسي.

ذكّرتني هذه الحادثة بأيام كان **كياران** فيها يوقظني في الصباح أحياناً ويسألني عما سنفعل في ذلك اليوم. وكنت أقول له: «هممم، لا أعرف، يمكننا مشاهدة فيلم في المساء، أو الذهاب إلى معرضٍ ما». فيقول لي: «أو لنأخذ بعض التفاح ونتجول في الجوار»

وأصبحت هذه الفكرة شيئاً نفذناه معاً، شيئاً يجعلني أنهض من السرير متحمسةً لفعله. كنا نتجول في أرجاء المدينة ونذهب إلى مقهى المتجر الفاخر في شارع **جورج**، ونشرب كأسين من ماء الصنبور القريب من طاولة الدفع، بينما يبدو الانزعاج واضحاً على وجه النادل. وبعدها كنا نشتري (أو أحياناً نسرق طمعاً ببعض الإثارة غير المشروعة) تفاحتين. كنا نقضي بضع دقائق في انتقاء التفاحتين ومقارنتهما بعضهما ببعض وتخمين المذاق قياساً للوزن. ثم نغادر لنقضي أربع أو خمس ساعاتٍ في المشي في أرجاء المدينة، ونحن نتجاذب أطراف الحديث معاً ونناقش ما كان يجري. ومن المؤكد أننا كنا نتوقف عند معرض أو بازار خيري، أو لنشرب فنجان قهوةٍ في مكان ما على الطريق، ولكن لم يكن هذا الهدف.

شراء التفاح والتجول كانا الهدف فقط، كانا بيت القصيد. وكانا أكثر من كافيين.

عيد الميلاد 2012

وترفورد

-1-

كانت الساعة الثالثة فجراً عندما توقفت الحافلة، وكنت على بعد بضعة أميال من منزل والدتي. كانت تعيش في ضاحية **بالينا كيل داونز** منذ أن قررت هي ووالدي الانفصال بعضهما عن بعض عندما كنت صغيرة. وبعد ثماني سنوات، جاء زوجها الثاني، **ستيفون**، للعيش معها، وكنت حينها على أبواب الرابعة عشرة من عمري. ظلّ اسم أمي **كيلين** إلى أن التقت **بستيفون** الذي كان يعمل أستاذاً في مدرسة ويتحدث اللغة الإيرلندية الأصلية بطلاقة ولذلك تخلّت عن النسخة الإنكليزية لاسمها واستبدلتها بالإيرلندية الصحيحة فأصبح «**كيليوين**»، وقد تنفجر في وجهك إن لفظته بالطريقة القديمة.

إنّ أي مراقب خارجي ذي نظرة موضوعية سيظنّ أنّ والدتي كانت الفائزة في مسابقة طلاقهما، فقد حظيت بزوجٍ جديد جريء ذي قامة طويلة، ناهيك عن رحلات ركوب الزوارق وقضاء عطلة نهاية الأسبوع خارج الضاحية، ولكن على الصعيد الخاص، أعتقد أنّ والدي كان أكثر سعادة منهما. كثيراً ما شعرت بالقلق عليه من وحدته ولكنه رجلٌ من السهل إسعاده، حيث لم يكن بحاجة إلّا لبعض الصحبة السلسة وقراءة بعض الكتب وقطعة أرض. وكان لديه كل هذا في قريته الصغيرة التي تقع على بعد بضعة أميالٍ من المدينة، حيث كان يعمل في مكتبتهم البسيطة ويحتسي مشروبه مع ذات الزملاء الثلاثة بضع مراتٍ في الأسبوع.

أمّا والدتي فكانت دوماً تتوجّس حدوث كارثةٍ ما بطريقة مصطنعة وتافهة لشخصٍ في مثل عمرها، وما زالت حريصةً على اتباع الحميات الغذائية بحماسة وتفاؤل مراهق.

«كيف حال ستيفن؟» كان هذا سؤال والدي الدائم مع غمزةٍ لي، في كل مرّة كانت توصلني فيها إلى منزله لقضاء عطلة نهاية الأسبوع وكان جوابها دائماً: «اسمه ستيفون، وأنت تعلم ذلك جيداً يا توموس» مع أنّ والدي لم يناده أحد يوماً سوى باسم توماس.

كنت عادةً عندما أصل من دبلن إلى مدينتي في وقت متأخرٍ كهذا، أطلب سيارة أجرة توصلني إلى المنزل، حيث أتكاسل وأخشى قطع المسافة سيراً إلى باليناكيل، ولكن في هذه المرّة كان لديّ شيءٌ أكثر روعة أفكر به. مشيت الطريق وأنا أستمع إلى الموسيقى التي تذكرني به، شعرت بشعورٍ خيالي من الراحة لم أشعر به منذ أن كنت مراهقة. عندما وصلت إلى المنزل ودخلت وجدت والدتي نائمة على الأريكة وأمامها شاشة التلفاز تعرض فيلم جريمة.

فتحت والدتي عيناً واحدة وقالت «أهلاً ابنتي».

«مرحباً أمي» قلت لها، وانحنيت نحوها أمسك بيدها وأشدّ عليها في سلام حارّ، قبل الذهاب إلى غرفتي في الأعلى والخلود للنوم.

نمت اثنتي عشرة ساعة متواصلة وهذا ما أفعله عادةً لدى وصولي إلى المنزل، كأنني أريد التعافي من العيش وحدي طوال عام كامل. عندما استيقظت كان اليوم التاسع عشر من ديسمبر ولكن غرفتي أوحت بأنّ عيد الميلاد قد حلّ. تناولت حقيبتي وأخرجت منها بروش العنبر، وأطبقت يدي عليه لأشعر بدفئه.

قضيت ذلك اليوم واليوم الذي تلاه في الجلوس في غرفة المعيشة وقراءة رواياتٍ سخيفة مليئة بالأحداث من ذلك النوع الذي أعصم نفسي عادةً عن قراءته، وساعدت في تغليف الهدايا والطبخ. شربت النبيذ مع والدتي، وثرثرنا عن الناس الذين نعرفهم وتابعنا برامج رديئة على التلفاز. وفي ليلة الحادي والعشرين من ديسمبر، اتصلت بكياران، فمنذ مغادرتي لم أسمع منه قط. ولكن ذلك لم يثر ريبتي لأنه دائم الإهمال لهاتفه وأغلب

الوقت ليس فيه رصيد إلا إذا اشتريته له. حاولت الاتصال ثلاث مرّات ولكنه لم يجب. كنت ثملة ومتشوقة للحديث معه ولكنه لم يفكر بذلك. قمت بتعبئة رصيد في هاتفه عبر الإنترنت وأرسلت له رسالة أطلب منه الاتصال بي عندما يتسنى له ذلك وأخبرته أني أفتقده وأني أحبه. شعرت بالبهجة مع كتابة هذه الكلمات.

في الثالث والعشرين من الشهر، خرجت برفقة اثنين من أصدقائي القدامى لنستمتع بشرب النبيذ معاً. وأثناء سيري في الطريق لملاقاتهما، ألقيت نظرةً خاطفةً على صورتي المنعكسة على زجاج نافذة أحد المتاجر، واضطررت للتوقف بثبات متظاهرةً بقراءة أحد الإعلانات. كان منظري قميئاً للغاية ورأيت نفسي سمينة جداً. عندما وصلت إلى الحانة لا بد أنّ الناس تحدثوا عن ذلك، لا بد أنهم حدقوا بي وهمسوا بعضهم لبعض أنني أصبحت أكثر بدانة وبشاعةً مما كنت في صغري.

شعرت بحواف ملابسي الداخلية تضغط على بطني وبأنه يتدلى من فوقها، هذه أنا ولكن هذه البشاعة لا تمثلني.

لم أكن يوماً نحيلة وهذه حقيقة واضحة للعيان في كل مكان في العالم وليست الحقيقة الوحيدة المتعلقة بي. ولكن عندما عدت إلى وترفورد، بدت مجدداً السِمَة المميزة لي، سِمَةُ فشلي. في كل مرة عدت فيها إلى مدينتي برزت هذه السمة لتذكرني بأنني سأكون دوماً على خطأ، على الأقل هناك في موطني الأم وفي المكان الذي يعنيني. سأكون دوماً نسخةً مشوهةً من ذاتي الحقيقية، صورة تقريبية رُسمت على عجلٍ لإنسان.

أثينا 2019

لم أفهم يوماً كيف يمكن للناس أن يحبوا أجسادهم، كما لم أفهم أيضاً كيف يمكنهم أن يكرهوها. لم أنظر يوماً إلى جسدي على أنه مصدر إزعاج كبير في تغيره المستمر، بل كنت أراه شيئاً متقلّباً يصعُب السيطرة عليه ولا علاقة لي به بالأساس وليس من شأني التدخل به على الإطلاق.

كيف يُفترض بي أن أتقبل أو أحب أو أكره أو أتخذ الحياد تجاه شيء لن يبقى على حاله؟ كيف أحافظ على مشاعر ثابتة تجاه شيءٍ متغير كهذا؟

هل يجب أن أعترف بدلاً من ذلك، أنني لا أستطيع، وأنه من الضروري أن ينسلخ جسدي -بكل نموّه الجامح القبيح وارتكاسه وازهراره وذبوله- عنّي، وعن ذاتي؟

قِيلَ لي إن هذا مستحيل وأغلب من قالوا هذا كانوا رجالاً، رجالاً درسوا نظريات لفلاسفة لم أدرسها، ولكن الأشياء التي يقولونها بعباراتٍ متأنقة تشبه بالضبط الشعارات الوردية الداعمة للذات التي تطلقها نساءٌ يبدون غبيات من وجهة نظرهم.

الأشياء التي يقولونها: أنتِ جسدك، ليس هناك انقسام، عندما يتغير فهذا يعني أنكِ أنتِ التي تتغيرين، فلست مجرّد متفرّجٍ على تقلّبات جسدك، أنتِ المعماري المسؤول.

يخاف الناس من إقدام المراهقين على ممارسة الجنس، ولكن يجدر بنا التفكير في التعاسة التي يجلبها امتلاك جسد مراهق وخصوصاً جسد فتاة مراهقة، وكم هو أمر مؤلم وشاقّ ومضجر ويملأ النفس برغبة الانتقام، ثمّ تذكر أنّ ممارسة الجنس قد تكون بمنزلة المرة الأولى التي تدرك فيها أنّ

جسدها خلق لمنحها شعوراً جيداً. وأنّ ملايين النقاط الحساسة التي تجعلك تشعر بالألم، لها ذات الحساسية لتوليد المُتعة. وأنّ شهيتك للصّراخ تتفتح من شعور آخر غير الأسى.

شعرت بالاشمئزاز من جسدي عندما كنت في ذلك السن ولكنني في الوقت نفسه كنت أتعلم كيف أحبه وأغرق في حبه. كرهته ولكنني بجّلته بتفانٍ فاحش، لأنني عرفت أنه قادر على إثارتي وإثارة من حولي. حين كنت أقف أمام المرآة، رغبت حيناً أن أصرخ من شدّة التعاسة وأردت كسر المرآة لاقتطاع أجزاءٍ كبيرة من جسدي، ولكني في حين آخر، كنت أجثو على ركبتيّ غارقةً بشعورٍ من الافتتان المدوّخ، بينما يداي تمسّدان الطيّات المترففة على ضلوعي، وعيناي تنظران إليها من ذات الزاوية التي قد يتخذها صبي للنظر إليها. كنت أتمدد على ظهري في سريري وأفتح الكاميرا، وأفكر كم هو محظوظ ذلك الشخص الذي قد يحظى برؤية مشهدٍ كهذا.

ما من هدنةٍ أبرمها مع جسدي؛ وإن حدث أن أبرمت واحدة، أعلم أنها سوف تُخرَق من عدوٍ جديد في الوقت المناسب. ما الفائدة من ذلك؟

وعندما أعود إلى المنزل أكون في أعلى ذروة للغضب؛ حيث يغمرني فجأة كل شكل كان عليه جسدي يوماً وتطوف حولي كل المحاولات الفاشلة في أن أكون شخصاً ذا صفات معينة. توجد في ذلك المنزل معاييري القديمة، صوري القديمة حيث كانت بشرة وجهي مشدودة بشكل شهيّ، وعيناي لامعتين جامحتين بتحرّق، فتاة جميلة جداً، ولا أحد أمكنه إنكار ذلك.

في المنزل، هناك أمي التي بوجودها رافقني اشمئزازٌ دائم من نفسي، ففي رأسي تنخر الأخطاء المعتادة بتفاصيلها التي يجدر بالشخص عرضها على معالج نفسي وتعليقاتها التي ألقتها دون مبالاة عندما كنت في سنّ التنشئة.

لطالما كانت مولعةً بجسدها إلى حدٍ ما، ولكن على وجه الخصوص أيام كانت شابةً صغيرة وعازبة، وربما مضطرة للانشغال بطفلةٍ متذمرة وببعض التفكير بما ستكون عليه حياتها وما إن كان فيها أي خير لها.

قالت هذه الأشياء ولكن دون أي لؤمٍ أو انتقادٍ لاذع، قالتها بذات الطريقة

المرحة التي تتحدث فيها بكل شيء، ولكنني بالطبع أذكرها. وهذا إجحاف كبير؛ فأنا متأكدة أنني لا أذكر مئات وآلاف الأشياء الأخرى التي قالتها لتخبرني أنني رائعة كما أنا. ويبدو من المرجح أنها كانت تفعل ذلك، ولكن رغم هذا فإنني لا أذكر ما قالته بهذا الصدد، فكلماتها هذه لا تحضرني.

وبدلاً منها تحضرني لحظاتٌ كهذه اللحظة مثلاً: كنت في الحادية عشرة من عمري، وكان الروتين المُعتاد لوالدتي المجيء لأخذي من المدرسة بسيارتها، وفي الطريق إلى المنزل، كنا نتوقف لتشتري لي شيئاً من الوجبات الخفيفة؛ علبة من رقائق البطاطس المقرمشة أو حبوب الإفطار المحلّاة مثلاً. وفي عصر ذلك اليوم تحديداً، كنت قد اتخذت قراري بأن أصبح نحيلة ومتعففة مثل زميلاتي الأنيقات الصغيرات في الصفّ اللواتي كُنّ يتناولن وجباتٍ صحية مثل كعكات الأرز وجواربهنّ ليست ضيقة عند أوراكهن على الأقل.

«ماذا تريدين أن تأكلي؟» سألت أمي.

«لا شيء» أجبتها، وقلت لها: «من الآن فصاعداً سوف أكتفي بتناول قطعة علكة بعد المدرسة».

قالت: «يا لكِ من ابنةٍ رضيّة». أذكر شعوري بحزنٍ عميق وبالقلق من أنها قبل ذلك لطالما كانت تكرهني بسبب ما كنت أتناوله من طعام، وأنها كانت طوال الوقت تنتظر مني التوقف عن ذلك. وإلى اليوم، ما زلت عندما أعود إلى المنزل أكون أمامها متأهّبة ومستعدة للدفاع عن نفسي. أكره أن ترى كم ازداد وزني، ولا أطيق سماع الحديث حول الأطعمة التي تتناولها أو التي أقلعت عن تناولها ولا الحديث عما تفعله في النادي الرياضي، وأكثر ما أكرهه هو أنّ الاستماع لهذه الأحاديث يبدو مثل تحدٍ لي أو أشبه بدعوةٍ لزيادة المخاطر. أكره أنني لم أجد يوماً إجابةً مناسبة وأنّ كل ما بوسعي فعله هو اتخاذ موقفٍ دفاعي يتجسد بعدم تناول أي طعام بينما يملؤني الغضب، أو بأن آكل كل شيء لأريها أنَ الأمر لا يهمني وأنني تجاوزت تلك المخاوف الصغيرة التي لديها معتبرةً أنَّ ما يهمّ في المرء هو عقله وليس جسده، وأنني أؤمن بذلك وبالتالي فأنا متفوقة عليها.

توقفت عن ارتداء أنماط الملابس الجميلة المرحة التي أرتديها عادةً في حياتي اليومية، وانحدرت إلى ارتداء البلوزات الفضفاضة الكئيبة.

وحتى لو لم تتفوه أمي بتعليق واحد على جسدها أو جسدي، أعتقد أن الشعور ذاته سوف يلازمني دوماً، وكلما عدت إلى المنزل سيبقى ذلك الغضب الخانق يحوم تحت ذلك السقف الذي يجمعنا حيث نحن قريبتان جداً بعضنا من بعض، فهي من أنجبتني وهي من أعطى الحياة لهذا الجسد الذي أكرهه وأحبه جداً. أشعر بالاستياء منها لأنها هي من صنعه وبالخزي لاستخدامي المُسيء له. أردت في لحظة أن أصرخ في وجهها: «كيف تجرّأت على فعل ذلك؟» وفي لحظة أخرى وددت لو أقول لها: «أحبك كثيراً! أنا آسفة».

-2-

في صباح الرابع والعشرين من الشهر، لم يكن **كياران** قد اتصل بعد وبدأ الخوف يتسرب إلى قلبي. حاولت التخفيف عن نفسي بالتفكير بأنه ربما أضاع هاتفه. ولكن كيف هذا وهاتفه لا يزال يعمل؟

ربما كان منشغلاً لا أكثر، منشغلاً جداً لدرجة أنه لا يستطيع إرسال رسالة واحدة خلال أربعة أيام؟ لم يحدث انقطاع في التواصل بيننا لفترة كهذه منذ أشهر، وبدأت أقلق بالفعل - لم يكن لديه أصدقاء مقرّبون يسألون عنه أو يذهبون للاطمئنان عليه، ولم يكن يخطط لأن يلتقي أحداً في عيد الميلاد. حيث رفض قضاء ولو يوم من العطلة مع والده في **ويكلاو**، زاعماً بأنّ حالة النزق المشترك المُعتادة بينهما كانت تتفاقم إلى حالةٍ صريحةٍ من العداء في كلّ مرّة زاره فيها لقضاء عطلة معه، وذلك بسبب مشاعر الاستياء التي عاشها في أعياد الميلاد السابقة في طفولته والتي تعود دوماً لتطفو على السطح رغم مرور سنوات طويلة على ذلك.

واعتاد بدلاً من ذلك تناول العشاء مع أصدقائه في يوم عيد الميلاد، ثمّ يذهب لزيارة والده في عيد رأس السنة في يناير عندما تكون حدّة تلك المشاعر قد خفّت.

ربما تعرّض لحادث؟ ربما وقع عن درّاجته أو انزلق وهو خارجٌ من الحمام ووقع على رأسه، أو... أو حدث له أي شيء آخر.

قبل بضع ساعات من موعدي مع والدي للذهاب في نزهة، اتصلت بمكتب **كياران**. كنت أعلم أنه غير موجود، فعطلته بدأت أمس ذلك اليوم. أجابني مديره **ميشيل**، الذي التقيت به في مناسبات اجتماعية أغلبها افتتاحيات معارض.

بادرته بالتحية: «مرحباً ميشيل» وأردفت محاولةً أن أبدو عفوية: «آسفة لإزعاجك، أردت فقط أن أسالك إن كان كياران أتى للمكتب يوم أمس. في الواقع، كُسِر هاتفي ولا أحفظ رقم هاتفه، وبالتالي لم يعد لديّ سبيلٌ للتواصل معه»

«عيد ميلاد سعيد! يا لكِ من محظوظة! قضيتِ الأسبوع بطوله في المدينة، أليس كذلك؟ لقد انتهيت للتو من العمل، ولكن ليس هناك أحدٌ غيري في المكتب؛ فقد اضطررت للبقاء لإنجاز تصاميم يناير. على أي حال، بالنسبة لكياران، نعم جاء يوم أمس إلى المكتب وبقي حتى وقت الغداء تقريباً وأنا طلبت منه الذهاب إلى المنزل آنذاك؛ حيث كان متململاً جداً ولا يفعل شيئاً سوى إزعاجي، ها ها ها. أعتقد أنني أحفظ رقم هاتفه في مكان ما هنا ويمكنني إعطاؤك إياه علّه يكون مفيداً».

«أها! هذا رائع» أجبته دون تركيز، مع ضحكةٍ مُصطنعة.

قرأ الرقم على مسامعي وكررته خلفه كما لو أنني أدونه، ولا أحفظه عن غيب.

عاودت الاتصال بكياران طوال فترة الصباح وأنا أعلم أن أحداً لن يجيب ولكني لم أستطع منع نفسي عن فعل ذلك. فقد تعاظم ذلك اليقين الجامح بأنّ أمراً خطيراً قد حلّ به؛ ليس أقلّ من انكسارٍ في الجمجمة أو انسداد في القصبة الهوائية. أضحى الأمر الخطير الآن معضلة محيرة، ولا يمكنني التركيز إلّا على اللحظة الراهنة. أردت من أعماق قلبي وعقلي وكل جزءٍ من جسدي أن يرد على الاتصال. لا شيء في ذهني سوى تصوّر وحيد؛ سماع صوته وهو يقول: «مرحباً» وكل ما سيكون بعد ذلك يمكن معالجته.

وصل والدي وأخذني بحلول ساعة الغداء وذهبنا لاحتساء القهوة والتنزه بعدها. بذلت جهداً كبيراً لأبدو مرتاحة وسعيدة. أجبت عن أسئلته حول كياران بأكثر ما استطعت من مرحٍ ومصداقية. ولكن لا بد أنه علم أنني أكذب بشأنٍ ما، وذلك لأننا مقربانٌ جداً بعضنا من بعض وسيطر عليه الإحباط والقلق بوضوح لمعرفته يقيناً أنني لن أُفصح عن ذلك الشأن.

تمنيت لو أمكنني تفريغ العبء الرابض في نفسي، ولكن لم أستطع تحويل

ما كان يحدث بداخلي إلى كلامٍ منطوقٍ، لأنني بذلك أضعه في حيز الوجود. حتى تلك اللحظة، كان كل ما يحدث يدور في رأسي فقط دون أي إثباتٍ من طرفٍ خارجي، وطالما استطعت حصره في ذلك الحيّز، يمكنني قمعه. إنه ذلك الحافز الذي يثور بداخلك وأنت تحمل مغلّفاً مختوماً يحمل بداخله نتائج ما، ويدفعك لتأخير مستقبلٍ تعلم أنه يحمل أخباراً مروّعة، دون رغبةٍ منك بذلك.

وكنت أعلم أيضاً أنني إذا بدأت أيّ حديثٍ عن كياران وعن طبيعة علاقتنا سوف أتسبب بالكدر لوالدي. كان الانقسام بداخلي كبيراً لدرجةٍ أنّني شعرت بالحالتين التاليتين في آنٍ واحد:

1. أعلم أنّ علاقتي بكياران غريبة وغير متكافئة ولا حتى متبادلة، وأدركت أنّ الحديث عن حقيقتها سيكون مزعجاً ومكدراً للأشخاص الذين يحبونني.
2. لم أشعر بأن علاقتي بكياران كانت كذلك.

أي أنني كنت أدرك أنّ الوصف الصادق للعلاقة المبني على أحداثٍ فعليّة حصلت فيها سيبدو مزعجاً، ولكنها لم تكن مزعجةً بالنسبة لي. كل ما في الأمر أنّ الأشخاص الآخرين عاجزون عن فهم الحالة التي لا يُظهر فيها الواقع المجرّد حقيقته الجوهرية.

التمكّن من إخفاء ما بداخلي أمام والدي لم يكن بسهولة إخفائه أمام الآخرين. فعندما أخفي أو أقتطع تفاصيل هامّة، أعجز عن التصرّف بطبيعية. وعادةً عندما أفعل ذلك يكون بهدف تجنّب إزعاجه، وغالباً عندما تكون المشكلة أمراً لا يمكنه فعل شيءٍ حياله؛ وبالتالي رأيت أن لا مبرر لإثقال كاهله بالهموم.

كان الحال هكذا عندما كنت يافعةً؛ حيث حالات اكتئابي مجهولة السبب والحل، وبالنتيجة لم أكن إجابةً حقيقية لسؤال: «ما بكِ؟» وعلاقتي بكياران حملت ذات الشعور بالحتمية. هكذا كان الأمر، كنت مغرمةً به وأي مشاكل ترافق هذه العلاقة الغرامية يجب تحمّلها فليس هناك أي فائدة من الحديث عنها ووصفها.

إنكار الحقائق على والدي أشعرني بالضعف والحزن لوجود شيءٍ من

التباعد بيننا، الذي برغم هزالته قياساً لحاله المعتاد بين معظم الناس فإنه لا يزال موجوداً وسيبقى موجوداً.

في بعض الأحيان، كان وجود هذا التباعد بيني وبين الآخرين مبعث راحةٍ وسرورٍ لي. فهناك أشياء تخصني لا يعرفها أحدٌ سواي وسأموت وتُدفَن معي. هناك تجارب عاشت فقط في داخلي، ومن المستحيل تكرارها أو سردها.

وفي أحيانٍ أخرى، مثل الآن، كان هذا التباعد مبعث حزنٍ مؤلمٍ لا يمكن التعايش معه.

ونحن بالسيّارة في الطريق إلى المنزل، تحدثنا بفتور عن أخيه الأكبر وكيف ترك المنزل وهو لا يزال صبيّاً صغيراً، وسألته عن رأي الأهل في مغادرته آنذاك.

قال: «أعتقد أنّ رأيهم من رأيي إزاء مغادرتك فأنا كنت أفضل بقاءك هنا من أجلي، ولكن لا أفرض أمنياتي عليكِ. في بعض الأوقات، كهذا الوقت مثلاً الذي نقضي فيه معاً فترةً طويلة نسبياً تدوم أكثر من يوم، يراودني التفكير في مدى ضآلة احتمال حدوث ذلك مجدداً»

«ما الذي تعنيه؟» سألته.

«أعني أنكِ لو احتسبتِ مجمل الفترات الزمنية التي سنقضي فيها وقتاً طويلاً معاً، مثل قضاء يومٍ في كل مرّة، من اليوم فصاعداً، ستجدين أنّها فترةٌ محدودة. إنها حقاً محدودة جداً».

كان يقود السيارة مقطباً حاجبيه في وجه شمس الشتاء المنعكسة على الزجاج الأمامي، ولم يبد عليه الغمّ مما قاله؛ حيث وصفه بالأمر الواقع.

أدرت وجهي جانباً ناحية النافذة ورحت أحدّق في الطريق. كان لكلماته ومدى إدراكه لها وقعها الذي لم يتوقف في أثره على الشعور الغامر بالتعاسة فقط، بل تجاوزه للشعور بالخجل من الطريقة القذرة التي أبدد فيها حياتي القصيرة. كنت أجلس في السيارة إلى جانب الشخص الذي أحبني أكثر مما أحب الحياة نفسها، ورغم ذلك لم أكن قادرة على التفكير سوى بكياران. أيُّ قاعٍ مقفرٍ آلت إليه حياتي الداخلية؟ التماس عربون حب من شخصٍ لا رغبة لديه بمنحه.

-3-

استيقظت قرابة الساعة السابعة في صباح عيد الميلاد وأرسلت له رسالة كتبت فيها:

«عيد ميلاد سعيد. أحبكَ جداً. اتصل بي أرجوك» انزعجت من نفسي بعد كتابتها، فكلمة «جداً» فيها تزلّف وتحايل.

تناولت الفطور وأنا أشعر بالقلق وتبادلت الهدايا مع والدتي وستيفون ثمّ جاء والدي وأخذني. ذهبنا للقاء جدتي وأعمامي في الكنيسة التي نذهب إليها دوماً في عيد الميلاد. بحثنا عنهم لحظة دخولنا الكنيسة ولكن كانت الصلاة قد بدأت، لذا أسرعنا بالجلوس على أقرب مقعد، جلست أمامنا سيدة مسنّة كانت تبكي بصمت وتمسح دموعها بيديها وإلى جانبها جلس صبيٌ يافع لفّ ذراعه حول كتفها بقوة. قلت لنفسي وأنا أتخيل الأمر «لا بد أنّ زوجها تُوفي» ومن المؤكد أنّ هذا أول عيد ميلاد يمرّ دون وجوده.

ثمّ دخلت أنا أيضاً في نوبة بكاء، فمشهد نحيبها الحزين مع وقوفي هناك بجانب والدي في الكنيسة التي اعتدت المجيء إليها أيام كنت في المدرسة، أخرج جميع التراكمات التي أخفيها في قلبي. وبالكاد صمدت خلال الثلاثين دقيقة التالية، وانهرت حرفيّاً مع سماع صوت والدي القوي غير الرخيم يشارك بترتيل ترنيمة (الليلة الصامتة)

اعتذرت من والدي فيما بعد وتفهّم الأمر. هو أيضاً كان يعاني.

ذهبنا إلى المقبرة لأداء مراسمنا التقليدية في زيارة قبر والده وقبر جدتي لأمي.

وفي السيارة تحاشى كل منا النظر في عيني الآخر، وتحدثنا بصوتٍ متهدج. وعندما وصلنا إلى منزل والدتي وضع يده على معصمي وقال لي:

«كل شيء سيكون على ما يرام». حزنت عليه لأنه رُزِق بابنةٍ وحيدة وإن كان سيشعر بسعادةٍ ما فلا بد أنها مرتبطة بسعادتي دوماً. أحزنني أني عجزت عن تعلّم كيف أكون أكثر سعادةً وأكثر استقراراً وسلاماً، لأن هذا بالنتيجة كان يعني أنه لن يحظى بذلك السلام لنفسه أبداً، وهو، من بين كل الناس، أكثر شخصٍ استحقه وانتظره.

كان مؤلماً لي أنه أحبني كثيراً وتمنى لي أشياء أدركت أني لم ولن أستحقها. أنا مدينة له بالكثير ولن أفيه حقه مهما فعلت. تمنيت لو أستطيع إفهامه ذلك بطريقةٍ ما كي يتمكن من التوقف عن التفكير بي. قبّلته على وجنتيه وقلت: «أعلم ذلك يا أبي. أحبك. سوف أتصل بك لدى وصولي إلى دبلن» ونزلت من السيارة بسرعة قبل أن نتسبب بمزيد من الألم بعضنا لبعض.

مضت الساعات المتبقية من ذلك اليوم بسلاسةٍ أكبر؛ حيث احتسيت النبيذ على الأريكة، وقرأت وضحكت لسماعي خالاتي وهنّ يطلقن ملاحظاتٍ تغيظ والدتي وهي تطهو العشاء، وشعرت بالسعادة في الاحتواء الغامر للمنزل، وتمنيت لو أني أستطيع البقاء فيه مدى الحياة ولو أني أستطيع طمس الأجزاء الأخرى في حياتي وأتخلى عن فكرة التطور. أكلنا ولعبنا ألعاب الطاولة وشربنا النبيذ ودخنّا السجائر وشاهدنا أفلاماً، وفي آخر السهرة انتقلت إلى أريكة أمي وتكوّرت بجانبها، وبكيت، وبكيت، وهي ربتت على رأسي وداعبت شعري، دون أن تدفعني لسرد سبب بكائي. وفي صباح اليوم التالي، غادرت المنزل قبل استيقاظ الجميع، وركبت الحافلة عائدةً إلى دبلن.

-4-

كانت المدينة لا تزال هادئةً وفارغة مع دخولنا إليها في الساعة التاسعة تقريباً. في الطريق إلى المنزل، عبرت جسر **أوكونيل** ببطء خوفاً من الانزلاق على الجليد. ثمّ اتجهت للسير عبر شارع **غرافتون**، حيث كان الناس يتجمعون كالعادة في فترة التخفيضات. توقفت عند ناصية الشارع لشراء بعض القهوة، ثم تجولت حول حديقة **ستيفينز غرين** حيث كنت و**كياران** نمشي عادةً بعد العمل. كنت أحاول تأخير لحظة فتح باب منزلي والانزلاق نحو الفراغ وإلى كل ما كان سيحصل حينها.

تلك كانت غالباً حالتي في الأمسيات التي لم أكن أرى فيها **كياران** بعد العمل. كنت أبدأ جولتي بالسير والخوف المُربك يتملّكني لدى التفكير بكل الخطوات التي سأمشيها، وكل المنعطفات المألوفة التي سأمرّ بها، بكلّ الفراغ المحيط، وبأنّ لا أحد ينتظرني هناك عند وصولي. وفي الطريق لا بد من التوقف عند حانة لشراء مجلّةٍ، والدخول لاحتساء كأسين من النبيذ الأحمر مع تدخين السجائر بقلق، ثمّ أنقض على أصابعي أقشر الجلد الميت عنها إلى أن أرغم نفسي على المغادرة. وهكذا كان حالي ولكنه الآن أسوأ. فقد أمضيت ساعة ونصف الساعة لقطع مسافةٍ لا تحتاج لأكثر من أربعين دقيقة من المشي، تجولت في اتجاهاتٍ غير معهودة، ووقفت أمام واجهات المتاجر.

فتحت الباب وجلست في سريري أفتح الحاجيات التي أحضرتها من منزل أهلي. أخرجت القصاصة الورقية وقرأت: أنتِ امرأة جميلة، وأنا أحبك. أثارت قراءتها انفعالي أكثر. كيف استطاع كتابتها لو لم... لا يمكن أن يكتب هذه الكلمات ثمّ...

وضعتها جانباً وأخرجت هاتفي وأرسلت له رسالةً أخبرته فيها أنني

عدت للمنزل وأنني سآتي إلى منزله، جاءني ردّه على الفور: ابقي مكانك، وأنا سآتي إليكِ خلال ساعة.

أطبقت يديّ على الهاتف أتشبث به، واجتاحتني موجةٌ من الاطمئنان.

لا بد من وجود تفسير لكل ما كان يحدث. ربما كان والده مريضاً – وربما كان معه في المنزل، بغضّ النظر عن كل ما أعرفه.

صنعت بعض القهوة ودخنت السجائر ونقرت بأصابعي على طاولة المطبخ ونظرت إلى القصاصة، ودلّكت يديّ لأهدئ من روعي وأمنع نفسي من عضّهما أو إلحاق الأذى بذاتي.

بعد ساعةٍ بالضبط كان يطرق الباب، وعندما فتحته كان قد تغيّر كُليّاً. القسوة، التي تعتلي وجهه للحظاتٍ عادةً أثناء احتدام جدالنا، كانت تتجلى بوضوح الآن وقد سيطرت على كل جزءٍ منه.

«تفضل بالدخول» قلت له.

«لا» أجابني.

«ماذا؟»

مع شعوري بخسارة كل شيء وأنني خلال لحظة نضبت الطاقة في داخلي ونفدت قوتي وكل ما حشدته من زخم في سبيل أمل عقيم، فتمسّكت بحافّة الباب لأبقى منتصبةً على قدميّ.

«لن أدخل». نظرت إلى وجهه مجدداً، وقد جرحتني كلماته. «لقد أتيت فقط لأقول لكِ إن علاقتنا انتهت. سأغادر الآن»

واستدار فعلاً، وهمّ بالرحيل.

كيف فعلها؟ كان فعلاً مذهلاً واستثنائياً بالنسبة لي حتى في صدمته المقيتة؛ فكيف يمكن لشخصٍ أن يكون على ما كان عليه هذا الرجل؟

سمعت نفسي أقول له: «انتظر، أرجوك، عُد» وأنا أفكر بسرعة بالشيء الذي قد يجعله يعود، وكراهية صوت جنوني تغلي بداخلي. «خمس دقائق فقط، أستحلفك بالله أن تدخل لخمس دقائق فقط».

استدار نحوي ثانيةً متخذاً ذات الوقفة السابقة، واضعاً إحدى يديه على

حزام حقيبته والأخرى على وركه، بنفس الوضعية التي يتخذها الآباء لدى انزعاجهم من أولادهم، تماماً كما يقف أحدهم أمام طفل يسألك بلا توقف عن السبب الذي يحول دون تناوله المثلجات كوجبةٍ رئيسية على العشاء.

وفي الواقع، كان يضيّق عينيه ويهز برأسه وكأنني أطلب منه معروفاً عظيماً مستحيلاً. أوحت تعابيره بأن ما كان يحدث، بغض النظر عن ماهيته، ليس سوى شيء اعتياديّ لم أستطع فهمه لأنني كنت إنسانة غبية غير راغبة بفهمه أو متوهمة.

«لماذا؟» سألته. «أرجوك ادخل، ودعنا نتحدث. يجب أن تتحدث إليّ. يجب أن تتحدث إليّ».

كان صوتي يعلو مع كل جملةٍ أقولها، وهو يهزّ برأسه لي.

بحثت عن وسيلة ما محاولةً إقناعه وكأنّ يأسي وحبي له مصدرا طاقة لقوة جذب خارقة يمكنني استخدامها للتأثير فيه.

«لن أدخل،» كررها ثانيةً، ووسط لحظات الجنون المحموم التي كنت أعيشها، شعرت أنّ دخوله هو العقبة الوحيدة التي يجب التغلب عليها. كان بالضبط ذات الشعور الذي انتابني عندما اختفى وجعلني أتخيل أن مجرد رده على مكالمتي وسماع صوته سوف يحلّ كل شيء.

شعرت أنني لو تمكنت فقط من إقناعه بتجاوز العتبة، لو أنني أستطيع حمله على الدخول إلى غرفتي القديمة، ولو أنني أستطيع جعله يجلس على ذات السرير الذي نمنا ومارسنا الحب عليه يوماً، لا بد أنه سوف يلين ساعتها.

لا بد أنه سيضطر للتخفيف من شخصيته السريالية وسيجد نفسه مرغماً على التذكر والتصرف برقّة.

«أرجوك، ادخل ودعنا نتحدث» توسلت إليه، وبحركةٍ نزقة، اجتاز عتبة الباب وأنزل حقيبته عن ظهره.

«ماذا؟» قال لي.

لم أعرف من أين أبدأ وكيف أصف له جنون ما كان يحدث بيننا وماذا أطلب منه أولاً. أول شيء يمكنني إثباته كان حميمية لقائنا الأخير. التقطت

حقيبتي وبعثرت محتوياتها باحثةً عن العلبة الزرقاء التي أخرجت منها بروش العنبر ووضعته أمام عينيه وكأنه تعويذةٌ، وكأنه يحمل قوةً لها أن تستدعي شيئاً من داخله.

«أنت أعطيتني هذا، وقلت لي إنك تحبني، منذ أسبوع!»

كنت أصرخ حينها، وتفاقم كل شيء في نفسي، وشعرت بأنني أكرهه لأنه أوصلني إلى كل هذا.

شعرت بالهزيمة في لحظة يقين مفاجئة بأنني أنا التي كنت مجنونة. لقد توقعت أحداثاً لا يمكن أن تحدث.

«اسمعي، السبب في عدم رغبتي بالدخول هو عدم وجود ما نناقشه. لا فائدة من الجلوس والتحدث بالأمر، لقد انتهى كل شيء. لا شيء لديّ أقوله لكِ الآن وقد علمت حقيقة الوضع»

«لمَ لا تريد أن آتي إلى منزلك؟ لماذا لم تجب على مكالماتي؟»

لا جواب، صمتٌ مُطبق ووجه يزداد تجهماً، وكأنني تصرّفت بقلّة أدب أو تخطيت حدود اللباقة.

«هل هي هناك؟» سألته، وأنا أنفث بصوتٍ عالٍ بالسبب الذي شعرت به لأيامٍ يلوثني بالقذارة «هذا هو السبب الوحيد الذي دفعك للمجيء إلى هنا، لقد خشيت مجيئي لئلا أصدم بوجودها».

«لم يعد هذا من شأنك بعد الآن، لا شأن لك بأي شيء، وفي الحقيقة لم يكن من شأنك يوماً».

قلت له وأنا أبكي: «إذاً، إن كان كل شيء بيننا قد انتهى، لا أريد منك سوى أن تقول وداعاً. ألا يمكنك أن تتصرف كإنسان؟ ألا تدين لي بذلك؟»

لكنني بالطبع لم أكن أعني ما قلت. لم أرغب بالوداع قطّ، ولم يكن لديّ أدنى اهتمام بفراقٍ مكلل بالاحترام. كنت أفكر فقط في أنني لو أستطيع جعله يتنازل ويعاملني كشخصٍ أمامه، أن يلمسني، وعندها سيزول عنه السحر وسوف يحبني من جديد.

«حسناً،» قال وعيناه لا تزالان تلمعان بنظراتٍ من الاتهام والسخرية. «وداعاً»

رجوته قائلةً: «عانقني عناق الوداع». لا أحب تذكر أني قلت له ذلك.

أدار عينيه متبرّماً وخطا نحوي، وربت على ظهري مرتين بخفّة، كما قد يفعل أي زميل لي.

تمسكت به وتشبثت وحشرت وجهي في صدره وشممته في لهاث.

تجاهلني بكل أريحية كأنني مجرّد حشرة، ثمّ أطلق زفرةً قوية تناثر معها بعض البصاق من بين شفتيه، والتقط حقيبته بسرعة وفتح الباب وانطلق يسير بعجلةٍ في الشارع دون أن يلتفت إلى الخلف ليراني منطويةً على نفسي في مدخل المنزل.

لقد رحل. جرجرت نفسي إلى الداخل واستلقيت على سريري. كان يتسكع في أصقاع الأرض، يخدع الناس ليوهمهم بأنه على قيد الحياة. ما الذي حدث؟ جلست منتصبةً في السرير وأسندت يدي إلى الجدار البارد في محاولةٍ لإيقاف الدوار في رأسي.

أمضيت بقية النهار جالسةً في مكاني أبكي وأتمتم لنفسي سرداً لسلسلة الأحداث التي أدت للوصول إلى هذه اللحظة.

تصفحت مذكراتي بحثاً عن تواريخ لقاءاتنا، ورحت أروي ما حدث في كلٍ منها؛ أول لقاءٍ لنا، أول قبلة، المشاجرات، المصالحات، وجبات العشاء. رويت كل الأحداث بصوتٍ عالٍ، وكررت ذلك مرّاتٍ ومرّات، من البداية وحتى النهاية.

-5-

انتحر أحد أصدقائي قبل بضع سنوات. كنت في ذلك الوقت أعمل في المسرح، ويومها تعرضت هواتفنا جميعاً إلى سيلٍ من المكالمات لكننا كنا منشغلين وقد تجاهلت الاتصال بدوري. وبعد بضع ساعات كنت وزملائي في الحانة مجتمعين لتناول الغداء عندما وصلتني رسالة نصيّة. كان المُرسلُ شخصاً لا أعرفه كثيراً وليس على علاقة قوية بصديقي أيضاً. قرأت الرسالة على عجل أثناء وضْع وجبات الطعام على الطاولة، وأنا نصف منشغلة بالحديث مع الآخرين والهاتف في يدي.

«....يؤسفني أن أكون أنا من..... توفي في منزله.....».

قرأت الرسالة مرتين بتواتر سريع، وحدقت في الشاشة بذهول، ثمّ وضعت الهاتف جانباً وتناولت طعامي. طيلة ساعةٍ كاملة، لم يكن موته حاضراً ضمن أي دلالةٍ محسوسة. لا أذكر أنّ فكرةَ إدراكٍ واحدةٍ اخترقت رأسي حتى لحظة مغادرتنا حيث شعرت بركبتي تضعفان ولا تقويان على حملي وضربت الحائط وأنا أكرر: «أظن أنّ صديقي مات».

وبعد بضعة أيام، اجتمعنا في منزله، حيث جلسنا في غرفة المعيشة ورحنا نشرب ونبكي ونتحدث عن جنازته. قضينا الوقت في استذكار وسردِ أحداثٍ من الأشهر القليلة الماضية مع تلك المقولة الختامية: «.... وكانت تلك آخر مرّةٍ رأيته فيها» مع إصرارنا على وصف وتحديد كرسي البار الذي رأيناه جالساً عليه، أو اسم الفرقة الموسيقية التي ابتعنا التذاكر لحضور حفلها ومناسبة الحفل، وكأننا نريد أن نقول بعضنا لبعض: «لقد حدث ذلك فعلاً؛ أنا كنت هناك؛ هل حدث فعلاً؟»

يناير 2013

دبلن

-1-

بعد أن هجرني ذهبت إلى ذات البار الصغير الذي تشاجرنا فيه بسبب قصائده التي كتبها **لفريجا**.

أردت أن أكون إنساناً محطماً إلى أقصى حد، أن أطمس ذكرى صورة وجهه الممتقع اشمئزازاً عند مدخل منزلي. ظللت أرى تعابيره المليئة بالضجر والسخرية، كأنها تقول: «لقد ظننتِ أني أحببتك. هاه!»

أخبرتني مجموعة من صديقاتي، واحدةً تلو الأخرى، عن مدى كراهيتهنّ له، وكم كان غير مناسب لي. رددت رأسي للخلف وأنا أضحك موافقةً. وضع أحد أصدقائي يده على مؤخرتي وسحبني نحوه، شعرت بغثيانٍ من شفتيه المشبعتين بالويسكي تنزلقان على شفتي فدفعته بعيداً عني. لم يكن الأمر كذلك، لم يكن الأمر كذلك قط طوال هذا الوقت. عدت إلى المنزل.

عندما دخلت المنزل، هويت على الأريكة التي كنا نمارس الجنس عليها في بعض الأحيان. في واحدةٍ من تلك المرّات، قبل وقتٍ غير طويل من عيد الميلاد، كنا قد عدنا في وقتٍ متأخر من الليل بعد حضور حفلة أُقيمت في منزل، وكنا دائخين وهائجين. وبالكاد استطاع انتظاري لإتمام تشغيل أسطوانةٍ موسيقية حيث دفعني إلى الأريكة ورفع ثوبي إلى وجهي ووضع فمه على الوحمة الدهنية الصغيرة التي كنت أخاف منها كثيراً، وقد انزلقت من فوق شريط لباسي الداخلي.

«انزلي على الأرض» قال لي.

وانزلقت عن الأريكة إلى الأرض أمامه.

عضضت شفتي، بينما لباسي الداخلي منزلق حتى كاحليّ وشعرت به يحوم متبختراً فوقي. كان يحب أن يتمشى حولي وأنا بتلك الوضعية، يحب أن يدخّن سيجارة ويفتح زجاجة جعة. سحب كرسياً وجلس خلفي يراقبني وأنا أنتظره.

بعدها، امتلأت بارتباكٍ مُترعٍ بالنشوة من مدى حلاوة أن يسترخي هو ليدخن بينما أمصّ عضوه. كان جسدي بأكمله يتأجج بحرارةٍ ثائرة تجعلني أبذل جهداً أكبر فيما أفعله وأكون أشدّ إثارةً، وتدفعني لفتح عينيّ وفمي باتساعٍ أكبر.

هناك شيء يبثّ السمّ حين يتعلق الأمر بالتعرض للإهانة بهذا الشكل، الإهانة التي تتمثل بالافتقار الكامل للاحترام والانعدام التام للاعتراف بوجودي معه، أما مصدر ذلك السمّ فهو الشعور أنني بديل عن أيّ شخص أو أنني لا أحد، مجرد شيء يُخرج فيه شبقه أو يفرغ شهوته داخله، الشعور بأنني موجودة فقط لتلقف ما أراد إعطاءه. عندما وصل إلى نشوته طارت يداه إلى الخلف للتمسك بالكرسي وانتفض رأسه للوراء، حيث تسمرت عيناه باتجاه السقف. بينما لم تفارقه عيناي قط.

أحببت تلك الأوقات التي يكون قد مضى عليه يوم أو اثنين دون استحمام فيها، أحببت هذا التفصيل التشاركي الصغير. كان عندما يقود درّاجته، يتغطى جسده بطبقةٍ رقيقة من السخام بسبب الازدحام ويتلوث بالأتربة والزيت من درّاجته، وسوف يلطخني بها. كنت أحب استنشاق الرائحة الدافئة الرطبة في شعره وألصق وجهي في قميصه الفانيلا الناعم لأشمّ رائحته لحظة وصوله من العمل؛ رائحة عفنة حامضة، ولكنها بطريقةٍ أو بأخرى، لم تكن كريهة.

وبعد أن ينتهي من تذمره وشكواه مما أزعجه خلال يومه أو على طريق عودته للمنزل، يلتفت إليّ وينظر في وجهي كأنه يراني لأول مرّة فيرفع يديه ويحتضن وجهي دون أن يخلع قفازاته المهلهلة مغطّياً أذنيّ، فأعجز عن سماع أي شيء، ولم أكن أصلاً أريد سماع أي شيء.

قضيت في إحدى المرّات دقائق عديدة وأنا أدغدغ بأنفي أجزاء مختلفة من جسده فسألني عن رائحة الجنس، أجبته: «إن له رائحة البيوت الزجاجية» وأنا شاردة بتفكيري في ماهية الإحساس ما بعد النشوة حيث استلقينا تحت الغطاء الصوفي، وتلك الرائحة تتطاير بكثافة بالقرب من أنوفنا، لتبثّ ذات الشعور بقدرةٍ لا متناهية.

-2-

كانت ساعات النهار تمرّ متخمةً بغيابه، تأبّطت كل ثانيةٍ فيها ثقلاً من الاكتئاب والانهيار والخواء. في بعض الأوقات، كنت أجلس لساعات أحدق في الفراغ حولي، غير قادرةٍ على التحرّك تحت كل هذه الأثقال. استعذبت الألم لأنه تركني أتضاءل لدرجاتٍ لم أشعر بها من قبل. كنت لا شيء سوى مجموعة من الأعصاب الحسيّة الحيّة، مجرّد وعاءٍ تتحرك فيه خلايا حيّة، لا ملامح لوجودي خارجه.

كره **كياران** في شخصيتي ترددها في اتخاذ قرار، ففي المرّات التي يسألني فيها عن المكان الذي أرغب بتناول العشاء معه فيه، كنت أجيبه وأنا أهز كتفيّ بأن لا مانع لدي في أي مكان يختاره هو. وكان يغضب إن طلبت رأيه في اختيار الفستان الأنسب لارتدائه. أراد لي أن أصبح ناضجة وأحدد الأشياء التي أريدها وأعبّر عنها بصوتٍ عالٍ. كره أن أكون مجرّد فراغ سلبي يتغير ليتلاءم مع وجوده الإيجابي، ولأنني أدركت ذلك، وأدركت أنه قد يحبني حقاً فقط إن أصبحت امرأة واقعية، غرقت في مزيدٍ من الفشل. أصابني الذعر ولم أجد رد فعلٍ يسعفني سوى رسم تلك الابتسامات الرائعة العريضة والتافهة أمام نظرته المرعبة الساحقة. ابتسمت وابتسمت حتى بكيت، ومع ذلك عجزت عن الإتيان بقرارٍ واحد أو التفوه بتعليقٍ يتيم لأفرح قلبه وأكون فيه على سجيتي بصورةٍ مُقنِعة.

ومع رحيله وهجرانه لي غرقت في مزيدٍ من التضاؤل أكثر بكثير مما سبق. لم أجد في رأسي فكرةً واحدةً لا تتمحور حوله ولا رغبة لي بشيءٍ سواه. أغمضت عينيّ بقوة وفكرت في أشياء أمنحها له ليعود لي. لم أجد شيئاً واحداً في حياتي أعجز عن التضحية به فوراً لأجله، ولا حتى مكاناً واحداً لا يمكنني الذهاب إليه لأكون معه. كنت قادرةً على التخلي عن كل

من عرفتهم وتركهم يعيشون حياتهم التي بدت لي مجرّد سلبيات رمادية للحياة الحقيقية التي يمكنني أن أحياها مع **كياران**. كنت سأذهب معه إلى أي بقعة من بقاع الأرض وليست لدي أي مطالب.

قضيت وقتي في البحث على الإنترنت عن كل شيء يوصلني إليه، وصنعت مجلّداً أحتفظ فيه بأهم الملفات المتعلقة به. أثارت جميع صوره بكائي وإن وجدت صورةً لم يسبق لي رؤيتها، شعرت بحزنٍ شديد وجميل لأنها جعلت الحياة تبدو جميلةً من جديد، فثمّة جوانب في شخصيته لم أرها من قبل، وطرق سلكها في هذا العالم لم يسعفني الوقت في البقاء معه لأشهدها. كان الأمر حلواً ومريراً لدرجةٍ كان من المستحيل فيها تصديق أنني لن أراها بنفسي ذات يوم.

في واحد من نقاشاتنا حول علاقته **بفريجا**، سألته ذات مرّة: متى عرفت أنّك **وفريجا** ستنفصلان؟ قال لي حينها: «لم أعلم ذلك حقاً، وما زلت حتى الآن لا أفكر بها بهذه الطريقة. كان يجب أن نترك بعضنا ولكن لا أحد يعلم ما قد يحدث فيما بعد. الحياة طويلة أمامنا». نعم، الحياة طويلة. اقتطعت كلماته وحرفتها لترتد إلى ذهني بمعانٍ إيجابية بالنسبة لي. لا أحد يعرف ما قد يحدث.

عثرت على صورٍ لنا معاً لم أعرف يوماً أنها موجودة وهذا أروع ما عثرت عليه. كنت أبحث عن أخباره في صفحات أصدقائه، ووجدت مجموعة صورٍ لنا من حفل إطلاق أقامه مركز مشروع الفنون في حي **تيمبل بار**. ظهرت في إحدى الصور مرتديةً قميصاً رمادياً رقيقاً بياقةٍ واسعة، وكنت أبدو جميلةً بوجهي الذي يفيض حيويةً وأنا أنظر إليه وأضحك على شيء يقوله بينما تغضّن وجهه الجميل بهجةً. كانت يده تسترخي على كتفي وكم أسعدتني رؤية ذلك موثقاً في صورةٍ يراها الجميع؛ فمن المستغرب جداً أن نكون قد اتخذنا وقفة كهذه أمام الآخرين.

ثمّة سمة ما تعتلي وجه الفتى الجميل، فهو ليس وسيماً أو جذّاباً أو مليحاً، وإنما هو جميلٌ. لماذا أجده مؤثراً جداً، في الوقت الذي أرى فيه الكثير من الفتيات الجميلات كل يوم؟ هذه وجهة نظرٍ غير مُنصفة، أعلم ذلك. ولكن

الفتى الجميل يبدو لي كأنه تجاوز خليط الطين والإسمنت الذي انعجن به أبناء جنسه. حيث يبدو وجهه الجميل منحوتاً من أرقى المواد وأكثرها صفاءً.

بكل الأحوال، هناك شيءٌ ما في هذا الوجه يجعلني أعتقد دونما تفكير أن صاحبه فتىً طيب. وحتى إن لم يكن هذا الشيء واضحاً ظاهرياً، فلا بد أنه موجود في مكان أعمق حيث ينبغي لك أن تغوص أكثر لتجده. وأنا، بالرغم من أنني كنت سأسخر من شعور كهذا في حال كان الأمر يتعلق بفتاةٍ جميلة، ورغم معرفتي بأنّ هذا الجمال زائلٌ ولا قيمة له ولا يُعوّل عليه، فإنّ الوجوه الجميلة للفتيان كانت لا تزال تأسرني.

تتبعت أخباره وتحركاته يومياً عبر شبكة الإنترنت ودمدمت لنفسي بما يشعر به، خاصة إن رأيته في وضعيةٍ توحي تماماً بما يشعر به؛ فمثلاً جلس في إحداها يقضم أظافره منزوياً في جلسة قراءة، وفي أخرى بدا محتقناً ومنزعجاً خلال الكلمة الافتتاحية في أمسية دبلن الثقافية. عدت في البحث سنوات للوراء وجمعت ما استطعت من معلومات. كان بيننا من الأصدقاء المشتركين ما يكفي لتزويدي بفكرة جيدة عن أماكن تواجده لأسابيع قادمة، ومعرفة ما سيحضره من افتتاحيات وعروض. وطبعاً كنت أتجنب حضورها خشية أن أراه هناك.

في إحدى المرّات، دخلت إلى حانة للقاء أحد الأصدقاء بعد العمل، وظننت للحظة أني رأيت قحف رأسه يطلّ من ركن الحانة عند الزاوية. استدرت بسرعة وأرسلت لصديقي أخبره بالذهاب إلى مكانٍ آخر، وركضت عبر زقاقٍ تفوح منه رائحة البول، وضغطت بمفاصل أصابعي على صدغي بقوة حتى طغى الألم على كل شيء وعادت لقلبي دقاته الطبيعية.

-3-

خسارة شخصٍ تحبه قد يدفعك إلى الجنون في أفضل الأحوال. وأنا لم أكن أحب **كياران** فحسب، وإنما أحببته بعاطفةٍ عمياء لا هداية فيها. وخسارة شخصٍ تحبه بهذا الشكل، كفيلةٌ بتحويلك ليس إلى شخصٍ مجنونٍ فقط بل إلى شريرٍ أيضاً.

عندما تركني، رأيته معها في حلمي أكثر من مرّة، واستيقظت من الحلم وأنا أتصبب عرقاً.

فكرت في الذهاب إلى منزله والطرق على النافذة حتى يفتحا لي الباب ويسمحا لي بالدخول.

حلمت في شهر مارس من ذلك العام أنني أقتلها، واستيقظت على شعورٍ غريبٍ من السكينة، وفي رأسي تتكرر فكرة واحدة: لا بأس، الأشياء الأكثر غرابةً قد تحدث. حسناً، الأشياء الأكثر غرابةً قد تحدث.

كنت قد تسللت إلى غرفته أثناء نومهما ووقفت أنظر إليهما من المدخل. كان ضوء القمر يضيء وجهيهما ويجعلهما يبدوان جميلين وميّتين فعلاً. لففت شعرها الجميل الفاحم حول قبضتي، ورحت أضرب برأسها الحائط - ضربة، ضربتين، حتى تشققت جمجمتها، ولأنه كان حلماً، كنت قوية بما يكفي لحمل كل جسدها والتلويح به بعنف بيدٍ واحدة.

كان فمها مفتوحاً يغرغر ويزبد وهناك بقعة سوداء على لوح السرير خلفها، وظلّت ذراعها النحيلة الطويلة ترتعش وتنقبض في الفراغ دون جدوى إلى أن توقفت عن الحركة.

إلى جانبها، كان **كياران** يراقب ما يحدث بهدوء، وما إن توقفت عن التنفس حتى رفع عينيه لينظر في عينيّ، ثم أدار وجهه إلى الحائط متخذاً وضيعة نومه المعتادة محكماً التفاف البطانية حول جسده.

-4-

في بعض الأحيان، كنت أتصل ليلاً **بليزا**، الشخص الوحيد في العالم الذي يمكنني إخباره بالحقيقة، الحقيقة الكبيرة والجوهرية.

«أنا بحاجة إليه. أنا بحاجةٍ إليه». قلت لها منتحبةً. «لا يمكنني ذلك. لا قدرة لي على ذلك» وأنا أعني قدرتي على العيش والاستمرار في حياتي من دونه.

أحببت **ليزا** لأنها لم تزعجني بمخالفتي الرأي، ولم تقل لي إنني لا أحتاج أحداً وبأني سأتجاوز الأمر. لقد عرفت دوماً وأدركت بحدسها أنها هي نفسها لا تحتاج أحداً لتستمرّ في حياتها، ولكن هذا الاختلاف بيننا لم يجعل تجربتي في نظرها أقل واقعيةً من تجربتها. لقد رأت بأم عينها كم كانت الحاجة حاضرةً.

في المرّة التي قلت لها، وأنا أغصّ بالبكاء، «أنا وحيدة، وحيدة جداً وخائفة» لم تعارضني لتدّعي بأنني لست كذلك.

«أعلم أنك وحيدة. أجل، أنتِ وحيدة». قالت موافقةً إياي الرأي.

-5-

أملاً في الحصول على متنفسٍ من الراحة أو بعض الأفكار، بحثت عن أشخاصٍ اختبروا نفس مشاعري. واخترت كلماتٍ مفتاحية للبحث مثل: «الحب الهوسي»، «أشهر حالات الحب من طرف واحد،» «حوادث الهوس» قرأت قصّةً، كنت قد سمعت عنها في مدوّنةٍ صوتية منذ سنوات، وتدور حول رجلٍ يُدعى **كارل تانزلر**، يعمل في **فلوريدا** في المجال الطبي ولكنه ليس طبيباً. وقع هذا الرجل في حب واحدةٍ من مرضاه، وكانت فتاةً أمريكية من أصلٍ كوبي، وتُدعى **ماريا إلينا ميلاغرو دو هويس**. في القصة، التي تدور أحداثها في العشرينات من القرن العشرين، كانت الفتاة تعاني من مرض السلّ، الذي قتل إحدى أخواتها. استحوذ حبها **على تانزلر** منذ اللحظة الأولى، فبذل من أجلها كل خبراته الطبيّة المتواضعة، ووفر لها جميع تجهيزات التصوير الشعاعي وواظب على زيارتها في منزل عائلتها لتقديم المزيد من المعالجات الطبية. أغرقها بالهدايا والمجوهرات وصارحها بأنها حب حياته وأنها تجسيدٌ لسلسلة من الأحلام التي رأى فيها ملاكاً غامضاً له شعر أسود.

لم تبادله الفتاة المشاعر ذاتها، ومن المؤكد أن عائلتها شعرت بوجوده ثقيلاً ومزعجاً ولكنهم سمحوا بحضوره، عساه يساعد في شفائها. ولكن كل جهوده ضاعت هباءً وتوفيت الفتاة عام 1931. دفع **تانزلر** تكاليف الجنازة وأقام لها ضريحاً.

وفي عام 1933 قصد قبرها ليلاً واستخدم عربةً لنقل جثتها المتحللة إلى سيارته وحملها إلى منزله، واستخدم هناك دبابيس وأسلاكاً وهيكلاً أخرق على شكل قفص ليحفظ فيه عظامها المتفتتة بعضها مع بعض، ولفّها بالشاش وقماش الموسلين الرقيق المشبّع بالعطور في محاولةٍ للتغطية على

رائحة التحلل النتنة القوية للجثة. وصنع قناعاً ناعماً أجوف من المفترض أنه صُنع ليحاكي ملامحها الحقيقية لكنه كان مريعاً في نقائصه. رآه الجيران من خلال نوافذ منزله يرقص مع طيف امرأة.

تمّ تقديمه للمحاكمة ولكن لم يصدر بحقّه أي حكم، وأمّا جثمان **ماريا إلينا** - الذي تُركَ على حاله، ملطخاً بحيلته المرعبة وتحنيطه الأخرق فقد وُضع للعرض في قاعة جنائزية، حيث يأتي الآلاف من الفضوليين لرؤية المشهد. لم تحظَ بالسلام أو الكرامة حتى بعد تحررها من قبضة آسرها.

عندما سمعت القصة لأول مرّة، شعرت بالغضب. أن تطالب بملكية امرأةٍ لا تحبك حتى وهي ميتة. أن تأخذ ذلك الجسد الميت وتجعله ملكاً لك بإجبارٍ قميء وعنايةٍ مريعة واهتمام قبيح. بدت هذه القصة كأنها تلخيصٌ لجميع السبل التي قد يسلكها الرجال لاستملاككِ عنوةً دون إذنٍ منكِ وتحويللكِ إلى شيءٍ لم تكونيه يوماً ولا يد لكِ فيه.

ومع قراءتي لها ثانيةً وسط أحزاني المُربكة، تساءلت في نفسي إن كنت أفضل منه، أو إن كنت يوماً في حياتي أفضل منه؟ ربما كان الأمر أنني لم أعشق أحداً بجنون حتى تلك اللحظة. ربما كنت دائماً عنيفةً مثل الرجل. ألم أبذل كل ما بوسعي لاستعادة خسارتي، المتمثلة في غيابه؟ ألم أقم بالتضحية بنفسي وبه أيضاً من أجل الحصول عليه؟ ألم أجعل منه كل شيءٍ لم يكن عليه؟ ألم أجعله ليّناً وحنوناً ومُدجناً وضعيفاً طالما أن هذا يفضي إلى إقناعه بأن يكون لي من جديد؟

قرأت دراسة حالة، لفتاةٍ حملت اسم «المريضة ميم»، حيث كانت تعاني من مرض الهوس الشبقي أو متلازمة **دي كليرامبو**. كانت الفتاة ابنةً لعائلة صينية من الجيل الأول للمهاجرين الصينيين في **أمريكا**، حيث عاشت في شمال مدينة **نيويورك** في السبعينات من القرن العشرين. التحقت هناك بإحدى الكليات المسيحية وتميّزت باجتهادها، وحظيت بتربيةٍ صارمة ولكن طبيعية ودعمٍ من أهلها، وكان لديها أصدقاء والقليل من المواعيد الغرامية الخاضعة للإشراف مع فتيانٍ من نفس ثقافتها. وفي عامها الدراسي الثاني في الكلية، بدأت بأخذ دروس خصوصية عند الأستاذ إكس، وهو

رجلٌ قوقازي في أوائل الأربعينات من عمره. كان ذلك الرجل أستاذاً في علم اللاهوت، وهو متزوج وأب لطفلين وجميع أفراد عائلته منخرطون في الكنيسة والمجتمع المحلي الذي كانت المريضة ميم جزءاً منه أيضاً.

بدأت المريضة ميم بإرسال رسائل ذات طبيعة شخصية للأستاذ إكس، أخبرته فيها عن الصعوبات التي تواجهها في دراستها ومع عائلتها وعلاقاتها مع الآخرين. تجاوب الأستاذ معها في البداية محاولاً منحها بعض الطمأنينة والدعم النفسي، ولكن سرعان ما ازدادت رسائلها لتصل إلى نحو عشر رسائل في اليوم الواحد، وهنا بدأ الأمر يزعجه وساوره الخوف مما فيها من نبرة حميمة طاغية وإشاراتٍ غريبة لعلاقةٍ عاطفية وارتباط مشترك لا يد له فيه.

وبرغم التحذيرات التي وجهتها لها عائلتها وإدارة الكلية والشرطة أيضاً بترك الأستاذ إكس وشأنه، استمرّت المريضة ميم في حملتها بل زادتها شراسةً أيضاً معتبرةً جميع محاولاتهم ليست سوى إثباتٍ لفرضيتها بأنّ زوجة الأستاذ عازمة على التفريق بينهما. بدأت تلاحقه في مكان عمله ومنزله إلى أن تمت معاقبتها بالطرد النهائي. ولكنها لم تكف عن إرسال الرسائل التي حملت اعتقادها بأنّ الأستاذ إكس كان يحبها ولكن تمّ تفريقه عنها فقط بسبب القيود التي تفرضها ثقافة الدين المسيحي الذي ينتميان إليه.

وفي صباح يومٍ من أيام شهر يوليو، صُعِقَ أصدقاء ومعارف الأستاذ بتلقيهم دعوة لحضور حفل زفافه على المريضة ميم. ظنّ معارفه البعيدون أنه وقع الطلاق بينه وبين زوجته في وقتٍ سابق وأنه مقبلٌ على إقامة حفل زفافٍ قسري لاضطراره للارتباط بعشيقةٍ أقام معها علاقةً سرّية، إلا أنه تمكن من التواصل معهم وتفسير الحدث الغريب. وفي ذات الوقت نُقلت المريضة إلى مركز حجرٍ تحت وصاية جهةٍ مؤسساتية، وبعدها لم يعرف أحدٌ شيئاً عن مصيرها.

وبعد مرور عدة أسابيع على حجرها بوصفها مريضةً تعاني علّةً نفسية، تلقى والداها اتصالاً من مطعم صيني في المنطقة يستفسر المتصل فيه عن مكان حفل الزفاف، وذلك لأنها سجّلت حجزاً لإقامة وليمة لثلاثين شخصاً احتفالاً بزواجها.

-6-

عندما تركني **كياران**، وجدت في حجم الألم غير المحتمل عزاءً ذلك أن الألم غير المحتمل لن يدوم وسوف ينتهي قريباً بطريقةٍ أو بأخرى.

واصلت الحياة، والذهاب إلى العمل أغلب الأيام (تغيبت عن العمل يومين فقط بسبب حالة الثمالة الرائعة اللاحقة لليلةِ سُكرٍ فائتة) عرف جسدي غريزياً كيف يحافظ على بنيته ليستمر بعمله في الأيام القادمة. تناولت وجباتٍ صحيّة وقليلة، وفي لحظات جنوحي لتشطيب نفسي غلبني تمنّعٌ كسول لم أستطع معه إطلاقاً الانسياق خلف ميولي. لازمني التعب في أغلب الأوقات، وأقصاني عن الخروج واحتساء المشروب، ناهيك عن شعوري بالخجل من القيام بذلك وحدي. كان لديّ إحساسٌ بأنني مع بعض قواعد العيش قادرة على شق طريق خلاصي من الألم.

وفي معظم الأمسيات التي حلّ فيها الملل ثقيلاً وأغرقني الألم، لجأت للتواصل مع ليزا؛ فمن الجيد وجود شخصٍ لا يعرفه أو لا يكرهه وقادر بنفس الوقت على الإصغاء لخساراتي. كما أنها دعمتني بإرسال طرد مليءٍ بأشياء ترفيهية من أفلام وبرامج تلفزيونية مُسلّية قضيت معظم الليالي في متابعتها، مع تدخين عددٍ قليلٍ من السجائر وارتشاف الكثير من الشاي الأخضر. مشاهدة هذا النوع من الأفلام له نفس التأثير الجيد للثمالة، في حال أعطيته حقه من الوقت؛ فالنكات فيه لطيفة والقصص متشابهة والنهايات دوماً سعيدة.

وفي تلك الأحيان التي أطلقت فيها العنان لذاتي للانغماس في إحباطها، كنت أجلس في سريري مستندةً بظهري إلى الحائط، وأحتضن رأسي بين ركبتي. في لحظاتٍ بلغ فيها الألم ذروته، لجأت لرفع رأسي وضرب الحائط به مرتين بحركة متتابعة وشرسة كفاية لتوليد شعورٍ لديّ بأن ارتجاجاً أصاب

عقلي فخفت واستعدت هدوئي. ولكنّ هذه الأمسيات كانت نادرة، فالحيرة التي سيطرت عليّ حجبت كل شعورٍ عميق آخر وهذا أمرٌ أشعر بالامتنان له.

استمعت لأغانٍ حزينة أثناء الاستحمام وبكيت معها، وفي بعض الأحيان كنت أتوقف وأنظر إلى نفسي من زاوية مراقبٍ خارجي، وأضحك على هذا الأداء السخيف للقلب المحطم. ذهبت بالقطار مرةً أو مرتين في الأسبوع إلى شاطئ **دبلن** الجنوبي للسباحة والسير حول الكتل الصخرية الشائكة على أطراف **شانكيل**. وفي المرّة التي جرّبت فيها الوقوف على الرصيف البحري في ضاحية **دان ليرا** لتأملّ البحر والشرود في محنتي، لم أصمد أكثر من بضع دقائق في ذلك وسرعان ما استعدت شعوري بذاتي وانسحبت من المكان.

كانت مشاعري حقيقية، ولكن لم تجد لها تعبيراً طبيعياً. شعرت على الرصيف البحري كأنني أقف في مشهدٍ سينمائيٍ هزلي، أتأرجح هناك في وسط الضباب. هل كنت أشعر بإحساسٍ حقيقي يتفتق من أعماقي، أو كنت أعيش في مشهدٍ خيالي رتبته مسبقاً؟



-7-

عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، توقفت عن الأكل وأصبحت محبوبةً، أو هكذا رأيت نفسي عموماً. حظيت فجأةً بقبولٍ في المدرسة من مجوعة الزميلات المذهلات بنحولهنّ اللواتي اعتدن انتعال أحذيةٍ من ماركة **اليوجيجي**[1] واقتناء علب الزينة التي يصل سعر الواحدة منها مئة يورو. بدا الأمر مدهشاً فأنا لن أصبح يوماً ثريّة ولكنني تمكنت من الانضمام إليهنّ وهذا أمرٌ جيد على الأغلب. في أحد الأيام، كنا نتحضر لأداء «حفلة المدرسة الراقصة»، الحدث الذي يعكس حاجتنا الماسّة لنكون أمريكيين، وكنت آنذاك قد وصلت بهيئتي إلى ذروة محاكاة شخصيات مسلسل **أو سي**[2] وأصبحت أشبههم إلى حدٍ بعيد. قضيت أسابيع أخطط وأفكر فيما سأرتديه فقد أردت شيئاً يُظهر جسدي النحيل الرقيق، ولكن يجعلني أبدو مميزة أيضاً وهذا يعني فقط ارتداء ثوب بتنورة واسعة مزركشة.

وصلت وشاركت بالحفلة الراقصة وكان الأمر مريعاً. لقد كان الفتيان مملين وطائشين كما هو حالهم دائماً، ولا يشبهون أبداً الفتيان في الأفلام التي يلعب الأدوار فيها شبانٌ بعمر الخامسة والعشرين. أردت إبهار الجميع لكن صورة لحظة ظهوري التي رسمتها في خيالي ورأيت فيها الجميع يلتفتون نحوي لإعجابهم بجمالي المشرق حديثاً، لم يتحقق أي شي منها. عدت إلى المنزل. لقد رسمت صورةً لنفسي ولم أنجح في تحقيق مبتغاي.

1- أحذية Ugg هي جزمة للجنسين مُصنعة من جلد الغنم التي تنشأ في أستراليا. عادةً ما تكون الأحذية مصنوعة من جلد الخراف ذي الوجهين مع الصوف من الداخل – المترجم

2- مسلسل أمريكي يلعب أدوار البطولة فيه تسعة من الممثلين والممثلات الشابات – المترجم

توفيت جدتي في دار المسنين. وقبل ذلك، اعتاد والدي الذهاب لزيارتها عدة مرات في الأسبوع خلال سنواتٍ طويلة مررت فيها بمرحلة الطفولة والمراهقة، وذهبت معه بضع مرات. كان المكان مقيتاً ومخيفاً كما يمكن أن تتخيله بالنسبة لطفل، تفوح فيه رائحة المعقمات وما هو أسوأ منها. ولطالما شعرت بأنني ذهبت معه إلى الدار لأبدو كشخصٍ صالح، أو للقيام بفعل طيب، ولكن فشلت في تحقيق ذلك. مرّة خرجت من المكان قبل والدي ونظرت إلى الحديقة ورأيت زهرة متفتحة في فصل الربيع آنذاك، وكانت تنبض بلونٍورديٍ حيّ مع قطرات الندى معلّقةً على بتلاتها، لدرجة أني شعرت بالدموع تملأ عينيّ، وللحظات قليلة لم أستطع الإحساس سوى بالطاقة النقية للحياة، ثمّ تذكرت أين أنا ومن كنت أرى قبل قليل، وأدركت للمرّة الثانية أنّ الصورة التي كنت أتوق لإدراكها لم تكن تعني شيئاً، كانت لا شيء.

-8-

لم أتصل به عندما تركني وذلك لأنني من جهة أدركت أن لا فائدة من ذلك، ومن جهةٍ أخرى كنت على يقينٍ أنها سترى أي رسالةٍ أرسلها، ولم أستطع تحمل تخيلهما وهما يضحكان عليّ أو يهزان رأسيهما إشفاقاً وهو الأسوأ. وأدركت أن في التزام الهدوء توجهاً صحيحاً - رغم عدم معرفتي الأكيدة حتى تلك اللحظة بالوجهة التي أقصدها وهي تصحيح الأمور، والعودة إلى الواقع.

لم أكن لأسمح له بهجراني إلى الأبد، ولهذا السبب لم أستطع إعلان حدادٍ حقيقي، وبه أيضاً استطعت منع ذاتي من التخلي عن نفسي.

في أحد مساءات شهر أبريل جلست في شقتي متلهفةً، كعادتي في الأيام الخوالي، للذهاب إلى سهرة سمرٍ وعربدةٍ كبيرة. ولكن لم أستطع حمل نفسي على الخروج فقد كنت لا أزال خائفةً وواهنةً. لم أكن أستمتع بلقاء أصدقائي الذين اضطررت بوجودهم للتظاهر بعدم حبي **لكياران** وبأنني حانقةٌ عليه بسبب ما فعله. وكامتيازٍ، سمحت لنفسي باحتساء الكحول وحيدةً، وفي اللحظة التي هممت فيها بفتح زجاجة النبيذ الأحمر الثانية صدحت أغنية **بوب ديلان** «لا تفكر مرتين» وهي الأغنية التي كثيراً ما أستمع إليها. اجتاحتني غمامة حزنٍ لذيذة في غزارتها واستقرّت فوق صدري، ودون كثير من التفكير أو توقّع أي رد منه، التقطت هاتفي وكتبت له:

*أستمع إلى **بوب ديلان** وأفكر فيك. اشتقت إليك.*

وصلني ردٌ منه بعد بضع ساعاتٍ، في وقتٍ كنت قد احتسيت كل ما في المنزل من نبيذ وقبعت مستلقيةً في سريري أشاهد التلفاز دون تركيز. واكتفى في رده بقول:

وأنا اشتقت إليكِ أيضاً.

حملت هاتفي إلى صدري، واحتضنته مثل رضيع. تعلّقت بدفء الإيحاء المختبئ بين الكلمات، وأصابني ارتجاف وسرت في عروقي دفقاتٌ من صبرٍ مبهج، ويقينٍ بأنني أستطيع الانتظار للأبد.

-9-

لم أضطر إلى ذلك. فبعد ثلاثة أيام، ثلاثة أيام قضيتها بكبح نفسي والتزام صمت مُتقن، اتصل بي. وطلب أن نلتقي أمام متحف التاريخ الطبيعي في الساعة الثانية من عصر اليوم التالي.

اختلقت أعذاراً بأنني مريضة ويجب أن أغادر العمل للذهاب إلى المنزل، ومشيت في شارع **كيلدير**، وعندما انعطفت عند الزاوية وجدته واقفاً هناك يسحب بعصبية الخيط المنحلّ من سترته الصوفية عند ذات السياج النباتي المجزوز بأشكال حيوانات، وذات البقعة التي انطلقنا منها في موعدنا الأول.

عندما رآني تهللت أساريره وأشرق وجهه، وراح قلبي يرفرف بمرحٍ في صدري. لقد أصبت في قراري بالانتظار والتأني والتقوقع داخل ذاتي.

تمّ إبطال التعويذة، وتلك الشخصية التي كان عليها عند عتبة منزلي لم تعد موجودة.

وقفت أمامه وعيناي تعسلان بالحب وابتسامتي تفصحُ عن تسامحٍ وعشقٍ أزليّ. كان بداخلي أشياء كثير أردت إعطاءه إياها، لم أكن سعيدةً في حياتي كما كنت في تلك اللحظة، وترسخت ثقتي بأنّ مشاعر الحب الصافية الوافرة التي شعرت بها كانت حقيقية وواضحة في كل تصرّفٍ قمت به: في انتظاري وتصاغري، في تسامحي واستعدادي للتحول إلى شخصٍ مثيرٍ للشفقة.

أنا هي الإنسانة. لقد تعذّبت. لقد كنت هناك[1]

«أعتقد أن بإمكاننا فتح صفحةٍ جديدة معاً،» قال لي، وطبع قُبلةً على وجهي.

1- الكلمات مقتطفة من قصيدة أغنية نفسي للشاعر الأمريكي والت ويتمان - المترجم.

لقد فزت

لقد فزت. وكيف فزت؟ أوه، كان الفوز في طريقي، كان الأمر سهلاً – لا يستحق الذكر؛ لم أفعل شيئاً يُذكر.

وبعد أسبوعين عدنا للعيش معاً.

أبريل 2013

-1-

غمر كل زاويةٍ في شقتنا الجديدة شعورٌ من الرضا الكسول المتباطئ. أفرغنا أمتعتنا ورتبناها معاً، تراصفت كتبنا بعضها إلى جانب بعض ولكن دونما اختلاط، فالتغلغل المتبادل لا يزال بحاجة إلى وقت حتى بالنسبة لي. جلب معه ثلاثاً من قطع الزينة رتبها بجانب قطعي على حافة النافذة، وكانت عبارة عن تمثال حجري صغير على شكل فأرة وكشتبان وساعة جيب، وكانت جميعها جميلة ورقيقة ومشغولة بإتقان.

أشرت بإصبعي إليها وسألته دونما تفكير: «من أين أتت هذه الأشياء؟»

كان منشغلاً بإفراغ إحدى حقائبه، ومرّ وقتٌ طويلٌ قبل أن يجيبني في النهاية: «أعطاني إياها أحد الأصدقاء».

عرفت ما يعنيه ذلك، وابتعدت بخفّة عن القطع كما لو أنها لسعتني.

لم أعرف قط ما إن كانت إشارته إلى **فريجا** بقوله «أحد الأصدقاء» تعبّر عن اعتقاده بأنني أغبى من أفهم من يقصد أو لإحجامه عن نطق اسمها بصوتٍ مرتفع، كأنه إن فعل هذا سيفسح المجال لها بدخول منزلنا.

منذ أن تصالحنا لم نتحدث صراحةً قط عن انفصالنا، ولم نتطرق قط إلى الأمر سوى من زاويته اللطيفة المائعة المتعلقة بالاشتياق وافتقاد واحدنا للآخر. وتصرّفنا كلانا كأنّ حرباً لا مناص منها نشبت بيننا وتدخل القدر ليجمعنا من جديد.

وفي ذلك الموعد المسائي عند المتحف، سردت صراحةً كل إشارات الاستفهام الأساسية المُلحّة: هل انتهى كل شيء بينكما؟ هل رحلت؟ هل تحبني؟ وكانت الإجابات: نعم، نعم، نعم.

فتح فمه ليستفيض بالكلام فقبلته مرة أخرى، وهكذا فعلت في كلّ مرّة أوشكت فيها أي كلمةٍ خبيثة بالانزلاق منه.

اشترينا غطاء لحافٍ قطني أزرق وكسرولة حرارية للطبخ وبساطاً. ومن سوق يوم الأحد المخصص لبيع السلع المستعملة، اقتنينا لوحتين لكلابٍ رسمهما أحد الهواة، وبدت اللوحتان من مكان تعليقهما على الحائط في الحمام تعكسان مشهداً من الحرفية الخرقاء الجذابة التي توحي ببعض النكات التي نتشاركها أو بتاريخٍ لم نتشاركه في الحقيقة. في اللحظة التي كنا ننتقي فيها مكنسةً كهربائية وسلة مهملات، ارتجفت بشعورٍ من الإثارة لا يسعني وصفه سوى بالشهواني. شعرت بالزهو ورغبةٍ بالبكاء في كل مرّة فتحت فيها خزانة الملابس حيث علّق قطع ملابسه القليلة كالرهبان إلى جانب كومة فساتين الحفلات القديمة خاصتي وبلوزاتي اللماعة المبهرجة.

-2-

كانت تلك أول مرّةٍ في حياتي أعيش فيها مع رجلٍ أو أشارك رجلاً غرفة نوم. بدا الأمر غريباً، فليس من ترتيبٍ أو تنظيمٍ متفقٍ عليه يحدد ما سيفعله أو لن يفعله أحدنا للآخر. كيف عرف واحدنا كم مرّة يرغب الآخر بممارسة الجنس؟ وكيف قررنا من ينام من جهة النافذة؟ وكيف حدث مثلاً أن كنت أنا الشخص الذي سيطبخ لكلينا دون أي نقاشٍ مسبق؟ كيف وقعت مسؤولية شيء حيوي ويومي وأساسي مثل إعداد الطعام على عاتقي أنا وأصبح مسؤوليتي التي حملتُها عن طيب خاطرٍ لأجله، وهو أيضاً تنازل لي عنها طواعيةً؟

كل ذلك ترتب وفقاً للنتيجة المنطقية؛ فأنا كنت ماهرةً في الطبخ وهو ليس كذلك، وأنا التي كنت مضطرةً للاهتمام بوزني وليس هو، وأنا من امتلك حاسة التذوق بينما هو لم يمتلكها تماماً. وبكل الأحوال، فكرة الاعتماد على شخص آخر في طهي طعامي تزعجني للغاية. والأكثر من ذلك، تخيفني فكرة تناول الطعام حسب مزاج شخصٍ آخر، وتناول وجبةٍ لا تتوافق بالضرورة مع الخيارات الأخرى المتاحة في يومي.

وبالمقابل، لم يكن لديه مثل هذه التحفظات، فالطعام بالنسبة له ضرورة فقط ولم يكن يوليه اهتماماً، طالما أنّ الوجبات مستساغة وغير مزعجة صراحةً.

أما بالنسبة لي فقد كان الطعام محدداً بأمرين:

1) مدى استمتاعي به.

2) مدى تأثيره على وزني وشكل جسمي.

لم يكن **كياران** يهتم بأيٍ من ذلك، وتقديراته في كل الأمور مستمدة من

معايير أخلاقية بحتة؛ حيث كان يميل للفردانية بكل شيء. بمعنى أنه مثلاً كان يفضل تناول طبق كبير من الخضروات الورقية المطبوخة على العشاء يومياً لولا أن جسده الرجولي الضخم كان يتطلب أكثر من ذلك.

أما بالنسبة لي فكان موضوع الطعام أكثر تعقيداً وفوضوية ومصدراً للتوتر أيضاً، ولكنه مليء بالمتعة في نفس الوقت؛ فهو يغريك للانغماس فيه، ثمّ تتعفف عنه؛ إنه شيء تقاومه، وتقدمه وتدفنه.

تعلمت الطبخ في تلك الفترة من مراهقتي التي التزمت فيها بتزمت بتجويع ذاتي، وكان عمليةً مقدسةً تقريباً بالنسبة لي. وحتى ذلك الوقت لم يكن بوسعي سوى رفض أو إفساد ما يُقدم لي من طعام. فالشطائر قبعت متكورةً في أسفل الحقيبة المدرسية، والمعكرونة تحولت إلى قيء، وكنت أفوّت وجبات الإفطار وألفّ أفخاذ الدجاج بمناديل الحمّام وأرميها في دروج غرفة نومي إلى أن تفوح رائحة تعفّنها.

تغيّر كل شيء مع تعلمي فنون الطبخ. لم أعد تلك التلميذة المشاكسة التي ترفض تناول ما تحمله من طعام مثل الفتيات الصالحات. وإنما صرت أختار طعامي مما أطبخه، ولأنني اخترته بنفسي وعرفت بالضبط ما فيه، فقد استطعت تناوله. قطعت حبّات الفليفلة والجزر والفاصولياء الخضراء إلى شرائح وطهوتها بقليل من زيت الزيتون، وطهوت حبات البازلاء على البخار حتى تمزقت قشرتها وانفلقت نصفين واستمتعت بتناولها أمام التلفاز كأنني أتناول الفشار.

عندما انتقلنا للعيش معاً، كان وقت طويل قد مرّ منذ آخر مرّة أعددت فيها الطعام لنفسي بتلك الطريقة. هناك شيء ما انكسر بداخلي في مرحلة شبابي وعلى إثره سمحت لنفسي بالعودة لتناول الطعام بطريقة طبيعية واكتساب الوزن.

تجسد في خيانتي جسدي النحيل ألمٌ بليغ لم أستطع مواجهته تماماً، ولهذا أحجمتُ كليّاً عن النظر إلى الطعام مباشرةً. للبقاء على قيد الحياة توجب عليّ التوقف عن التعلّق بالشرائح المتفرّدة لتفاحةٍ وردية مُقسّمة في طبق، والإقلاع عن التفكير بأنها جميلة وإلا لم أكن لأتوقف عن التحديق

بها. توجب عليّ التحرر من الاعتقاد بأنّ فعل الأكل يؤثر بأي شكلٍ من الأشكال على جسدي لأنني لو لم أفعل ذلك لما كنت قادرةً على العودة لتناول الطعام من جديد.

بدأت أطبخ لكياران، وعاد مع مهارتي قدر من تلك القداسة، ولأنّها مكرّسة لشخصٍ آخر، وليس لي، فقد سمحت بها.

أجبرني العيش معه على معاملة نفسي بطريقة ما كنت لأستطيع أن أتعامل بها لو كنت وحيدةً.

خلال ساعات العمل، وكنت آنذاك أعمل موظفة إدارية في قسم الدخول في مشفى الأسنان، فضّلت قضاء استراحة الغداء على مكتبي لقراءة وصفات الطبخ وتدوينها ثم الاستقرار على واحدةٍ منها في النهاية.

وعند انتهاء ساعات العمل اعتدت العودة مشياً إلى المنزل والمرور قبل ذلك بمتجر البقالة لاختيار مكونات الوصفة، في المتجر ذاته الذي اعتدنا سابقاً شراء التفاح منه للنزهة في المدينة. تجولت في الأروقة المُنارة بأضواء لطيفة والمزدحمة بطريقة تبعث في النفس الفرح والإحساس بدفء العائلة، ولمست بيدي عبوات زيت الزيتون الباهظة الثمن وعلب الأعشاب البحرية المجففة والأنواع النادرة من العسل.

تجولت جانب ركن الأسماك وأنا أهجّئ أسماء مخلوقات لم أعرفها يوماً. ابتعت من الجزّار لحم غزال وعندما أعطاني اللفافة مربوطة برقّة بخيطٍ بنيّ، صُدمت بالسعر وابتلعت ريقي. انتقيت كل مكون من مكونات الوجبة بعناية وتباهٍ لتخيلي له وهو يتناولها.

لم يسبق لي أن تسوقت من ذلك المتجر، ولا حتى فكرت يوماً بفعل ذلك. كنت فيما سبق أعيش على الأصناف التي تحظى بالتخفيضات في متجر ليدل، وأضيف إليها ما يتوفر من أغذية معلّبة في خزانة المطبخ. ولكن كانت لديّ حياة وجب أن تكون جديدة آنذاك ولأجلها تسوقت أشياء فاخرة وباهظة الثمن وسط أشياء أخرى ابتغيتها.

استغرق الأمر مني وقتاً طويلاً قبل الشعور بالامتعاض من هذا الجزء من حياتنا، وكان تقريباً آخر شيءٍ تلاشى.

إلى جانب الجنس، كان طبخ الطعام ما قدمته لكياران كتعويضٍ لأصالحه في نهاية اليوم أيّاً كان ما حدث يومها.

لم يطلب أو يتوقع مني هذه التعويضات، فقد عرفت بغريزتي كيف أستخدمها. ففي الأيام التي يصدر مني ما يزعجه، تميّز تقديم الوجبات بطقوس لها طلاوتها المعقدة خلافاً لما هو معتاد.

وبعد ذلك، كنت أمارس الجنس معه إن استطعت ويصبح كل شيء على ما يرام. كان إن مارسنا الجنس، يسامحني حتى لو لم يكن راغباً بذلك.

-3-

ما زلت أذكر آخر وجبةٍ أعددتها له قبل أن يتغير كل شيءٍ للأفضل، وأتذكرها لمنظرها المغري حتى إنني التقطت لها صورة - حبات الربيان مع السلطعون مرتبةً في أقماعٍ وردية أنيقة فوق أوراق الخس، ومضافاً إليها عصير الليمون والفلفل الحار مع ملعقةٍ من الأفوكادو ورشة من السمسم الأسود. وما إن التقطت الصورة حتى أضاء هاتفي بمكالمةٍ واردة من رجلٍ آخر.

-4-

ثمّة وقتٌ شعرت فيه أننا تغلبنا على جميع الظروف البائسة التي سبقت حياتنا معاً تحت سقفٍ واحد، واليوم أدرك كم كان هذا الوقت قصيراً ولا وجود له على الأغلب.

كان ذلك قبل بدء الشجار الحقيقي، أيام كان أقسى ما قاله لي: «لماذا تتركين إسفنجة الجلي في الحوض بعد استعمالها؟ هل تريدين أن يصيبها العفن؟» بلهجة من التوبيخ الساخر، وهو يهز سبابته ويرشق الإسفنجة المتقاطرة ماءً نحوي عبر الغرفة.

وأنا أصرخ باحتجاج قائلةً: «نعم!» وأعيد رشقها باتجاهه، ثمّ أركض وأنا أصرخ عبر الصالة نحو غرفة النوم حيث أضحك وأنا أشعر به يتقدم بخطواتٍ عنيفة مثل خطوات الشخصية الشريرة في أفلام الرسوم المتحركة، ويصل أخيراً ليدفع الباب وينقضّ عليّ ويحملني بخفّة كما لو أنه يحمل وسادة، ثم يلقي بي على السرير ويدغدغني، ونقضي الوقت ننطوي ونتلوى معاً حتى تنقطع أنفاسنا بعدها تتلامس أنوفنا ونغرق في نوم عميق بذات الوضعية.

أخذنا غفوات القيلولة معاً دوماً، وكثيراً ما اندسسنا في سريرنا المتجمد متدثرين بطبقاتٍ من الألبسة الصوفية. كانت شقتنا قديمة والأسقف فيها عالية، وجهاز التدفئة بالكاد ينفث دفقات هزيلة من الحرارة دون صنع أي فارق. انسابت قطرات الماء على الجدران، وراحت لطخةٌ سوداء عبر سقف الحمام تتمدد معلنةً تهديداتها.

بمجرد انتهائنا من تناول الطعام وتأجيل **كياران** ما تبقى لديه من أعمال جلبها معه لإنجازها في المنزل لوقتٍ آخر، كنا غالباً نتجه مباشرةً إلى السرير، حيث نرتدي طبقاتٍ مضحكة في تنوعها وألوانها من الكنزات الحرارية

والمنامات والسراويل القطنية القديمة ونضحك على مناظرنا، ثمّ نختفي تحت الأغطية ونتابع برامج التحقيق البوليسي وأفلام الرعب.

لقد عشت من أجل هذا الجزء من اليوم، من أجل تلك اللحظات التي كنا فيها كلانا نرتجف بهدوء، نستعجل الدفء بحك أطرافنا بعضها ببعض، وواحدنا يتشبث بقوةٍ بالآخر. في تلك اللحظة التي انسللنا فيها من الجو المتجمد تاركين مجريات اليوم خلفنا لندخل مخدعنا الناعم الوثير حيث نشعر أننا وحدنا في كل هذا العالم.

طبعت قبلاتي على أجفانه الخافقة حيث تتشابك الأوردة بوضوح، وبعثت الدفء في أرنبة أنفه بشفتيّ، ثم انطوى دانياً للأمام نحوي حتى التصقت جبهتانا، وأحسست بالقدسية تلفّ اتحادهما.

وإلى اليوم أفكر لو أنه كان بإمكاني قضاء كل حياتي هكذا دون تسلل أي شكلٍ آخر للحياة من المحيط، دون وجود أي أصدقاء أو عائلة، أو عمل، لو أنني نجحت في محاولتي في صهر العالم بأكمله من أجلنا، من أجل جسدين ملتهبين تلاحما في سريرٍ باردٍ – لكنت سعيدةً هناك، رغم كل شيء.

-5-

حلّ شهر مايو، وأضاءت خيوط الشمس الذهبية الواهنة شقتنا الجديدة في صباحات أيام العطل. وفيها كنا نستيقظ في وقت متأخر لنشرب القهوة معاً ونتثاءب معاً ونتجاذب أطراف الحديث حتى وقت الغداء حيث نحضر المعجنات والجرائد ونجلس متعانقين على الأريكة، نداعب بعضنا بعضاً دون تفكير بينما نقرأ.

خرجت مراتٍ قليلة للقاء أصدقائي، غالباً لشرب كأسٍ من النبيذ بعد العمل أو أحياناً لحضور فيلم في أيام الأحد، ولكن لم يأتِ أحد منهم لزيارتي في شقتنا. أحببت وجودهم بمعزل عن كل شيء، ولكن أسعدني الحفاظ على علاقتنا عن بعد من خلال بعض الرسائل الفردية والحضور المُجامل لحفلات أعياد الميلاد. كنت أشعر بالحرج أمامهم، وهم شعروا بالخجل أمامي. عرفت شعورهم تجاه **كياران** وتقبّلت أسبابهم. لم أشعر برغبةٍ في تكبد عناء المزيد من التذلل في محاولة إقناعهم بأنه ليس كما كانوا يعتقدون.

وفي الحقيقة لم يكن يهمني رأيهم به، وعدم اهتمام **كياران** أيضاً برأيهم زاد قراري قوةً.

فمثلاً في إحدى المرّات قال لي فور عودته من العمل: «رأيت صديقتك النحيلة **كريستينا**» وهزّ كتفيه بلا مبالاة وأردف: «أعتقد أنني لا أروق لها، أليس كذلك؟» كنت أضحك وأنا أرفع نظري للأعلى بتهكم وأطلق تعليقاً فضفاضاً أسترضيه به: «أوه، أنت تعرف كيف هي شخصيتها» وبعدها نسعد بشعورنا المشترك الآمن باتفاقنا ضد عدوٍ واحد.

كان هذا نفس الشعور الذي انتابني عندما تحدث وهو يستشيط غضباً عن زميلٍ وقح أو عن شخصٍ عرقل مروره في الشارع وسط الزحام. كنت

في البداية أميل لتهوين الأمر والتخفيف عنه، وذلك لاعتقادي أنه لا فائدة من مجابهة أو شتم أشخاص كهؤلاء، ولمَ كل هذا الانفعال والتوتر من هذه الانتهاكات الصغيرة التي، كالمطر، لا مفرّ من حدوثها؟ ولكن فيما بعد أدركت أنّ الوقوف في صفّه هو التصرّف الأسلم لي. إن وافقته في غضبه وأبديت تذمري من ذات الأشياء التي كان يتذمر منها سنصبح تلقائياً فريقاً واحداً، وعندها سيرى أنني لست من ذلك العالم الذي يثير غضبه وإنما من العالم الذي ينتمي إليه، العالم الصغير الذي يمكننا بناؤه معاً في منزلنا.

أثبتّ كفاءةً وجدارةً في مكان العمل، وذلك فقط لأنني كنت بحاجةٍ إلى عمل محترم يمكنني من الحفاظ على نمط الحياة الذي أردته مع **كياران** وليس من أجل طموحٍ تحرّقت لتحقيقه. أمضيت ساعات العمل اليومية بإنجاز مهامي دون أي مجهودٍ يُذكر، ولطالما أذهلتني هزالة العمل المُنجز في المكاتب. ففي كثير من الأحيان، احتجت ساعةً أو ساعتين على الأكثر من اليوم لإنجاز مهامي، وضبط جميع الأعمال المكلّفة بها قبل انتهاء الأسبوع. بعد فترةٍ وجيزة من بدء العمل في ذلك المكان، اكتشفت المهارات الخارقة للبشرية في إضاعة الوقت؛ فهذه المهارة التي ظننت نفسي متفرّدةً بها، كانت في الحقيقة شائعة في جميع أنحاء العالم؛ فالجميع يقرأ وصفات الطبخ، أو يتواصل مع أصدقائه عبر البريد الإلكتروني، أو يغيب لساعاتٍ يقضيها في شرب القهوة تحت مسمى اجتماعات عمل.

كانت حياتي الحقيقية تبدأ في اللحظة التي أفتح فيها باب شقتنا مساءً، حيث تغدو فسحة تتكثف فيها الألوان. حياةٌ جعلت كل ما هو خارجها معتماً ومنفصلاً، كأنني اتكلت عليها في ذلك، وعرفت أنها ستقوم به.

إعداد وجبةٍ شهيّة في نهاية يومٍ سيئ كفيلٌ بترميم الأمر برمته. أيّاً كانت الظروف والأحداث التي تمرّ بها، جميعها سوف تتلاشى إذا توفر لديك الوقت لعمل هذا الشيء الوحيد لنفسك، وهو لا يختلف عن تلك اللحظة التي تسترخي فيها ممسكاً بزجاجة مشروبٍ كحولي قوي إذا كنت سكّيراً. تلك اللحظة التي ترى فيها فُسحةً دانيةً يتوقف فيها واقعك الذي تعيش فيه عن الاستحواذ على اهتمامك وعن إيلامك.

علاقتي بأكملها مع **كياران** كانت على غرار ذلك - كانت ملاذاً، حالةً فردانية طاغية طمست كل اهتمام آخر. كانت بمنزلة الوجبة المفضلة وزجاجة النبيذ الفاخرة. وبقدر ما كنت قادرةً على الإمساك بزمام الأمور والحفاظ عليها، وطالما أننا كنا نعيش بانسجام، فقد بدت كل الأمور الأخرى مجرّد تفاصيل ثانوية.

-6-

أتعجب اليوم من اندفاعي المستميت لإنجاز أعمالٍ منزلية من أجله. أردت، أكثر من أي شيء، إهداءه أشياء من صنع يديّ وأردته أن يدرك كم كنت أتفانى في صون حياتنا ومدى السعادة في هذا التفاني.

كانت السعادة تغمرني حتى عندما أعددت له كعكةً أو وجبة طعامٍ رفض تناولها فيما بعد أو التهمها دون قول كلمة شكرٍ واحدة. وشعرت بالسعادة كلما غسلت له سترةً تفوح منها رائحة كريهة عجز عن شمّها مصدرها السجائر والتبغ. كنت سعيدة - كنت أبتسم، وأغني وأنا راكعةٌ على ركبتي لأفرك المرحاض. كانت رائحة المُبيّض قوية وحلوة وحارقة للخدوش الدامية في أصابعي وإبهاميّ حيث كنت أقضم اللحمية المتقرّنة بأسناني.

وضعت خططاً للوجبات التي سأعدها، وألصقتها على الثلاجة مع الكثير من القلوب والوجوه المبتسمة والنجوم التي خربشتها حول المُدخلات الأنيقة للوجبات المُقرّرة لأسابيع قادمة - لأشعر بالراحة لمعرفتي بأننا سوف نأكل سلطة كفتة لحم الضأن قبل شهر من اليوم المقرر لها، وبحلاوة الإنجاز في تحديد ما سنقوم به على المدى البعيد بكل دقّة.

أظنّ أنني أردت له أن يحتاجني دون أن يدرك حقيقةً أنني أنا الوحيدة التي كان يحتاجها بكل تأكيد. أردت له أن يعيش في عالم يحظى فيه بتلبية جميع احتياجاته مسبقاً. عالم لا يوجد فيه زرٌّ غير مثبت أو ياقة قميص أبيض لا توجد عليها بقع التعرّق البنية لحظة حاجته لارتدائه نظيفاً.

ولهذا لم أكن بحاجةٍ لأي كلمة شكر، ولم ألعن غياب المديح والإثناء على جهودي. كان لزاماً وجود بيئة حيوية فاعلة من حوله، بيئة لا يجد فيها سبباً للشعور بالقلق أو حتى محاولة ذلك، ويتوفر فيها كل ما يريد دونما أي اضطرار لطلبه.

من السهل التلاشي وسط الدوامة المستمرّة للأعمال المنزلية الضرورية للحفاظ على منزل نظيف ومرتب. النساء اللواتي كُنَّ يوماً مستقلّات تحبطهنّ فكرة أنهن لن يصبحن أكثر من مجرّد زوجات أو ربات منزل أو أمهات -مجرّد شخصيات تتحول فيها هويتهنّ إلى أمرٍ ثانوي أمام قدرتهن على تسهيل الحياة لشخصٍ آخر. ومع أنني لم أكن أمّاً، ولكن هذا الانكباب على فعل كل شيء من أجل شخصٍ آخر، من أجل رجلٍ واحدٍ بعينه- خلال تلك الأشهر المحمومة بالعاطفة التي عشناها معاً، بدا مثيراً وحميماً وعميقاً أيضاً.

وفي النهاية، أي شخصٍ مستقلٍ كنت أنا قبل ذلك؟ وأي هويةٍ كانت لي لأمحوها باعتزازي الجديد بنفسي كمدبرة منزل؟ لم أجد في ذاكرتي ولا حتى هوية واحدةً صامدةً كفاية لأعيش عليها بعد زوالها. لم يكن هناك أي هويةٍ حقيقية لأفتقدها. وهكذا تلاشيت بسلامٍ تام.

هل كان لديّ أي شعور، ولو إحساسٌ بسيط، بأنّ كل تلك الحيوية الديناميكية كانت مغلفةً بغبارٍ من السخرية؟ هل سهّل ذلك الانغماس في الحب؟ الفكرة المثيرة للسخرية عن نفسي كامرأةٍ تهرع لإحضار الخف وإعداد لحم الخنزير المُحمّر والمشروبات الباردة للرجل الطويل الضخم بمعطفه الذي تفوح منه رائحة المساء في الخارج ورائحة حياةٍ واقعية لم أكن جزءاً منها، كانت تتعارض على نحوٍ غير معقول أبداً مع نمط الحياة الذي كنت أعيشه من قبل.

لو فكرت بأن الزمان قد تغير كثيراً، وبأننا في النهاية كنا زوجين عصريين، أو لو فكرت بأنّ خنوعي يمكن إلغاؤه وإثارته حسب الواقع - أوه، لشعرت بالأسف على نفسي.

ولكنني أردته آنذاك - أذكر جيداً رغبتي به واشتهائي له؛ فكثيراً ما غادرت عملي باكراً في منتصف الأسبوع ليتسنى لي الوقت لإعداد ولائم فاخرة تزخر بعدة أصنافٍ من الطعام لأجعل حياته ملونةً بالإثارة، وكأنه يعيش في قلب مسرحية مفعمة بالحيوية من الأجواء العائلية الصاخبة لدرجة يصعبُ معها سماع أي شيء آخر. وفي الأوقات التي كنت أشعر فيها بالتعب

من كل هذا وتجتاحني رغبةٌ بالبكاء لحدوث خطأ ما؛ مثل انخماص كعكة السوفليه، أو انزلاق وعاء مني وانكساره -أو عندما كان يعرض مساعدته لي- كنت أشعر بالانزعاج منه حقاً. وفي تلك المرّات القليلة فقط كنت أقول له: «لا، ابقَ أنت في مكانك فقط، وأنا سأهتم بالأمر». وترجمة ذلك: أنت ابقَ في مكانك فقط، وأنا سأهتم بك.

إن كان قد أخذ شيئاً مني، فأنا أيضاً أخذت منه شيئاً. كنت أسلبه قدرته على استسهال العيش بدوني. لقد دفعت عنه الإيجار، وطهوت طعامه، وغسلت له ملابسه، وبالتالي قريباً سيأتي عليه وقتٌ لن يتذكر فيه كيف كان يسير في حياته من دوني، ويعجز حتى عن تخيل المضي في حياته بدوني من جديد.

-7-

في شهر يونيو، أي بعد مضيّ نحو ثلاثة أشهر على حياتنا معاً، وكان الطقس قد أصبح دافئاً، لاحظت أنني بتُ أنظر إلى النساء كما ينظر هو إليهنّ، كما لو أنني أسكن في داخله. في نزهتنا المعتادة في أرجاء دبلن أيام العطل، وفي تلك الفترة التي أجبرتنا فيها أشعة الشمس الدافئة على التخفيف من ملابسنا بدأت أرى النساء بعينيه.

لم يحدث يوماً أن شعرت بانجذابٍ لأي شيءٍ في النساء ولم يتخطَّ الأمر حدود الانتباه العابر، ولكنني في تلك الفترة صرت أحفظ وجوه بعضهن بذات الطريقة التي أحفظ بها وجه رجلٍ وسيم. في البداية اقتصر الأمر على الأوقات التي كنت فيها برفقته؛ حيث تمرّ بجانبنا فتاة جميلة فأنتبه إليها أولاً، ثمّ تتحول عيناي إلى عينيه لأرى كيف يراقبها. شعرت بالخيانة في كل مرّة فعل فيها ذلك، ولكن في نفس الوقت أحسست ببهجةٍ بداخلي لأنني عرفت من خلال ذلك أيهنّ قد تلفت انتباهه. واليوم لا يمكنني حتى تخيّل أي فائدةٍ اعتقدت أنني سأجنيها من هذه المعرفة.

وسريعاً تطور الأمر وأصبح يحدث عندما أكون وحدي أيضاً. فخلال رحلتي الصباحية إلى العمل سيراً على الأقدام وسط ضاحية بوتروبيلو وفوق جسر القناة حيث أصادف فتيات المكتب الأخريات وأفراد الطبقة الثرية يمارسون رياضة الهرولة، كانت عيناي غريزياً تلتقطان بدقة الوجوه التي قد يحبها، وبالأحرى (أنا وهو آنذاك) قد نحبها. لم يكن هناك أي صفات محددة من ناحية العرق أو اللون، ولكن إذا أردت تحديد المواصفات المشتركة بيننا لمن قد يلفت انتباهنا من الفتيات، فيمكنني القول إنهن كنّ ممن يتمتعن بملامح ناعمة رقيقة ويملن ربما لارتداء ملابس عصرية بسيطة، أو من يمتلكن عيوناً واسعة وحالمة تسرّب

إحساساً بالهشاشة والشهوانية، أو اللواتي تميّزن بشعرهن الطويل أو ببروز عظميّ الترقوة.

هؤلاء من لاحظتهن وحفظت أشكالهنّ، وشعرت مع تأملي لهن بوخزاتٍ من الشهوة الشبقة، مضافاً إليها ذات الشعور بالعجز الذي لطالما شعرت به تجاه أيّ شخصٍ رآه جذاباً ولم أكن أنا. ولم ينجُ أحدٌ من هلعي الجنوني هذا. ذات مرّة لمّح إلى أنه فقد عذريته قبل خمسة عشر عاماً من ذلك الوقت على يد فتاةٍ جميلة تُدعى **جيسيكا**. أذكر أنني ظللت لأسابيع بعدها أستشيط غضباً. **جيسيكا**. **جيسيكا**. علق الاسم بذهني، وتمنيت لو أستطيع العثور عليها باستخدام هذا الاسم الأول فقط لأمعن النظر فيها وأخضعها للمقارنة وأمنحها ترتيباً.

أثناء قيامي بتكديس صور أولئك النساء اللواتي رأيتهنّ في الشارع وحفظها في زاويةٍ ما في ذهني، كنت أحاول حماية نفسي قدر المستطاع. كنت أحاول إنشاء سجلٍ لكل تهديد يحوم حولنا ومن الأفضل تحضير نفسي لمواجهته. ولكن ذهني تطبّع بذهنه، وغدوت راغبةً بأولئك النسوة تماماً كرغبته بهنّ. وبالتالي كانت الرغبة التي تأملتهنّ من خلالها خاملةً وعتيدةً كما كانت رغبته، وراحت أفكاري تجنح باتجاههن بطريقة اقتحامية واستقصائية عزوتها لدافعه الذكوري للإيلاج.

بشكلٍ عام، كانت عيناي تحدقان فيهنّ لبعض الوقت، ثمّ تعودان إلى هدفهما الأساسي.

-8-

في أحد أيام السبت من شهر يوليو فتح إرهابيٌ متطرف النار على ثلاثة أشخاصٍ في مدينة **مالمو**. كان الإرهابي المُسلّح قد تخفّى بزيّ قسّ كاثوليكي، حيث توجه سيراً إلى حرم كنيسة القديس **بيتري**، حيث اعتاد موظفو المكاتب الجلوس لتناول غدائهم بين السيّاح في أيام الآحاد المشمسة وفتح النار عليهم.

كانت إحدى الضحايا الثلاث صبيّاً يابانياً في السابعة من عمره جاء مع والديه في رحلة استجمام، أما الضحيتان الأخريان فكانتا امرأتين سويديتين تعملان في الجوار.

كنت و**كياران** قد عدنا للتو بعد تناول القهوة وشراء الصحف عندما قرأ الخبر على المواقع الإخبارية. امتقع وجهه ونهض واقفاً وهو يتمتم كلماتٍ بصوتٍ غير مسموعٍ لي ويتحسس هاتفه، ثمّ خرج مسرعاً من الشقة إلى الردهة حيث سمعت وقع خطواته ثمّ صدى صوته المنخفض.

لم أتمكن من فهم ما يقوله، وجلست متسمّرةً في مكاني أحدق في قهوتي وقدميّ العاريتين مع غصّة حبست الأنفاس في صدري. أبقيت عينيّ مفتوحتين رغماً عنهما دون رمشةٍ واحدة أو دمعة، ولكن سرعان ما امتلأتا بالدموع. لقد عرفت السبب، وهو أنّ **فريجا** كانت تقطن في **مالمو** آنذاك.

قد يبدو ضرباً من الجنون أن تجتاح عقلي الغيرة الجنسية ولو لثوانٍ في تلك اللحظة، ناهيك عن حالة الشلل التي لفّت جسدي، ولكنني كنت غارقة في الحب آنذاك، والغارق في الحب مجنون. واليوم أشعر بالغبطة فقط لأنني على الأقل تخلصت من ذلك النوع من الجنون، بغض النظر عما خسرته معه.

عاد إلى الغرفة وبدا طبيعياً جداً ما عدا خديه المتوردين قليلاً، وبالتالي أدركت أنّها لم تُصب بأيّ أذى. جلس على الأريكة دون أن ينظر إليّ. وفتح الصحيفة بنفضةٍ سريعة كما يفعل رب أسرة على مائدة الإفطار في فيلم سينمائي. فتحت كيس المعجنات وأخرجتها منه ووضعتها في طبق، وأنا أعلم تماماً أنني لن أتناول شيئاً في ذلك اليوم. شعرت بداخلي بإحساسٍ لم أختبره منذ سنوات، شعور بالرغبة بمعاقبة شخصٍ من خلال الإضراب عن الطعام.

كانت هذه الرغبة نزعةً اعتيادية لديّ عندما كنت صغيرة، مجرّد أداة إلحاحٍ ضعيفة ولكن لا يمكن تجاهلها، استخدمتها ضد الأشخاص الذين ظلموني. وكنت غالباً أستخدمها ضد الفتية الذين لم يبادلوني الحب أو لم يحبوني بالطريقة الصحيحة، ولكني استخدمتها في نفس الوقت ضد الأهل والمعلمين وكل من أخفق في تأييدي بالطريقة التي أردتها، وطبعاً كنت أعلم أنها لا ترقى إلى الرد المنطقي، لأنهم لن يعرفوا أبداً أنني مُضربة عن الطعام، وحتى إن عرفوا لن يدركوا أنهم السبب في ذلك.

فكرة التألّم سرّاً تجعل الشعور بالألم أفضل - لقد جعلتهم يعذبونني دون موافقتهم.

نزعت الأغطية عن كأسي قهوتنا وصببت الحليب في كلتيهما بذهنٍ شاردٍ غاب عنه أنّ **كياران** يشربها دون سكر. «مهلاً» تمتم معترضاً ومع إدراكي ما فعلته، التقطت الكأس الورقية وأطبقت عليها بكل قوتي فانسكب السائل الحارق على الطاولة حيث راح يتقاطر على حجره وحذائه. سرت رعشة من الرعب في كل جسدي وتجمعت في حنجرتي. صرخ قائلاً: «ما هذا بحق الجحيم؟» وقفز مبتعداً عن كرسيه وهو ينفض بنطاله للأسفل.

رحت أعتذر: «أنا آسفة، أنا آسفة» وكررتها مراراً، ثمّ سحبت منديلاً وهممت بمساعدته. نفض ساقه ناحيتي، لكن دون عنفٍ متعمد أو بقصد إيذائي، وإنما لإبعادي عنه بحركةٍ واحدة تماماً كما قد تفعل عندما تهشّ كلباً.

قال لي «ابتعدي عني فقط بحق الجحيم، هلا فعلت ذلك؟» ومشى إلى الحمام وأغلق الباب عليه.

ركعت على الأرض ونظفت القهوة المسكوبة عليها وغسلت الممسحة في الحوض. ثمّ وضعت ماءً في الغلاية لتسخينه ووضعه في دلو لأمسح الأرضية أيضاً. وما إن أطلقت الغلاية صافرتها، حتى سمعت وقع خطواته خارجاً من الشقة.

سرت إلى النافذة وألقيت نظرةً للأسفل تجاه الشارع ورأيته يخرج، وضوء الشمس يلمع على شعره الأشقر حتى لتشعر لوهلةٍ بأنّ ناراً تشتعل فيه. سار نحو القناة بخطواتٍ سريعة وواثقة كعادته. بقيت أراقبه إلى أن غاب عن النظر، ثم دخلت إلى غرفة نومنا، وفتحت حاسوبي ورحت أبحث عن **فريجا**.

-9-

ظهرت **فريجا** في واحدةٍ من الصور وقد عقدت أصابعها الطويلة وسط شعرها الأجعد القاتم، وكانت تنظر مباشرةً إلى آلة التصوير، أو إلى المصوّر ربما، بحماسةٍ ملتاعة. إنها تتمدد على كرسيٍ وتفتح ساقيها، كما لرجلٍ أن يفعل، في وضعية لا يمكن لامرأة أن تبدو فيها جميلةً إلا إن كانت رشيقةً ونحيلة. وفوقها تنسدل سترةٌ رجالية بيضاء تغطي عظامها البارزة وصدرها الصغير المثالي.

نقرة على صورةٍ أخرى.

في الصورة التالية، تظهر جالسةً على الرمال ساعة الغروب، ويداها تنغرسان في الرمل تصنعان الأشكال، وعيناها ترمقان المصوّر بنظرة جانبية مظللةٍ بجفنيها. وترتدي فستاناً أحمر بنقشة **البيزلي**[1] ينسدل عن إحدى كتفيها، وتنتعل حذاء كاوبوي (رعاة البقر). إنها تبتسم وتظهر أسنانها ناصعة البياض.

نقرةٌ أخرى.

وها هي في صورةٍ أخرى ترقص في زاوية حانة تلمع فيها أضواء أجهزة الموسيقى وآلة السجائر، رأسها يميل للخلف وعيناها مغمضتان وترتدي قميصاً أسود وبنطال جينز أسود على نمط اللباس الكلاسيكي لرعاة البقر الذي يناسب جسد فتاةٍ ممشوقة القوام. وتتدلى سيجارةٌ بين شفتيها - كأنها **باتي سميث**[2]، أو فتاةٌ جميلة تحديداً من فتيات آل **مانسون**[3].

نقرة أخرى، نقرة أخرى، نقرة أخرى.

1- نقشة البيزلي هو لفظ إنجليزي يُستخدم للإشارة إلى تصميم يعتمد على شكل «البتة»، وهو تصميم عضوي على شكل قطرة من أصول فارسية - المترجم

2- مغنية وكاتبة أمريكية - المترجم

3- . يعود الاسم لتشارلز مانسون، هو زعيم إجرامي وطائفي أمريكي. في منتصف عام 1967، شكّل ما أصبح يعرف باسم «عائلة مانسون» وكانت معظمها من النساء - المترجم

-10-

تصفّحت حسابات **فريجا** يومياً في الصباح وأنا في طريقي إلى المكتب أو أثناء استراحة الغداء وأنا أحتسي القهوة في الحديقة. سبرت صفحتها على **الفيس بوك** وعلى **انستغرام**، ولو تسنى لي الوقت لألقيت باسمها على محرك البحث **غوغل** وتتبعت النتائج حيث تأخذني بحثاً عن الأدلّة.

بحثت في صفحات أصدقائها الذين أشاروا إلى اسمها في الصور وذلك لأرى إن كانوا قد نشروا صوراً أخرى لها (وقد فعلوا)، ولأعرف الحانات والمطاعم التي ارتادوها معاً.

وكان أفضل وقتٍ لذلك هو مساء يوم الجمعة، حيث يخرج **كياران** وأنفرد بالمنزل وحدي. لم يكن يخرج وحده سوى يوم الجمعة للقاء أصدقائه الذين يعملون في مجال المعارض، فيذهبون لتناول البيتزا واحتساء المشروب والحديث عن العروض وللحديث بعضهم عن بعض.

كنت أذهب معه أحياناً في الفترة الأولى من حياتنا معاً، ولكن الجو الذكوري الطاغي على تلك الأمسيات كان أمراً لا يُحتمل. وفي أغلب المرّات كنت الأنثى الوحيدة في الجلسة حيث اعتدت على أسلوبهم في تجاهل حديثي أو مقاطعتي في الكلام. وبين الفينة والأخرى، كان يتذكر أحدهم أصول الأدب والتهذيب فيلتفت إليّ ويقول بحزمٍ احترافي: «وأنتِ ما رأيك؟» وكأن هذا كان الحديث الدائر بيننا. في إحدى المرّات مال أحدهم نحوي بعد مرور ساعةٍ لم أشارك فيها بكلمةٍ واحدة في نقاشهم حول مقالةٍ **لهال فوستر**، وسألني إن كنت قرأت له شيئاً.

«لا، من يكون هذا الشخص؟»

«واضع نظريات» أجابني بلطف.

«في الواقع، لست من عشاق النظريات، أنا أفضل أداء الأفعال بدلاً من ذلك» قلت له في محاولةٍ لإضحاكهم وبالفعل ضحك بعضهم بتثاقل.

في أعماقي كان ذلك الجزء المغتبط بمرافقته كتابع له مفعماً بالامتنان للهدوء والسكينة في الجلوس إلى جانبه بصمت، دون أي مطالب سوى أن أبدو جذابة وظريفة وودودة، ولكن سرعان ما تفاقم الشعور بالضجر وبالتالي فضّلت البقاء في المنزل.

ورغم الخوف المبهم من احتمال خيانته لي، فإنني أصبحت أنتظر ليالي الجمعة تلك. فقد كانت تلك الأوقات الوحيدة في الأسبوع التي أكون فيها وحدي. كانت قبل ذلك فكرة بقائي وحدي حتى لو لساعةٍ أو ساعتين تزعجني، ولكن بعدها أصبحت ملازمةً لكياران طوال الوقت تقريباً بعد العمل، ووحدها ليالي الجمعة تلك أفسحت لي المجال لمشاهدة صور فريجا وشرب الكحول.

كنت أدخل الشقة حوالي الساعة الخامسة أو السادسة حاملةً زجاجة نبيذ وعلبة سجائر، أفتح حاسوبي وأشغّل شيئاً تافهاً لمشاهدته؛ شيئاً سلساً فيه الكثير من الخدع المثيرة والجنسية، أو برنامج تلفزيون الواقع الذي تلعب بطولته ثلّة من المراهقين الشُقر يحدقون في هواتفهم المحمولة.

أرتدي ثياب النوم، وهي ذاتها؛ بنطال كياران القطني الرث القديم مع قميص، ثمّ أجلس متكورةً في زاوية الأريكة. أملأ لنفسي كأس نبيذ وأشعل سيجارتي الأولى وآخذ سحبةً منها وأنفث الدخان، وأشعر في تلك اللحظة بسلامٍ تامٍ. وبعدها أفتح هاتفي لأتفرّج على فريجا.

في كثير من الأحيان كنت أجد ذات المنشورات القديمة. لم تكن تحدّث صفحاتها بمنشورات جديدة كثيراً، ولهذا عدت في البحث إلى الوراء في الزمن لأسبر ما نشرته على مدى أربع سنوات. ولكنني لم أستطع قط استنفاد تلك الرغبة اللعينة في معاينتها بدقة وإقحام عينيّ بداخلها لأشعر بها تماماً كما شعر هو بها. فتحت مجموعات الصور وأمعنت النظر في كل واحدةٍ ظهر فيها كياران إلى جانبها.

عزمت في ذهني على النظر إلى تلك الصور بعين مراقبٍ خارجي.

دققت فيها أولاً، ثم انتقلت بأسرع ما يمكن لأنقر على صورةٍ تجمعني به في محاولةٍ لمقارنة الواحدة منا بالأخرى. هل كنا نليق بعضنا ببعض كما كان هو وهي؟ هل كنا نبدو رائعين كما كانا يبدوان؟ هل بدا مغرماً بها على نحوٍ لم يبدُ فيه معي كذلك؟

أمعنت النظر في صوري، لمعرفتي بأنّ **فريجا** كانت تراها بدورها. تتبعت أرشيف صوري لسنوات وسنواتٍ سابقة. حاولت رؤية نفسي بعينيها. حذفت تلك الصور غير الجذابة بانفعال محموم لإدراكي أنها ربما شاهدتها أصلاً. أقحمت نفسي في رأسها وأنا أتفرّج على صوري لأرى نفسي بعينيها، كما فعلت تماماً عندما أقحمت نفسي في رأس **كياران** لأرى بعينيه الفتيات اللواتي مررن بجانبنا في الشارع واعتقدت أن لديه رغبةً بالنوم معهن.

وبحلول الثامنة أو التاسعة مساءً، أكون قد وصلت إلى مرحلة الثمالة، أدخن السجائر واحدةً تلو الأخرى، والعرض التلفزيوني مستمر في بث ضجيجٍ خافتٍ في الخلفية، ومع معرفتي بأنّ **كياران** لن يعود للمنزل قبل أربع ساعات على الأقل، أخرج لشراء زجاجة نبيذٍ ثانية. أرتدي ملابسي وأسير في الطريق بعينين مرهقتين دامعتين، وأرمي الزجاجة الأولى الفارغة، وبالتالي سيجد زجاجةً واحدةً في اليوم التالي – لا بد أنه توقع أن أشرب في غيابه، وتحمّل مني فكرة الشرب حتى الثمالة لليلةٍ واحدةٍ في الأسبوع، ولكنه سيرتاع وينزعج قطعاً إن وجد زجاجتين، ولا بد أننا سنتجادل حينها، لذا ألقيت بها بمرحٍ لتتحطم في حاوية القمامة، ورأسي منتشٍ ومشعشع بالفكرة المطمئنة أنّ هناك زجاجة ثانية في طريقها إليّ.

أثينا 2019

قبل أن أقبّل أي فتىً في حياتي، مشيت يوماً لأميال وأميال مع **بيا**، صديقة أيام الطفولة الغالية جداً على قلبي، وأنا أقرأ لها قصائد عن الحب من كتابٍ ادّخرت لشرائه الكثير من مصروفي. كانت **بيا** تتمتع بجمالٍ صافٍ مثل **فريجا**، فهي سمراء برونزية ونحيلة بطبيعتها، ولها عينان زرقاوان واسعتان متباعدتان وأطرافٌ طويلة، وتميّزت بنعومتها وطيبتها. وحتى عندما أصبحنا في الثالثة عشرة من العمر، ظلّت **بيا** ألطف مني بكثير. ولهذا الأمر أسبابه؛ فالشخص الجميل جداً ليس لديه أي سبب ليكون قاسياً. وكم شعرت بالغيرة من جمالها ونظافتها ورائحة ثيابها الفوّاحة ومن حبّ الفتيَان لها، والأسلوب اللائق في انفصالهم عنها، بينما كنت دوماً أواجه الخيانة والمعاملة السيئة.

كم أحسد النساء اللواتي ينفصل عنهن شركاؤهن بلباقة، فأنا لم أحظَ يوماً بتلك الرفاهية.

-11-

بعد مرور بضعة أشهر لاحظت أنني بتُ أتجاهل ذلك الغلّ التافه الذي كان يبطن به الحكايات بدلاً من موافقته الرأي، كما كنت أفعل من قبل لأثبت تأييدي له. فتلك القصص جعلتني أشعر بالضجر واليأس.

ومع ذلك، ظللت أتفاعل معه بابتهاجٍ مفرط، فقد كنت في بعض الأحيان فرحة فعلاً ولا أشعر بأي انزعاج، وفي أحيانٍ أخرى تظاهرت بذلك، وتنامت الصعوبة في التفريق بينهما شيئاً فشيئاً.

بدا الأمر كأنه ابتلع كل السلبية الموجودة في الشقة، بينما أبقى أنا خائفةً من انفلات أي شيءٍ سلبيٍّ منّي خشية أن يخلّ بالتوازن.

بعد العشاء كنا نجلس على أريكتنا الجلدية الدبقة، وأستمع له وهو يدندن على غيتاره أو أتظاهر بالقراءة فيما يدون كتاباتٍ في دفاتره، وأراقبه بطرف عيني قلقةً لشكوكٍ تساورني بأنه يكتب قصائد عنها.

وإن نظر إلى هاتفه، تتسارع دقات قلبي وأشعر بالدماء تتدفق في جسدي الضعيف الواهن، وأعجز تماماً عن التفكير بأي شيءٍ آخر. كانت عيناي تتسمّران عند نقطةٍ فارغة في أعلى الصفحة ثم تنزلقان ببطءٍ نحوه وتتنقلان بصعوبةٍ يميناً ويساراً لتختلسا النظر إليه حتى يتشنج صدغي، وأنا أحاول معرفة ما إذا كانت هي من يتكلم معها.

رفعت يديّ إلى فمي وبدأت أقضم اللحميات المتشققة حول أصابعي مزيلةً معها خيوطاً رقيقة تُتمزع بانتظام من اللحم الغضّ فأقشرها وأطحنها بين أسناني وأبتلعها.

ثمّ يحين وقت الذهاب إلى السرير، المكان الذي تمنيت لو نبقى فيه طوال الوقت حيث كان يحسّ أخيراً أنه لي حقّاً، وحيث تطغى رائحة جسده اللطيفة ونعومته على كل فظاظته.

انتظرت بشهوةٍ بالغة مساءاتِ العطل الأسبوعية الخالية من أي خططٍ مسبقة، حيث رفاهية ممارسة الحب وتبادل الأحاديث الممتدة حتى المساء، إغلاق باب شقتنا الرئيسي مساء يوم الجمعة تاركين المشاكل في الخارج، لننعم بخصوصيتنا ونكون أنفسنا.

تخيّلت الأمر في ذهني بأن نستيقظ متكاسلين في وقت متأخر من اليوم، نتمطط على طول السرير وعرضه ونتهامس ونتلامس وندلّل بعضنا بعضاً حتى وقت الغداء. ثم نجلس لنقرأ على أريكتنا متلاصقين متكئين بعضنا على بعض، ونطلب وجبات جاهزة للعشاء ونشرب النبيذ، ومع حلول الظلام نعود إلى سريرنا.

حدث شيءٌ من هذا مرّةً، شيءٌ أوحى بإمكانية تحقيق ذلك.

مرّت عطل أسبوعية منحتنا فيها جدران شقتنا الشعور بالاحتواء الذي من المفترض أن يعني أننا كنا منسجمين معاً عندما يتركنا العالم وشأننا.

لقد حلّت تلك الأوقات لتثبت لي أنه لا ذنب يقع عليّ أو عليه في غرقي بمستنقع الانحدار والتعاسة، وإنما هو خطأ كل باقي العالم من حولي.

لولا تلك الأوقات (وأظنّ وقتاً واحداً منها كان سيفي بالهدف)، كيف لي أن أؤمن به لهذه الدرجة ولمدة طويلة جداً، أسبوعاً بعد أسبوع ولأشهر طويلة؟

-12-

التقى والدي **بكياران** مرّةً واحدة فقط، وذلك أثناء زيارة له إلى **دبلن** لحضور جنازة أحدهم. كان يواظب على حضور الجنائز رغم كونه على مشارف الستين من العمر. حضر جنائز جميع الأشخاص من معارف والديه ومن معارفه وجنائز زملائه القدماء الذين لم يتحدث إليهم منذ عقودٍ من الزمن.

لم يكن يذهب لحضور الجنائز بسبب ذلك الدافع القسري المتجهم الذي تراه أحياناً لدى الأشخاص الذين ليس لديهم الكثير من الأحداث في حياتهم، ولا بسبب الشعور المتردد بضرورة أداء واجب العزاء، وإنما ذهب بدافعٍ من التطوع السخيّ في تأدية الشعائر ورغبةٍ صادقةٍ في شهود الحدث. ولطالما كان والدي رجلاً طيباً في التعامل مع الناس، ولهذا كان دوماً محبوباً جداً، على ما أعتقد. كان يجعل الناس يشعرون بأنّ حياتهم مميزة وجديرة بالاهتمام، وهو أمرٌ، رغم صحته، نادراً ما يشعر به الناس العاديون.

بعد حضور الجنازة، التي كانت هذه المرّة لزميل مدرسةٍ جمعته به صداقةٌ قويةٌ أيام فتوته، شرب بضع كؤوس من الخمر، ومن ثمّ التقانا في حانة **نيرزي** في شارع **غرافتون**. كان ثملاً بعض الشيء، وهذا أمرٌ يمكنني معرفته فقط من الغبش المترقرق في عينيه.

أظهر والدي الكثير من الودّ وفيضاً من العاطفة **لكياران** الذي لاحظت أنه كان مخموراً قليلاً، وشعرت بالاطمئنان لذلك. كان يبذل جهده في الحديث، وبدت برودته المعتادة بطبيعته ضرباً من الاحترام لوالدي ومراعاةً لي.

كنت **وكياران** سعيدين بشكل ملحوظ في ذلك اليوم حيث تشابكت أيدينا واستند واحدنا إلى الآخر أثناء توجه والدي إلى الساقي لطلب المشروبات

لنا. لاحظت ارتسام علاماتٍ غير معتادة من الألفة على ملامح وجهه الصافي الوسيم أثناء تجاذبنا أطراف الحديث. سأله والدي عن عمله، فأجابه بدعابةٍ تحمل نوعاً من النقد الذاتي حول ما يقوم به من مراجعاتٍ وصفها بالسخيفة، ولكن مع توضيح ذكي بأهمية ما يقوم به.

«مؤخراً، طلب مني رئيس التحرير تلميع بعض المراجعات التي أنجزتها لأحد العروض -فهو على صداقة مع أصحاب العرض، وتعلم كيف تكون الأمور؟- ولكن عندما تختار هذا الطريق في حياتك المهنية، فإنك لا تعلم إلى أين سيوصلك في النهاية، أليس كذلك، يا **توماس**؟» ووالدي وافقه الرأي وهو يحبس ضحكته الخافتة كأنه يعرف فعلاً.

شعرت بسعادة غامرة للانطباع الذي أخذه والدي عنه.

في نهاية السهرة، التقطت إبهامي بين أسناني بذهنٍ شاردٍ، ورحت أقضم الظفر فأمسك **كياران** بمعصمي مبعداً يدي عن وجهي دون أن يقطع حديثه مع والدي. ما كنت لأعير هذه الحركة انتباهاً لو كنا وحدنا أو ربما اعتبرتها حركةً لطيفة وشعرت ببعض السرور معها، ولكن في تلك اللحظة التقت عيناي بعيني والدي، وأرخيت يديّ في حضني ثمّ دسستهما تحتي.

وفي نهاية اللقاء، عانقني والدي قبل ذهابه ليستقلّ الحافلة عائداً إلى **وترفورد**، وعبّر عن سعادته بلقاء **كياران**.

«بالمناسبة، هل أنتما هكذا دوماً؟ تتعاملان بغاية اللطف بعضكما مع بعض؟» سألنا، وطرت فرحاً بأننا أعطينا هذا الانطباع وتمكنا من فعل شيء كهذا، ولكنني بعد ذلك قرأت شيئاً آخر في تعابيره، رأيت ذلك الإلحاح اللطيف الذي كان يعتلي وجهه أيام كنت مراهقةً عندما كان يطلب مني مصارحته بما يدور في نفسي دون إرغامي على ذلك.

«نعم، هكذا دوماً» أجبته. منحني قُبلةً دافئةً جامدةً، انطبعت خطأً بين عيني وفمي، استدرت بعدها لأعود إلى **كياران** في الداخل.

أكتوبر 2013

-1-

ذهبنا إلى سينما **سكرين** القديمة في شارع **هاوكينز** لحضور فيلم مساء يوم السبت. كنت أنتظر الأسبوع بطوله لنخرج معاً في العطلة للتحلي بملابسي والذهاب لاحتساء المشروب بعد ذلك. في طريقنا إلى السينما، بدا **كياران** منشرحاً وحدثني بشغف، وسحب ساعده من أحد أكمام معطفه ولفّه حولي ليغمر كلينا في دفئه ونلتصق بعضنا ببعض كأننا في سباق ثلاثي الأرجل. أزعجنا الآخرين على الرصيف بمشيتنا تلك وتكلّفنا الابتسامات لهم.

كان الفيلم من نمط أفلام الإثارة الصاخبة، يدور حول تجارة المخدرات ومن بطولة **براد بيت**. وخلفنا كانت مجموعة من المراهقين الشباب يصرخون بين الفينة والأخرى، وينفجرون ضحكاً كلما حاول أحد إسكاتهم. شعرت بمزاج **كياران** ينقلب وبجسده يزداد توتراً وتصلّباً وتسمّراً. أمسكت بيده أدلكها لأستمد منها تطميناً فتركها ترتخي دافئةً وذاويةً وهامدةً تحت لمساتي الاستقصائية.

كانت معدتي تنقبض في كلّ مرّة يصدر فيها الصبية ضجيجاً، ولم أستطع منع نفسي من اختلاس النظر إلى **كياران** إلى أن همس لي بصوتٍ حاد قائلاً: «توقفي عن النظر إلي» وسحب يده من حضني. ثبتّ نظري للأمام مذعورةً وأنا أتساءل بيني وبين نفسي ما إن كان ينبغي أن أقترح عليه مغادرة المكان، ولكن الضجيج هدأ بعدها وظننت أنه ربما أصبح كل شيء على ما يرام ومن الممكن إنقاذ الموقف، إلا أنهم عادوا من جديد للصراخ مع كل مشهد لصدر البطلة العاري أو لكومةٍ من الكوكايين.

«هل نغيّر أماكننا؟» همست له، ولكنه تجاهلني.

جلست متسمّرةً في مكاني لساعةٍ كاملةٍ، أترقّب بخوفٍ كل ثانية تمرّ بانتظار موجة الصراخ التالية. وأخيراً، عندما بدأ الصبية يقفزون فوق مقاعدهم وصفوفهم، ويقذفون الطعام بعضهم على بعض، استدار **كياران** وانبرى لهم قائلاً: «هل يمكنكم إغلاق أفواهكم القميئة لو سمحتم؟» أغمضت عينيّ بقوة مع شروعهم بالاستهزاء به وترديد ما قاله مع مبالغةٍ في تقليد لكنته ونوباتٍ من الضحك الجنوني. وكالعادة، كان التعرّض للسخرية أكثر ما يثير غضب **كياران** ولا يمكنه احتماله أبداً. نهض واقفاً وغادر متخذاً منفذ الخروج المعاكس لجهتي، وبالتالي يتجنب إشراكي بالموقف فلا يضطر للإمساك بيدي وأخذي معه أو دفعي وتجاوزي. لحقت به جفلةً من صيحات الانتصار التي أطلقها الصبية.

وقف في الخارج يشعل سيجارة.

«أنا آسفة» قلت له.

«ما الذي تعتذرين عليه؟»

لم أكن أعرف.

«ما رأيك بأن نذهب لاحتساء كأسٍ من المشروب؟» سألته وأنا أدسّ ذراعي تحت معطفه وحول وسطه.

«اللعنة، إنها ليلة السبت، وستكون الآن جميع الأماكن مليئةً بالمعاتيه»

فاتني أن أذكر أنها كانت ليلة السبت ذاتها قبل حضور الفيلم حيث أبدى سعادته بالخروج لاحتساء المشروب، وتناقشنا مسبقاً وتحديداً ساعة العصر حول الحانة التي قد نذهب إليها.

«إذاً، ما رأيك بشراء بعض الأطعمة والنبيذ أو ما شابه، والذهاب إلى المنزل؟ وهناك نشاهد فيلماً أو نستمع لبعض الأسطوانات الموسيقية؟»

في تلك اللحظة، كان اليأس يستفحل في نفسي لدرجة أمكنني سماعه في صوتي.

«ما هذا الذي تقولينه؟ لقد تناولنا العشاء قبل الخروج من المنزل، لماذا تريدين أن تأكلي ثانيةً؟»

لم أكن أرغب بالأكل ولا كنت حتى في حاجةٍ ماسّة لاحتساء المشروب، ولكنني كنت أتطلع فقط لفعل أيّ شيءٍ معاً كي نستعيد مزاجنا الجيد، أي نشاطٍ يمنح ليلتنا شيئاً من رونقها ويمنحنا الفرصة بإنهائها في ممارسة الجنس، شيئاً يعيد الأمور إلى مجاريها ويجعل احتمالها ممكناً. مشينا إلى المنزل بصمت. لففت ذراعي حول ذراعه ولم يعترض على ذلك.

«هل أنت على ما يرام؟» سألته بعد بضع دقائق.

«أنا بخير» أجابني، واستمر بإشاحة نظره عني.

«حسناً! أحببت أن أتأكد فقط» قلت له.

في المنزل، بدّل ثيابه وارتدى ملابسه المريحة، ثم تناول كتاباً، وبدأ يلف سيجارة حشيش.

«هل أعدّ بعض الشاي؟» سألته.

«أعدّي ما تشائين» قال لي بنبرةٍ ودودةٍ إلى حدٍ ما وعاد إلى الداخل.

«إذاً، أترغب ببعضٍ منه؟»

«لا يهم»

«لن أعدّه إلا إن كنت ستشرب بعضاً منه»

«لماذا؟» سألني.

«هل أنت على ما يرام؟» سألته مجدداً.

«اللعنة، أنا بخير! يا إلهي!»

غادرته إلى المطبخ وأعددت الشاي.

«هل ضايقتك بأمرٍ ما؟» سألته بعد عدة دقائق أثناء انشغاله بالقراءة.

«ما الذي تتحدثين عنه؟»

«تبدو منزعجاً مني».

«لا، لست منزعجاً منكِ» قال لي دون أن يرفع عينيه عن الكتاب.

«لست منزعجاً منكِ ولا متضايقاً ولا أي شيء آخر»

«إذاً، لماذا لا تتحدث معي؟»

«ولماذا يجب أن أتحدث معك؟ إن لم أكن أتحدث معك فهذا لا يعني

بالضرورة أنني منزعج منك. هل يجب أن أتحدث معك ليلاً ونهاراً طوال الساعات اللعينة؟ نحن نعيش معاً وأنا هنا طوال الوقت، ولكن لا يمكنني التحدث معك كل الوقت فقط من أجل تسليتك. يا إلهي، أشعر أحياناً كأنني أعيش مع طفلةٍ صغيرة».

أطرقت رأسي مدركةً أنه كان على حق. وبدأت أبكي.

«أنا آسفة كياران. أنا حقاً آسفة»

«لماذا تبكين الآن؟ هذا خبل، وأنت تعلمين ذلك، صحيح؟ أنت تتباكين الآن دون أي سبب على الإطلاق. أنت تبكين لأنني لست منزعجاً منكِ».

«أنا آسفة، أنا آسفة، أعرف. ولكن أرجوك، لو سمحت رجاءً، أرجوك–»

ولأنني لم أكن أعلم كيف أتمم الجملة، وما الذي أتوسل من أجله، ظللت أكرر رجائي، وألحّ بطلبي مرّةً وثانيةً وثالثة.

-2-

اتصلت والدتي تسألني عن موعد عودتي ثانيةً للاحتفال بعيد ميلادي في شهر نوفمبر. اعتدت في كل عام زيارة منزل عائلتي وتناول العشاء مع والدي ووالدتي معاً، وهو طقس حافظا عليه منذ انفصالهما واعتادا خلاله على توجيه الانتقادات بعضهما لبعض دون تجريح، وبجو من السلام كبرت لأستمتع به وأشعر بالراحة فيه. كان من الرائع تذكر أنهما تواجدا معاً لمرّةٍ واحدة، خلافاً لحالهما الدائم من التواجد بنسختهما النمطية المتكررة لنفسيهما كشخصين في منتصف العمر.

وكان من الرائع أيضاً أن أشبع ذلك الجزء في أعماقي الذي يتطلع بشوقٍ إلى أن نكون نحن الثلاثة مترابطين. وهذا لم يكن مشهداً وددت لو يتحقق على نحوٍ ملموس بأي شكلٍ من الأشكال، وإنما تصورته بذات الطريقة المجرّدة التي تصورت فيها الإله والجنّة، أمرٌ تصوّري ولكنه مقدس. لم أكن أريد لوالدتي أن تترك **ستيفون** وتتوسل والدي لإعادتها، ولا أردت لهما أن يعودا للحياة معاً في ذات المنزل؛ وإنما أردت حالةً أفلاطونيةً مثالية ورقيقة لحياتنا كعائلة. كان هذا الأمر يخطر لي كلما فكرت بالموت، فإن حلّت ساعة موتي لا مفرّ، فإنني سأرغب بالجلوس معهما مرّةً أخرى لنتناول العشاء بأجواء عائلتنا الأصلية، وإن استطعت فعل ذلك لمرّةٍ واحدةٍ أخيرة، فسأشعر بروحي مليئةً بالسلام والعافية.

أخبرت والدتي بأنني غير متأكدة من قدرتي على المجيء. فقد كنت أفكر بأنني و**كياران** يجب أن نذهب في رحلةٍ ما معاً، وهو شيءٌ لم نفعله من قبل.

في إحدى الليالي، وبينما نحن مستلقيان في السرير، سألته: «ما رأيك بالذهاب في رحلةٍ إلى مكانٍ ما؟» كنت أنظر إليه بدلالٍ، بينما هو يقلّب صفحات مجلّةٍ في يده، وقد بدا مثيراً بصدره العاري ونظارته على عينيه وشعره الرطب.

«لا يوجد مال لذلك» قال لي بمرح. بدا لي في بعض الأحيان أنه يجد متعةً في حقيقة كونه لا يجني سوى القليل جداً من المال، وأنّ قدرته على العيش دون وسائل الراحة والرفاهية تفوق بدرجاتٍ قدرة أي شخصٍ آخر.

«حسناً، ليس من الضروري أن نسافر خارج البلاد» قلت له، وأنا ألفّ بضع شعيراتٍ في أسفل رقبته حول إصبعي وأفلتها برقَّة ثم أعود لألفها وأفلتها ثانيةً. انحنيت نحوه ودسست أنفي في ذلك التجويف الصغير عند عظم القصّ، ثم قلت له: «يمكننا الذهاب إلى أي مكان في إيرلندا لقضاء العطلة الأسبوعية»

توقف عن القراءة، وضحك من حركتي المتململة حول جسده.

«أتعلمين شيئاً، أنا أفكر جديّاً بضرورة رؤية المزيد من الأماكن في إيرلندا. من الغباء أن ينتقل المرء للإقامة في بلدٍ ويبقى في مكانٍ واحدٍ فيه طوال الوقت، صحيح؟ لم أرَ في هذا البلد سوى هذه المدينة والمدينة التي يقيم فيها والدي».

«نعم، صحيح!» أجبته وقد تملّكني الحماس، مع شعور بحرارة الإدراك المُسكِر لقرار قضاء عطلةٍ في مكانٍ بعيد.

ربما يكون في القطار بطحة مشروب، ربما أرتدي شيئاً مميزاً – أيمكنني أن أكون من الأشخاص الذين يرتدون قبعة؟

في اليوم التالي وخلال ساعات العمل، بحثت في مواقع التخفيضات وسبرت عروض الفنادق، وحجزت في النهاية غرفة مع فطور لليلتين في مدينة غالواي في العطلة الأسبوعية المصادفة ليوم عيد ميلادي. حزمت أشياء السباحة -كنت فخورةً بقدرتي على السباحة في المحيط في جميع أوقات السنة- وفستاناً أسود بياقةٍ منخفضة وأزرار لؤلؤية على الخصر. في القطار شعرت بقلبي يعتصر لرؤيتي مدى سعادة كياران.

«أحب القطارات» دمدم طوال الوقت، ملتقطاً بيدٍ طرف النافذة بحماس وهو يراقب المناظر، بينما يده الأخرى تمددت فوقي واستقرّت على ركبتي تشدّ عليها. حدقت به وعندما التفت إليّ، حَوَلَ عينيه ورسم ابتسامةً أعرض في إيماءة تهكمية على فرط سعادته. حللنا الكلمات المتقاطعة معاً، وشربنا

القهوة مع ألواح الشكولاتة، وقال لي: «لماذا تصبح القهوة لذيذة جداً لدى تناولها مع الحلويات؟»

في **غالواي**، كانت السمّاء صافيةً ورائعة رغم الطقس المتجمد. قلت له إنّ علينا الذهاب إلى الشاطئ طالما أنّ ضوء النهار لا يزال مشرقاً. وبينما كنا نسير على طول الكورنيش إلى **سالتهل**، نظرت إليه ورأيته أكثر سعادةً. تذكرت أنه لم يرَ الكثير من المعالم التي تمنح **إيرلندا** طابعها الخاص. قضى كل وقته وهو يعبر عن انزعاجه من الأشياء المدنية المبتذلة في **دبلن**، مع أنها أشياء حضرية عموماً وليست مرتبطة بمكان محدد.

«علينا زيارة أماكن جديدة دوماً» قال لي.

عند نهاية الممشى الساحلي، أنزلت حقيبتي عن ظهري وخلعت معطفي، بينما كان يضحك.

«من المؤكد أنك غير جادّة بالنزول إلى الماء، أليس كذلك؟»

رفعت حاجبيّ وتابعت خلع ثيابي، ولم يبق سوى البكيني الذي كنت أرتديه تحت ملابسي، بينما راح يمازحني بمحاولته لفّ سترته حول جسدي. كان الجو بارداً جداً بالفعل، ولو كنت وحدي لأقلعت عن الفكرة ولكن تشكيكه ألهمني شجاعة هستيرية ولا مجال للتراجع. وصدف مرور زوجين عجوزين كانا يتمشيان وأخذا ينظران إلي أيضاً. ضحكت على ما أثرته من انتباه وعلى وقع الرياح على جسدي العاري، ثمّ ركضت وقفزت.

عندما طفوت على سطح الماء، شهقت طلباً للهواء الذي شعرت بأنه لم يدخل ويتغلل في صدري إلى أن تباطأت دقات قلبي وعادت قليلاً إلى طبيعتها، ثمَ خُضت في الماء بحركة روتينية لبضع دقائق. رفعت عينيّ للأعلى فرأيته ينظر للأسفل نحوي مبتسماً، ثمَ صاح: «أحسنتِ! أحسنتِ!»

عندما تسلّقت الرصيف خارجةً من الماء، كان ينتظرني ليلفَّني بالمنشفة وبمعطفي. لعق المياه المالحة على أذني وهمس لي: «أنتِ جميلة».

وبعدها، استقللنا سيارة أجرة وذهبنا إلى الفندق الذي كان بعيداً عن المدينة أكثر مما توقعت، ولكن وجدناه في غاية الروعة لحظة وصولنا. قمنا بالاستحمام وارتدينا البرانس الفضفاضة من باب الفكاهة لبضع دقائق قبل

البدء بتبادل القُبل ونخلعها عنّا لنحتضن بعضنا بعضاً بقوة. وبينما تنسلّ يداي نحو الأسفل، أوقفني وقال: «لا، أريد توفيره لوقتٍ لاحق. أريد أن تكون رغبتك به جامحة طوال الليل».

وهنا شعرت بدوار في رأسي، عضضت على شفتي وأخذت نفساً عميقاً حاداً.

أعدّ للرحلة ثياباً جميلة، وشعرت بالإثارة أثناء مراقبته وهو يرتدي قميصاً ناعماً بلونٍ سماويٍ مع ربطة عنق بيضاء. بدا وسيماً للغاية وأنيقاً ومليئاً بالرجولة، ولكن مع كياسةٍ تكسر القلب لدرجة أنني رغبت بالتقاط صورةٍ له أو رسمه في لوحة أو أن أحوله إلى مجسّم أستعيض برؤيته طوال الليل عن الخروج للسهر. بدا كأنه مثالٌ للتفوّق مثل الشخصيات التي نشاهدها في الدعايات الترويجية لفكرةٍ عن الرجل.

اخترت اصطحابه إلى مطعم تديره إحدى صديقات **ليزا**، وهي امرأة تميّزت بسحرها المتلوّن الحاد لدرجةٍ تفوق الخيال، حتى إنني كنت أبذل جهداً لدى التحدث معها. وتفرّدت بإعدادها وتنظيمها لحفلات عشاءٍ عجّت بحضورٍ من أجمل الأشخاص الذين قد تراهم في حياتك، تُقام في الثكنات العسكرية القديمة المهجورة وعند الرخاخ الرطبة مستخدمةً فقط ما تحضره من مؤن مع فسحةٍ لا يزيد نصف قطرها عن خمسين قدماً لإعداد أطباقها. أخبرته عنها أثناء نزهتنا فقال: «أوه مهلاً، لقد سمعت عنها؛ فهي تعمل بالتعاون مع فنانٍ أجرينا معه لقاءً للمجلة في الشهر الفائت».

شعرت بالذكاء والزهو لكوني اخترت شيئاً ضمن دائرة اهتماماته بعفويةٍ تامة. على العشاء، أبدى إعجابه بالغرفة المتقشّفة وطاولاتها المتناثرة القليلة. شبهها بمطاعم **كوبنهاغن**، ولفرط سعادته التي طغت على تركيزه، التهم كل الأصناف المُقدّمة للتذوق. مع معرفتي بأنّ **كياران** لا يستطعم نكهة الأطباق بذات الولع الذي أستطعمه بها، فقد صوّبت قراري في اختيار المكان ليتسنى له على الأقل الاستمتاع بأشكال أطباقها المنمّقة بكدسٍ من الأوراق الخضراء الملفوفة بإبداعٍ وأصناف لا تتوقع تحويلها إلى مخلل، ولكن تراها مخللةً فعلاً، مع كائناتٍ بحرية صغيرة لم أسمع بها من قبل.

وفي الطريق لاحقاً، وقفنا مخمورين قليلاً بفعل الكوكتيل الكحولي

القوي الذي اخترنا احتساءه بنكهة أعشاب البحر. سألته، «والآن، ماذا تريدنا أن نفعل؟»

قال: «لنذهب لاحتساء المشروب، أريد الذهاب إلى حانة من الحانات القديمة العريقة ذات الحجرات المنزوية» أخذته إلى حانة **تيج كويلي**، حيث وقف خلفي بانتظار نادلٍ يأخذ طلبنا. لفّ ذراعه حول خصري، بينما يده الأخرى التهت بتمسيد فخذي من تحت فستاني حتى صرت أتوقّد برعونة. رأيته في تلك اللحظة بالضبط، كان رجلاً من **وترفورد**، دخلت معه في علاقةٍ لفترةٍ قصيرة في أواخر مراهقتي، ثمّ نمت معه بضع مرّات بأوقاتٍ متفرّقة خلال أعياد رأس السنة أو احتفالات الصيف، ووجدته في الحانة يعمل خلف البار. كان اسمه **ميشيل** وهو أكبر مني بقليل، شخص لطيف مولع بالعزف على الآلات الإيقاعية، ولم يكن له شغف كبير بالطعام ولكن كان يحب احتساء الكحول. تعرّفت عليه من خلال أصدقاء مشتركين وكان لطيفاً جداً معي.

«**ميشيل!**» قلت، ونفضت ساقي لا إرادياً لإبعاد يد **كياران** من تحت فستاني.

لم يتجاوز حديثنا الثلاثين ثانية، أخبرني فيها أنّه انتقل إلى **غالواي**، وأنّ المدينة صاخبة وهذا ما جعل الوقت يمرّ سريعاً بالنسبة له. وفوراً قلت له: أريد كأسين من **الغينيس**[1] لو سمحت. واستدرت للخلف وقد اتسعت ابتسامتي وتسارعت دقات قلبي فقد تملكني الخوف من مواجهة ما عرفت يقيناً أنني سوف أواجهه، وهو الدمار الذي أطاح بكل شيء خلال نصف الدقيقة تلك، وأنني لا بد سأقضي بقية السهرة في محاولة استعادة المزاج والمشاعر الحلوة وربما أفشل في ذلك. وقفنا صامتين بانتظار مشروباتنا وسط زحمة الزبائن المتدافعة، ثم خرجنا لاحتسائها ونحن متّكئان على حائط الحانة.

«من كان ذلك الشاب؟»

«صديق من **وترفورد**»

1- جعة جافّة ايرلندية – المترجم

«ولماذا ابتعدتِ عني عندما رأيتِه؟»

«لم ابتعد، لم...».

«بل ابتعدتِ. لقد ابتعدتِ عني بمجرّد أن رأيته. هل هو حبيب؟»

«لا، ليس هناك شيءٌ من هذا القبيل»

«إذاً، هل هو شخصٌ مارست الجنس معه يوماً؟»

اجتاحت الحماوة جسدي وبقيت صامتة دون جواب.

«وجهك ينضح احمراراً» قال بلكنةٍ ساخرة «هل مارستِ الجنس معه؟»

«لا أهمية لذلك، وهو ليس شخصاً مهمّاً بالنسبة لي»

«ما هذا الذي ليس له أهمية؟ وهل كان بلا أهمية عندما مارست الجنس معه؟»

رفعت عيني ونظرت إليه، وأنا أهزّ رأسي إيجاباً بصمت وحزنٍ بالغ.

«غير معقول».

« لا أعتقد أنّ هذه مشكلة كبيرة، يا **كياران**؛ فأنت أيضاً نمت مع أشخاصٍ غيري، أليس كذلك؟»

«نعم، ولكننا لم نلتقِ أحداً منهم صدفةً في أماكن عشوائية تماماً، فهم ليسوا كثيرين لدرجة أن يظهروا أمامنا من خلف البارات في مدنٍ مختلفة»

«لو سمحت»

«أسمح بماذا؟»

مرّت بضع دقائق احتسينا فيها بعضاً من شرابنا بصمتٍ خانق.

«أنا آسفة. هل يمكننا تجاهل الأمر وقضاء ليلة ممتعة؟»

«حسناً» قال لي ولكن دون أن ينظر إلي أو يتحدث معي. وعندما انتهينا من احتساء المشروب، قال إنه يريد العودة إلى الفندق. لم نتمكن من إيجاد سيارة أجرة تقلّنا ورحنا نقطع الطريق سيراً في رحلةٍ بدت دون نهاية اضطررنا خلالها لاجتياز حقولٍ مغطاةٍ بالطين الأسود الفاحم.

«لماذا هذا المكان اللعين بعيدٌ جداً؟ ألم يكن بإمكاننا المكوث في وسط المدينة؟» قال موجهاً سؤاله إلي، ولكني لم أحاول حتى تقديم الاعتذار مجدداً، لمعرفتي أنّ هذا سيزيد الأمور سوءاً.

وعندما وصلنا إلى الفندق وصعدنا إلى غرفتنا، خلع ثيابه وأطفأ الأضواء وأنا لا أزال أبدل ملابسي. اندسست في السرير بحذرٍ شديد ليجاور وجهي ظهره حيث مددت يدي إليه أتحسسه. لمست عقدتي كتفيه وداعبت رقبته، ثمّ اقتربت منه أكثر ولففت ذراعي حول وسطه تحت قميصه الداخلي.

«توقفي عن هذا» قال لي دون أن يأتي بحركة «اخلدي للنوم».

«لا يمكنني النوم وأنت غاضبٌ مني هكذا»

«لست غاضباً منكِ»

«إن كنت لست غاضباً، فلماذا تمنعني من لمسك؟»

«لا أريدك أن تلمسيني. وعدم رغبتي بذلك سبب كافٍ، أليس كذلك؟»

«طبعاً، ولكن دعنا نتحدث بالأمر ونصل إلى نتيجة ما»

لم يبدِ أي استجابة، وظلّت أنفاسه منتظمةً وعميقة.

«فقط أخبرني بما يجول في خاطرك وسيكون كل شيء على ما يرام» قلت له ولكن لم ألقَ جواباً.

أصابتني هذه الإهانة المتمثلة بتجاهله لي بصدمةٍ فجائية ودفعتني للتراجع، فأبعدت يديّ عنه وانسحبت إلى الجهة التي أنام فيها من السرير. بدأت أبكي بقلبٍ مليءٍ بمشاعر من تجريم الذات والحزن البالغ على خسارتي لرحلتنا. في البداية، سالت دموعي بصمتٍ، ولكن مع عدم قدرتي على التوقف، انهمرت بغزارةٍ وإجهاشٍ.

شعرت بأنه لا يزال صاحياً وخشيت أو ربما تمنيت لو أنه نهض ليؤنّبني على بكائي أو حتى ليصرخ في وجهي، ولكنه بقي متسمّراً في وضعيته تلك، متمدداً بجسده الطويل الساكن الهامد ومعرضاً بوجهه عني.

-3-

قضيت ليالي عديدة متكوّرةً على نفسي على أرضية الحمام. لم أحبس نفسي هناك لأحمي نفسي منه، ولكن فعلت ذلك في المرّات التي توسلت إليه فيها أن يسامحني، أن يجيب على أسئلتي، أن يعترف بوجودي، ولكنه لم يفعل. في بعض الأحيان، كان ذلك الوضع يدوم لساعات، ولمعاقبتنا كلينا على تلك الإهانة، كنت أحبس نفسي وأبدأ بتشطيب نفسي.

تخيلته يطرق على الباب ويقول لي: «ماذا تفعلين عندك في الداخل؟ أرجوكِ لا تؤذي نفسك».

تمنيت لو أنه فعل ما فعله حبيبٌ سابق مرّةً منذ سنوات عديدة، حيث أمسك بساعديّ المجرّحين المتقشّرين وضمهما بعضهما إلى بعض، وكانا واهنين وشاحبين مثل غصنين متخشبين، ونظر بلهفةٍ في عينيّ وقال: «أريدك أن تقطعي لي وعداً بأنكِ لن تفعلي هذا ثانيةً».

-4-

تمنيت حتى لو أنه يتصرف كما تصرّف موظف المتجر ذات مرّةً، حيث ابتعد عني مشمئزاً.

في تلك المرّة، كنت في الخامسة عشرة من العمر أو نحو ذلك، وخرجت يومها للتسوّق مع صديقاتي، وكانت قدرتي على تحمّل الألم بينهنّ جنونية، ولا تزال كذلك. لا شيء يؤثر بي، مهما حاولت.

كان الموظف يطوف بين الزبائن مروّجاً لنماذج من عطر **مارك جاكوب** (الذي أذكره لتعشّقه بعبق الجمال الساحر للأيام في تلك الفترة من حياتي، وارتباطه بأيقونات القَمَه النحيلات الطويلات اللواتي تأثرت بهنّ في شبابي وملأت صورهنّ جدران غرفتي، وبريقه المُنمّق الغامض الملوّع الذي يطغى على كل ما يلمسه: **ميشا بارتون، نيكول ريتشي**، المقاس صفر، حقائب **آي تي** الضخمة)، وعندما مرّ بنا، وافقت صديقاتي على عرضه دون تعليق أو حتى تركيز كامل، ومددن بعض أيديهنّ بينما أيديهن الأخرى تسبر بتثاقل معروضات أخرى.

فعلت الشيء ذاته مثلهن، مددت يدي كاشفةً عن معصمي دون تفكير، بينما عيناي تتفحصان فستاناً من الريش أثار إعجابي. وما إن همّ الرجل برشّ العطر على يدي، حتى اضطر لسحب كمّ بلوزتي للأعلى بلطف، ورشّ العطر بحركةٍ أتوماتيكية سريعة لم تمنحه الوقت للتوقف لحظة رؤيته للجروح المفتوحة التي كان يرشّ العطر فيها. شهق ونظر إليّ باشمئزازٍ خالٍ من اللباقة، فانتزعت ذراعي من يده وأرخيت الكمّ فوق الجراح التي راحت تحترق على نحوٍ مفزع. واصلت التسوق، ولكن مع شعورٍ بالوصمة إزاء ردة فعله المشمئزة.

-5-

ولكن **كياران** لم يبدِ أي ردّة فعل. لم يبدر عنه أي شيء، وأضحى من المستحيل بالنسبة لي إيذاء نفسي مع الغضب المفحم الذي اختبرته يوماً، وأصبحت لا إرادياً أكثر ضعفاً وأشدّ حرصاً على حماية ذاتي، ولم تعد لي ذات القدرة السابقة على إيذاء نفسي دون تفكير أو خوفٍ من الألم كلّما استحممت أو ارتديت ملابسي في قادم الأيام.

كل شيءٍ في داخلي كان يغلي ويتفجّر ويفور، بينما هو جالس ينظر من خلال النافذة على بعد عشرين قدماً مني ويدخن بهدوء مع كتابٍ استرخى في حضنه، غارقاً وسط أفقٍ لا نهاية له من السكوت والصمت. ضاق صدري بخوفٍ رهيب وأنا جاثمةٌ هناك ممسكةً بجسدي، جسدي الذي بدا لي المُذنب الأكبر والمُلامَ الأول على كل ما حدث لي. في تلك اللحظات، أدركت أنني لو استطعت أن أكون أصغر وأصغر، أكثر خفّةً وضآلةً، لو أنني استطعت أن أكون حسنة المظهر، لكان أحبني حبّاً جمّاً بكلّ ما تعنيه الكلمة، وأنّ أي شخص -وبالأحرى كل الأشخاص- سوف يقعون في حبي.

إدراك تلك المعرفة، التي بدت بديهيةً وواضحةً وضوح الحقائق العلمية وقوانين الطبيعة وملموسةً كحقيقة امتلاكي لجسد أثار جنوني، كانت تجيش في رأسي، وتملؤني بخيبة الأمل لقربها واستحالتها - فأنا أعلم عن تجربةٍ أنني حتى لو سعيت لتحقيق ذلك عملياً بمراقبة السعرات الحرارية والكاربوهيدرات وممارسة تمارين المعدة، لن أحصل على عظامٍ بارزةٍ كفاية أو ذلك المقاس المُستدق الذي يمكّنني من الوصول إلى المكانِ الذي صبوت إليه.

-6-

بشكلٍ عام، لم يكن الأمر يتعلق بانطواء الحياة مع **كياران** على أوقاتٍ حلوة أكثر من الأوقات المرّة، وأنني لهذا السبب بقيت ملتصقةً به.

فبالنسبة لي، ليس هناك شعورٌ أجمل من الاستيقاظ في منتصف الليل لأمدّ يدي في حالةٍ بين الحلم واليقظة لأقول: «أنا أحبك كثيراً، فيستدير هو نحوي بتأثير ذاكرةٍ عضلية ويقول وهو يغط في نومه: «وأنا أحبك أيضاً».

ليس هناك من عقّارٍ مخدرٍ أو صديقٍ أو صنف طعامٍ يمنحك حتى شعوراً قريباً من ذلك الشعور.

-7-

اعتبرني زملائي في العمل فتاةً غير عادية وتعاملوا معي بودٍ مشوبٍ بالارتياب، ولكنني كنت دوماً لطيفة ومحبوبة عموماً، أبتسم بحبور وأردّ التحيات، وأظهر اهتماماً بالمشاركة في حديث أحدهم حول أولاده، أو بتحمّل مهام إضافية لزملاء اضطروا للمغادرة باكراً.

عندما كنت أرفض تناول شيءٍ مما يُقدم لي من قطع الشوكولاتة والبسكويت المتدفقة باستمرار من حولي، كانوا يشيدون بجلادتي المذهلة ويوبخون أنفسهم على شراهتهم، وأنا أرسم ابتسامةً عريضةً على وجهي وأدوّر عينيّ بنوعٍ من استنكار الذات، وألتفت إلى شاشة حاسوبي (حيث أنسخ مقالاتٍ طويلة وألصقها في ملفاتٍ ورسائل إلكترونية لأقضي اليوم بطوله في قراءتها بينما أبدو لمن حولي غارقةً في العمل).

لم أعرف ماذا أقول لهم – لم أعرف كيف أشرح لهم أنني أفضل التغوط أمامهم على تناول الشوكولاتة أمامهم. كيف يمكنني شرح شيءٍ كهذا؛ هذا الخزي الذي سيلحق بي إن شاركت في حديث عن الطعام في المكتب؟

أو كيف أقول لهم إنني أفضل أن لا يعرف أحدٌ عني شيئاً أكثر من اسمي وعنوان سكني وأنني أؤدي عملي بشكلٍ جيد إلى حدٍ ما؟

لم أكن أريدهم في حياتي ولا أردت مجاملاتهم السمجة المألوفة جداً بالنسبة لي. كنت أخشى أن يعرفوا ماذا أكلت، أن يعرفوا ماذا كان يدور بداخلي، وذلك لأنهم كلما عرفوا أكثر عني، اضطررت لتقمص الدور الذي ألعبه بإخلاصٍ أكبر، وبالتالي أصبح من الصعب تفسير الاختلاف بين شخصيتي في المكتب وشخصيتي في المنزل.

-8-

بالنسبة للأصدقاء، كانت **كريستينا** تتصل أحياناً، ونلتقي مع ثلّة من الرفاق مرّة أو مرّتين في الشهر، وغالباً ما يكون الموعد بعد العمل مباشرةً حيث نقضي معاً ساعة أو ساعتين على الأكثر، ثمّ أستأذن بالمغادرة دون الاضطرار لتقديم التبريرات أو التصريح عن وجهتي، وهم لم يسألوا.

في إحدى المرّات اتصلت بي مساء يوم الجمعة، دون أي تخطيط مسبق للقاء، وكنت قد وصلت للتو من العمل وبدأت كالعادة بتجهيز زجاجة النبيذ وعلبة السجائر وحاسوبي وهاتفي لأستقرّ على أريكتي وأحتسي مشروبي وأتفرّج على صور **فريجا** وأتابع برنامجاً تلفزيونياً سخيفاً.

«بالله عليكِ، إنها مجرّد حفلة صغيرة ولكن سيكون الجميع حاضراً ويجب أن تأتي. منذ متى لم تخرجي وتستمتعي كما يجب؟»

منذ عامٍ أو ربما أكثر، لم أستمتع بسهرة طويلة مع أحد سوى **كياران**، وكلتانا نعرف ذلك. قالت: «تعالي إلى منزلي الآن، ويمكننا تجهيز أنفسنا واحتساء بعض المشروب ثم نخرج معاً. يجب أن تأتي بكل الأحوال، لأنّ **ليزا** جاءت من **برلين**، وهي في البلاد حالياً».

سماع ذلك الخبر والتفكير **بليزا** قلّب في نفسي أوجاعاً غامضة لذيذة.

شعرت كأنّ ما عشته مع **ليزا** كان عمراً آخر. تذكرت وجهها الأحمق المضحك والرائحة الترابية لسترتها الجلدية والاختيال المُحبب في مشيتها المتناقض جداً مع حجمها الصغير. تذكرت نمط حياتنا معاً حيث كان لكل منّا استقلاليتها، فقد قضينا أياماً كاملة مليئة بالسعادة دون أن نتحدث بعضنا مع بعض، حين أكون منشغلةً بالقراءة على الأريكة وهي ترسم على الطاولة، بينما السجائر تنتقل جيئة وذهاباً بين أيدينا. مع ذلك كان لدينا شعورٌ رائع

بالاكتفاء بالذات أيضاً. فالقوة المجتمعة لروحينا جعلت الصمت نفيساً، وحوّلت الغرف التي نتشاركها منزلاً. لقد بنينا معاً ما لم أستطع بناءه مع **كياران**.

ومع كل هذا، لم أكن أستطيع الخروج. لا يمكن أن يصل **كياران** إلى المنزل ولا يجدني، أو الاحتمال الأسوأ، أن يصل ويجدني ثملة.

«لا.. لا،» قلت **لكريستينا** بصوتٍ مرتجف، وسمعتها تنفث تنهيدة نفاد صبرها من الجهة الأخرى.

«ولكن فقط أخبريني ماذا ستفعلين، أريد أن أعرف ما الذي ستفعلينه في هذا الوقت»

أغمضت عينيّ وتنفست ببطء، وتركتها تشرح لي بالضبط كيف ستكون السهرة رغم معرفتي أصلاً بكل التفاصيل.

سوف يشربن النبيذ **والبورسيكو**[1] في شقة **كريستينا**، ثم يتزيّن ويذهبن إلى الحانة بحلول الساعة العاشرة، ويدخنّ سجائر **المالبورو** بنكهة النعناع ويحتسين الرم مع نشوقٍ من الكوكايين أو **جي أند تي**[2] أو المزيد من النبيذ الأبيض، ثمّ يذهبن إلى نادي العمال عند ناصية الشارع للبقاء هناك حتى ساعة الإغلاق، إن لم يكن مليئاً بالسفلة أو إن لم يكن فيه حبيب إحداهن السابق مع فتاةٍ جديدة. سوف ينفقن الكثير من المال على الكوكتيلات الكحولية السيئة.

وسوف يذهبن إلى متجر **دي فونتانيا** لتناول شرائح البيتزا المطهيّة بالطريقة المنزلية، وسيرفع العاملون صوت الموسيقى عالياً ليرقص الناس على إيقاعها كأنهم في حفلة صغيرة بملهى ليلي طوال الوقت، إلا إذا خرق أحدهم الأجواء وتصرّف برعونة.

وبعد ذلك، وإذا كان الجميع بكامل وعيهم ولم ينل منهم التعب بعد، سوف يعودون لإكمال تسليتهم في منزل واحد منهم، وهناك سيبتلعون الحبوب أو يستنشقون الكوكايين ويشربون المزيد من النبيذ ويستمعون للموسيقى ويدخنون ملايين السجائر، ثم يهوون على الأريكة محتضنين

1- نبيذ أبيض إيطالي - المترجم

2- مشروبات كحولية بنكهة الأعشاب - المترجم

بعضهم بعضاً وهم يضحكون أو يرقصون أو ربما يتبادلون القُبل، ويستمرّ بهم الحال هكذا حتى السادسة أو السابعة صباحاً على الأقل، وإذا ظلّ الحماس مشتعلاً سوف يتبرع أحدهم بالخروج إلى متجر قريب لشراء المزيد من المشروبات الكحولية ليعاودوا الشرب طوال النهار، ولكن بخلاف ذلك، سوف ينكبّون نائمين لبضع ساعات، ثمّ ينهضون عند الظهيرة ويخرجون متثاقلين لتناول الطعام بمظهرهم الرثّ وأعينهم المتعبة، وهم يضحكون ساخرين من تصرفاتهم الحمقاء ليلة أمس.

أنهت كلامها ونقرت برفق على زر إنهاء المكالمة.

-9-

في مساء يوم الإثنين، كنت أقشّر البطاطس فوق المجلى لأقطعها كرقائق وأشويها على فطيرةٍ قرأت وصفة إعدادها في الصحيفة خلال عطلة نهاية الأسبوع التي سيطر عليها الفتور على غير العادة. يومها انكفأ **كياران** عن الحديث معي وتجاهل كلماتي دون مبرر أو سبب أجادله فيه، ولكني لم أتأجج غضباً كما كنت من قبل ودخلت إلى غرفة نومنا لأقرأ. وفي صباح اليوم التالي، كان في غاية اللطف والدماثة، وفكرت للحظة بمدى عدم قدرتي على فهم مزاجه المتقلّب.

كنت متعبةً جداً في مساء يوم الإثنين ذاك، فساعات العمل كانت مليئةً أكثر من العادة بالاجتماعات والمحادثات الإلزامية، وشعرت بآلام في ظهري بسبب وضعية الجلوس الدائمة التي أنطوي فيها بتصلّب أمام شاشتي، فلا أنتبه لمرور الوقت إلى أن تحين ساعة المغادرة، وعندها فقط أشعر كأنّ عضلاتي تحولت إلى كتلةٍ واحدة متيّبسة وتحتاج حلحلةً لتنفصل بعضها عن بعض.

شعرت بألم ثقيل سرى في أسفل ظهري وأنا أقف إلى المجلى وثار غضبي فجأة. لم أعد أريد الوقوف وحدي في ذلك المكان لتحضير الطعام لشخصٍ آخر. وتحرّقت في أحشائي شهوة المدمن المتعطشة لتجربة شراء فطيرة من البيتزا المجمّدة مع زجاجة نبيذٍ والإقلاع عن التفكير بأي شخصٍ آخر غيري.

انتابتني رغبةٌ مفزعة بالتبلّد في ذلك المساء، وهو فعلٌ تنازلت عنه كثيراً فيما مضى دون تقديرٍ لنعمته.

إنه لغضبٌ غريب ينتابك مع الشعور بالامتعاض من فعل شيءٍ لم

يطلب منك أحد القيام به. وهو نوعٌ من الغضب العاجز الذي تولّده الأعمال المنزلية. كان يتراكم بداخلي حتى بتّ أشعر كأن الدماء في جسدي تتلوث ببطء مع تدفقها في عروقي.

ورحت ألعنه وألعن الشقة مع انزلاق كلّ شريحةٍ من شرائح حبة البطاطس، رغم أنني قطعت البطاطس وأنا أدرك تماماً أنني أنا من توسلت في وقت من الأوقات - جثوت على ركبتي وتوسلت حرفيّاً لأحظى بامتياز العيش معه في هذا المكان ووفقاً لهذا النمط تحديداً من الحياة، أنا من كنت متلهفةً جداً للأعمال المنزلية، وللتشابه المطمئن لروتين حياتنا المشترك، وللشعور المريح النابع من يقيني بأنني أنا من ينام معها كل ليلة.

لقد توسّلت من أجل تلك الوقفة وراء المجلى وتوسّلت من أجل وقوع حبة البطاطس القذرة تلك في قبضة يدي.

سمعت صوته يدخل الشقة وهو يتحدث على الهاتف، ثم سمعت خربشة انزلاق حقيبته عن ظهره وتعليق معطفه، ثمّ خطواته نحو غرفة النوم. توقفت عن التقشير لدقيقة ووقفت جامدة لأسمع صوته. لم أسمع كلماته بوضوح، ولكن عرفت من نبرة صوته أنه كان يتحدث مع **فريجا**.

كيف كانت تلك النبرة؟ لم تكن نبرةً معسولةً تماماً، ولو أنها كانت كذلك لكنت أكثر جرأةً لمعارضة محادثاتهم المتواترة نوعاً ما.

وفي توصيفٍ دقيق لها يمكن القول إنها كانت نبرةً حذرة ومتحفّظة وكتومة ولكنها انطوت على ميوعةٍ لا تحتمل اللبس في جلائها. لم أسمعها موجهةً سوى لي عدا عن **فريجا**، وانطوت على غياب صفة الاستسلام للحياء من مجاملاته المعسولة الجاهزة المعتادة التي يمكن إلقاؤها على مسامع أصحاب المعارض والفنانين والصحفيين حسب رغبته.

وقد آلمني ذلك وسحرني في آنٍ معاً، لأن سماعها كان ممتعاً للغاية.

كنت أسمعها بوضوح بالغ عندما لم تكن موجهةً لي، لأنني مع الإصغاء لها لم أستطع منع نفسي من تحليلها والشعور بالقلق منها واستنهاض معانٍ أكبر مما تحملها أو أن أبحث فيها عن لمسةٍ من السخرية. وبمعزلٍ عن مشاعري الخاصة هذه إزاءها، تمكنت من إدراك حقيقة وجودها وإدراك

سماتٍ أخرى في شخصية **كياران** غير سمات الجمود والتجهّم. وهذه الحقيقة أحزنتني لأنها دليلٌ على عجزي الشخصي عن إخراج تلك السمات وإظهارها، أو دليلٌ على ما هو أسوأ من ذلك؛ اختفاؤها أثناء التعامل معي قدر المستطاع.

حَرَصَ **كياران** على اقتضابه في الحديث عنها، وتجنّب أي تصرّف يوحي بأنها ذات أهمية. لقد نُفيت قسراً إلى ذات المنزلة التي يندرج فيها الكثير من أصدقائه المتواجدين في **الدنمارك** الذين يتحدث إليهم مرّةً كل بضعة أشهر. الشيء الوحيد الذي كان يهزّه ويدفعه للخروج عن منحاه الحيادي تجاهها، كان أخبار حياتها الجنسية الإباحية الماجنة. فكانت هي نفسها تلمح في حديثها إلى ممارستها الجنس مع شخص من معارفهما المشتركين، أو يأتي أحد أصدقائه ليحدثه ضاحكاً عن مآثرها القذرة المغوية - مثلاً النادي الذي طُردت منه إثر الإمساك بها جاثيةً على ركبتيها في حمام الرجال، أو المرّة التي مارست فيها الجنس مع شابٍ في حديقة، ثمّ نهضت واكتفت بنفض ثيابها لتذهب في موعدٍ مع رجلٍ آخر.

أرعد أمامي غضباً من أفعالها تلك، وتساءل بصوتٍ عالٍ لمَ لا يمكنها ضبط نفسها، ولماذا لا تحترم ذاتها.

لم أعرف قط ماذا أقول له، فقد تشتت تفكيري بين رغبتي بتأييده في اشمئزازه منها، وبين الإحساس المخيف بوجود رابطٍ لا يزال يعلّقه بها. وفوقها، أصابني الذهول من تخيّلها هناك في ذلك العالم تستمتع بحياةٍ صاخبةٍ ولكنها لا تزال مثاراً لعاطفته وافتتانه. وأنا هنا في مأمنٍ في المنزل مفيدةً مثل مغسلةً.

وقفت متسمّرةً بينما هما يتحادثان، وفي اللحظة التي بدأ فيها يضحك بصوتٍ خفيضٍ على شيءٍ ما قالته، ضغطت نصل السكين الحاد على إبهامي بكل قوتي وشرخته بلمحة. تركت دمائي تنزف فوق مصفاة البطاطس المقشّرة إلى أن خرج **كياران** من غرفة نومنا وأريته أنني أفسدت وجبة العشاء.

«لا بأس» قال لي وهو يجلس مع كتابٍ بيده «لنطلب شيئاً نأكله» تركته وعدت إلى الفوضى التي تسببت بها، وأنا أُغلي وأفور غضباً وأتحرّق بشدة لثوران غضبه مني.

-10-

لم يحب **كياران** أن أسكر، وهذه حقيقةٌ عرفتها دوماً وتقبلتها بذات الطريقة التي تقبلت بها فكرة أنه لا يحب البيض أو النثر الحديث - أو أياً من تلك الأشياء التي يكرهها. لم يكن للأمر أهمية إلا لاحقاً، ففي بداية علاقتنا وبداية عيشنا معاً، كانت غايتي الأساسية إسعاده والفوز بحبه. لم تكن هذه غايتي الوحيدة، ولكنها طغت على غيرها، لذا عندما كنت أشعر برغبةٍ باحتساء الكحول، ويبدي **كياران** عدم رغبته بذلك، تُعاد زجاجة المشروب الكحولي إلى مكانها بأناقة، دون أن يسبب ذلك أي إزعاجٍ لي.

في مساء أحد أيام أكتوبر ذاك، كنا نتسوق حاجيات منزلية من متجر **ليدل** القريب من بيتنا. لم يكن يحب المجيء معي، وغالباً ما يكون مزعجاً لي -من المؤكد أنّ شخصاً لا غرام له بالطعام لن يقدم رأياً مقنعاً إن طُلب منه تقييم بضعة أنواعٍ مختلفة من الخسّ- ورغم ذلك كنت أصرّ على مجيئه معي.

كنت أقول له: «سوف أشعر بالملل لوحدي إن لم تأتِ معي» ولكن المعنى الذي قصدته كان: «أريدك أن تشعر بالملل مثلي»

لم أفهم سبب تملّصه من القيام بذلك.

(يجب أن أتذكر، وأستمر بتذكر أنه لم يرغب يوماً بذلك، لم يرغب به قط، قط - ولكنني توسلت إليه.)

كانت خطة الوصفات التي سأعدها خلال الأسبوع مُسجّلةً على ورقةٍ معي، وكنا نتفقد المكونات المطلوبة عندما مررنا بجناح النبيذ وشعرت بلهفةٍ.

قلت له: «أرغب بشرب بعض النبيذ مع العشاء هل ترغب باحتساء بعض الجعة أو ما شابه؟»

أشحت بنظري عنه ورحت أتفحّص رفوف النبيذ، كي لا يتسنى له شجبي بنظرةٍ واحدةٍ من عينيه.

كنت أختبر شيئاً ما.

أردت حثّه على شرح فكرته بكلمات مسموعة.

«لا،» قال لي بنبرة يشوبها ارتباك المتفاجئ - فالوقت ليس عطلة ليتوقع مني طلب شيءٍ كهذا.

«لا تأخذي نبيذاً، فاليوم هو الأربعاء»

«لمَ لا؟» سألته وعيناي لا تزالان تنظران بعيداً عنه وأصابعي تتلمس الملصقات على زجاجات نبيذ **الريوخا**.

«لأنه.... مضرٌ لك» أجابني، وهو أيضاً يختبر شيئاً ما.

هذا كان بمنزلة انتصارٍ لي.

لم يجد نفسه من قبل، مضطراً للإفصاح صراحةً عن سبب كرهه للأمر، والآن وجد نفسه مرغماً على تقديم سببٍ محدد، سببٍ يمكن مناقشته وتصويبه.

التفت إليه لأقف قبالته ببراءة.

«ولكن لا يزعجك أنني أدخن؟»

وكياران مدَخّن أيضاً، حتى إنه ممن تنعتهم والدتي بصفة «المدخن الحقيقي»، أي لا يمكن ليوم أن يمرّ دون حلقة تدخين، ومن صنف المدخنين الذين يصيبهم التوتر على متن الطائرات. أمّا أنا ورغم أني كنت أدخن السجائر بشكلٍ متواصل في حالة السُكر ولكن لم يكن التدخين المتقطع يزعجني. كان تدخين السجائر بالنسبة لي مثل احتساء الكحول؛ سبيلاً للدخول في حالةٍ كاملة من التوقف عن التفكير والخروج من حلقة الحياة اليومية وإطلاق العنان للذات في نهاية اليوم.

«لماذا لا يبدو التدخين عادةً سيئةً، إن كان احتساء الكحول عادةً سيئةً؟» قلت له صراحةً، وأنا أستمتع بمشاهدة قلقه.

«إنه كذلك.. التدخين مضرٌ بصحتك، ولكن شرب الكحول له اختلاطاتٌ أخرى، ويمنعك من أداء عملكِ أيضاً»

«لن أسكر من نصف زجاجة نبيذ أو حتى زجاجة كاملة منه، سأكون على ما يرام. وأنت تعلم أنّ عملي سهل» قلت له.

«افعلي ما تشائين» قال منهياً الحديث بانزعاج، واتجه مسرعاً إلى

صناديق الدفع. أدركت أنني انتصرت واقتنصت شيئاً منه مع أنني سأدفع ثمن ذلك بصمت.

سكبت لنفسي كأساً وأنا أطبخ في المنزل، واحتسيته على مهلٍ بتغطرسٍ بينما هو متغاضٍ عني.

وعندما انتهينا من تناول العشاء تابعت احتساء النبيذ مع قراءة كتابي إلى أن حان وقت النوم. غسلت الزجاجة الفارغة بعناية ووضعتها في سلّة المهملات، وهو جالسٌ على الأريكة يراقبني.

اعتقدت أنّ هذه الحادثة ستضعف موقفه، فقد تجلى النفاق فيها من كونه صادراً عن شخصٍ يدخن طوال اليوم، ولكنها في النهاية جعلته أقوى. فقد قرر مضاعفة هجومه، فالمخاوف الصحية منحت كراهيته للكحول، غطاءً شرعياً لا محاجحة فيه.

أرسل لي بريداً إلكترونياً يحمل دراساتٍ عن نساءٍ شاباتٍ محترفات يعانين من تشمع الكبد، ومخططات بيانية مع أرقامٍ تعكس كمية السعرات الحرارية في كل نوع من أنواع الكحول. وفي المرّات التي وقفت فيها أمام المرآة أتحسس بعض الخطوط الناعمة حول عيني، كان يميل على كتفي ليشرح لي أنّ الكحول سيعجل ظهور علامات التقدم في السنّ، وينهي كلامه بقبلةٍ مرحة على رأسي.

ولم يمضِ وقت طويل حتى تمدد الموضوع ليشغل جوانب أخرى من حياتنا أيضاً.

تعمّد توبيخي في الأيام التي فضّلت فيها ركوب الباص بدلاً من المشي للوصول إلى العمل، وإن حدث وتذمرت من قطعة ثياب ضاقت عليّ أو بكيت بحرقةٍ على شكل جسمي، كان يشرح لي بهدوء وأنا في قمّة اكتئابي، كيف أن بإمكاني إنقاص وزني إن أصبحت نباتية - وبالمناسبة، **فريجا** كانت نباتية.

ذهب ذات مرّة إلى طبيب الأسنان لتركيب بعض الحشوات، وعاد إلى المنزل ليغرقنا بالنصائح حول فوائد تنظيف الأسنان بالخيط.

وفي صباح الأيام التي كان يحاول فيها إرغامي على استخدامه، كنت

أقول له «لا أريد استخدامه» مسرعةً بالإفلات من قبضته، في محاولةٍ للخروج من الشقة إلى العمل قبل تمكنه من انتعال حذائه واللحاق بي.

في إحدى المرّات، صرخ في وجهي: «لا يهمني إن فعلتِ ذلك أم لا، أريدك فقط أن تفهمي، أن تفهمي ما أقوله لكِ: يوماً ما سوف تتساقط أسنانك من فمك اللعين، وسيكون الذنب في ذلك ذنبكِ أنتِ وليس ذنبي أنا»

في صباح يوم أحدٍ بارد، وبينما كنا نستعد للخروج في جولة في المدينة وتناول الغداء ثمّ الذهاب إلى السينما، وقفنا بعضنا إلى جانب بعض، أنا أنظف أسناني بالفرشاة، وهو يحلق ذقنه. كنا في مزاجٍ جيد، وراح يغمزني مع كل مرّة التقت عينانا فيها على المرآة.

بصقت في المغسلة وهممت بشطف الرغوة، ولكنه أمسك بمعصمي وثبت يدي على الصنبور.

«هل ترين هذا؟» سألني.

«ما.. ماذا؟» صرخت مذعورةً.

حدّق في البصاق، ثمّ مدّ إصبعه وأخذ ينثره ويمده، فظهرت خيوط رفيعة حمراء لامعة تنساب فيه.

«دم» قال لي «هذا دم، هذا مرض. هذا ما يحدث عندما لا تنظفين أسنانك بالخيط. هل ترين الآن؟» ثمّ أحاط بيده رقبتي من الخلف، دون عنف، ودفع رأسي ببطء للأسفل نحو البصاق لأتمكن من رؤيته بوضوح لا يفصله عن أنفي سوى إنشٍ واحد، وشعرت بحنجرتي ترتفع.

أرأيتِ؟



-11-

منذ ذلك الوقت فصاعداً صرت أشرب أمامه أكثر، وبتّ في أغلب الليالي أحتسي زجاجة بيرة أو اثنتين قبل العشاء، ومع اقتراب العطلة الأسبوعية أنتقل للنبيذ.

نادراً ما وصلت إلى مرحلة الثمالة وهذا جزءٌ من الحبكة. ففي حال تخطيت الحدّ وسقطت مترنحةً أمامه وهو جالسٌ برصانةٍ في مكانه، فسأخسر اللعبة بالكامل. وسوف تثبت صحة وجهة نظره غير المعلنة. لكن إن استطعت الجمع بين شرب الكحول والحفاظ على اتزاني، فلن تكون لديه أي حجّةٍ للتعبير عن قرفه.

ثمّة أشياء تتعلق بي يحق له شرعاً انتقادها. فأنا لم أمارس الرياضة يوماً، ولياقتي معدومة تماماً كما كانت درجاتي صفراً في التربية الرياضية في المدرسة حين كنت صغيرة. وكان أن وبّخني على هذا الأمر (وهو الرياضي الذي يركض لأميالٍ ويتنقل بالدراجة في كل مكان)، لا أجد ردة فعلٍ مناسبة سوى النظر للأسفل والقول: «أعرف، أعرف».

ولكن احتساء الخمر أمرٌ مختلف، فلو أنني أزعجته بالأمر لدرجةٍ يثور فيها غضبه فسيجعله ذلك يبدو سخيفاً. وبكل الأحوال كنت أتصرف بطريقة فكاهية متزنة. كنت أجلس لأقرأ ملحقات صحيفة صنداي بعد إعداد وجبةٍ مغذيّة مبتكرة له، وأحمل بيدي كأساً أنيقة من النبيذ الجيد وليس من شيءٍ مقرفٍ أو معيبٍ في مظهري سوى احمرار وجنتيّ الذي يسببه الكحول والتحمّس الشهواني الخفيف لإثارة حنقه.

عدت إلى المنزل في مساء أحد الأيام لأجده يسكب زجاجات النبيذ في المجلى، وبدا مبتهجاً جداً. وعندما سألته عمّا يظن نفسه فاعلاً، أجابني بأنه يريد وضع قواعد جديدة في المنزل.

قال إنه يريد أن نتوقف عن التدخين، وذلك من أجل صحتنا ولأنه يترك رائحةً كريهةً في الشقة. وبما أنني كنت لا أدخّن إلا عندما أحتسي الكحول، فستكون القاعدة ببساطة السماح بالتدخين -وبالتالي شرب الكحول- ليلةً واحدة في الأسبوع فقط. ليلة واحدة فقط، والخيار لي في تحديدها.

«وماذا عنك؟» سألته.

«نعم، أنا أيضاً» أجابني، وضحكت بقهقهة على استعداده لفعل ذلك بنفسه.

قلت له: «حسناً، إنها فكرة جيدة يا حبيبي». ودنوت لأطبع قبلةً صغيرةً على خده غير الحليق، وأدغدغه بأنفي.

غالباً ما أعود إلى المنزل قبل **كياران** بساعةٍ أو ساعتين، لذا خطر لي أنني أستطيع احتساء المشروب قبل وصوله، واحتساء المزيد معه لدى عودته.

في الليلة المسموح فيها بالشرب مثلاً، يمكنني العودة إلى المنزل في الخامسة والنصف مع زجاجتين من النبيذ؛ فأحتسي الأولى وأتخلص من الزجاجة الفارغة، ليجدني عند وصوله جالسةً بانتظاره مع أول كأسٍ مسكوبة وأول سيجارةٍ مشتعلة.

ستكون الزجاجة الممتلئة تقريباً أمامي تنتظر وصوله معي مثبتةً أنّ كل شيء يجري حسب الاتفاق، ويمكنني بسهولة كبت انتشائي أمام شخصٍ هاوٍ في احتساء الكحول مثل **كياران**.

وهذا ما فعلته بالضبط. ولكن في الأيام التي تأخرت فيها بالعودة إلى المنزل، عشت صراعاً مع الوقت. أذكر مرّةً كيف ابتلعت دفعةً واحدة ما تبقى من زجاجة نبيذ **بروسيكو** الوردي، وانطلقت كالسهم، وأنا أنظر إلى الساعة، باتجاه حاوية القمامة للتخلص منها قبل ثوانٍ فقط من وصوله.

ولكن في الليل، وبعد الانتهاء من مشاهدة الأفلام أو التلفاز، واحتسائه لجعته وإجهازي على زجاجة النبيذ الثانية، واستعدادنا للذهاب للنوم، أشعر آنذاك أنّ الأمر يستحق كل ذلك الصراع. كنت أغمض عيني وأشعر بالسعادة تغمرني لانتصاري في الوصول إلى ذروة السُكر سرّاً وبصمت مع الإفلات من العقاب، ولإتقاني الدور في التحول من شخصيةٍ إلى أخرى خلال اليوم.

وبعد ذلك، بدأت في مساءات يوم السبت أرتب حياةً اجتماعية لنفسي.

كنت أقول له: «تريد **كريستينا** احتساء القهوة معي اليوم» أو «**ليزا** في **برلين** حالياً، لذا سنذهب لمشاهدة فيلم وتناول العشاء معاً» وهو بالكاد يرفع نظره عمّا يكتبه أو يرسمه أو عن التطبيق المنشغل بتعبئته.

ثمّة فكرة مزعجة دفعتني لهذا، فقد تذكرت أنه لم يمنعني من رؤية أصدقائي وإنما أنا من افترض ذلك أحياناً بيني وبين نفسي. لم يكن **كياران** يأبه لهم أصلاً. أنا من منعت نفسي.

كنت أجهز نفسي وأرتدي ملابس أنيقة جداً من الفساتين الناعمة المهفهفة أو البلوزات ذات الأزرار الناعمة، وأنسّق معها جزمةً قصيرة الساق وأعتمر قبعتي وأختار اللون الأحمر من أحمر الشفاه. تعمّدت وضع مكياجٍ كامل، مع أنني نادراً ما شغلت نفسي بذلك. ثمّ أمشي إلى حانةٍ صغيرة اسمها **تشي ماكس**، تقع أسفل **قلعة دبلن**.

عندما كانت **ليزا** تقطن في **دبلن** كنا نقصد تلك الحانة كثيراً، لنستمتع بما يقدمونه فيها من نبيذٍ منزلي ونتشارك وجبة حساء البصل والبطاطس المقلية، وندخّن الكثير من السجائر.

وفي الطريق إلى الحانة كنت أتوقف لشراء صحيفتين مليئتين بالملاحق لأقوم بترتيبها أمامي على الطاولة، ثمّ أجلس قرب المدفأة الكهربائية، فأخلع معطفي وأضع علبة سجائري بجانب الصحف، وألقي التحية بإيماءةٍ من رأسي على النُدل الذين حفظوا طلباتي. اعتدت الجلوس هناك طوال فترة العصر واحتساء النبيذ على مهلٍ مع القراءة وتدخين السجائر.

حظيت هناك بمعاملةٍ كأنني أحد المشاهير وذلك لكثرة ترددي على المكان وجلوسي وحيدةً، إضافةً لتكلّفي المفرط والواضح للظهور بغاية الجمال.

لم أعرف إن كان تعاملهم ذاك بدافعٍ من الإعجاب أم الشفقة، ولكن لم يكن ذلك يعنيني.

أصبح هذا النشاط أكثر جزءٍ أنتظره في أسبوعي.

لماذا لم أكن فعلاً ألتقي أصدقائي الذين ادّعيت أنني أذهب للقائهم؟ كان

الأمر متاحاً أمامي فقد كانوا لا يزالون يقطنون قريباً مني ولديهم دوماً الرغبة بلقائي إن طلبت.

لم يكن الأمر يتعلّق برغبتي بلقائهم أم لا وإنما برغبتي في عدم قول الحقيقة والإفصاح عن مكاني. أردت أن يكون هناك شيءٌ لا يعرفه عني.

-12-

بدأت العلاقة الجنسية معه تفتر ببطء، وتخفق في إمتاعي.

كان جسده لا يزال لافتاً للنظر وفاتناً للغاية، وكنت حتى ذلك الوقت أستطيع قضاء ساعاتٍ في تأمله، والذهول من الرشاقة التي جاهد كي ينالها وتألّقه مثل نجمٍ سينمائي. وأيضاً، كنت لا أزال حتى ذلك الحين قادرةً على نسيان كل شيءٍ لبرهة عندما كان يستلقي هناك ناعساً أو غافياً ويسمح لي بدفن وجهي أو تمريره على الزغب الناعم المثير لفخذيه الطويلين القويين. كان جسده لا يزال كما هو، لذيذاً وطيب الرائحة.

ولكن ثمّة شيئاً مصطنعاً فيه، شيئاً جعلني أشعر به كأنه دمية. وبتّ أبذل جهداً لأشعر بلمسته.

تلك المداعبات التي اعتاد القيام بها معي وكانت تذيبني في موجة ارتعاشاتٍ من الشعور الصافي، أضحت بالكاد تترك تأثيراً. كان من الغريب أن تمتد أصابعه الطويلة الجميلة لتداعب حلمتي بتمسيدات دائرية وتخفق في إثارة أي شعور لديّ، مع أنني في ذات اللحظة أتذكر بدقة كيف كانت يوماً تثير شهوتي حدّ الجنون.

كنت قادرةً على التظاهر بالانسجام فقد تعلّمت الحركات منذ وقت طويل، ولكنه صدمني مع عدم شعوره بالفرق عندما ارتجفت وشهقت متصنّعةً رعشة جماعٍ مزيفة. إذاً، على الرغم من كل ما عرفه، من الجائز أنّني كنت أتصنّع الحالة طوال الوقت، وشعرت بالعظمة وبالخوف من عزلتي في آنٍ واحد من استحالة كشفي ومعرفتي.

لم أكن أشعر بالرطوبة تتدفق مني إلا عندما كنت أهبط فوقه في وضعية الجنس الفموي، واضعةً يديه خلف رأسي مشجعةً إياه على استخدامي

للوصول إلى لذته. كنت أرفع عيني لأنظر إليه لأستجمع بعضاً مما شعرت به ذات مرّة؛ وطأة تلك السُخرية الذكورية، تلك الحيثيّة القديمة الصادقة.

أظهر قليلاً من الخشونة في بعض الأحيان، ولكنني أدركت بإحساسي أنه فعلها بدافع من الكياسة لمعرفته بأنني أحب ذلك.

في المرّة التي قلت له فيها إنني أحبّ من الرجل أن يكون خشناً معي، لم أستفض بالشرح في وصف ما أحبه في ذلك بالضبط أو سبب حبّي لذلك أو ما يثيرني فيه. لكن ولأنني ذكرت ذلك مرّة، اعتقد أنه عرف كل ما يمكن معرفته عني، وأنا شعرت بالخجل من إثارة الموضوع مرّةً ثانية. خجلت جداً من أن أقول: لا، هذا ليس كافياً.

أن أقول: أعرف أنك تحاول، ولكن في الحقيقة هذا أسوأ من ألا تفعل شيئاً، وأنا أعرف أنك تضع خطةً لتحتضنني بطريقةٍ ما، وأعرف أنك تتخذ قراراً وتنفذ ما تظنّ أنه سيعجبني.

أريدك أن تفعله عن رغبة وهذا هو السبيل الوحيد. أردت أن تكون كل حركةٍ نقوم بها عفويةً وطبيعية تماماً كحركة يدك اللاإرادية عندما تهشّ ذبابة، تماماً كأي حركة معجونة بكيانك الفيزيولوجي، أو أي شيءٍ من هذا القبيل.

شعرت في بعض الأحيان بكراهيتك لي، وذلك عندما كنت تراني أشرب الكحول أو أبكي أو أشطّب نفسي، ولكنك لا تكرهني بالطريقة الصحيحة.

أضحى اشمئزازك شيئاً أليفاً. لكن، أخشى أن يكون جفاؤك من صنف الجفاء الاعتيادي للعشير - وليس من نوع الجفاء المتوقد الشبق الذي اعتدت إظهاره لي عندما كنت ترخي عينيك للأسفل لتنظر لي، قبل أن أفوز بك.

أثينا 2019

قد يكون الجنس أكثر شيءٍ أخشى خسارته، فالجنس بالنسبة لي شيءٌ رائعٌ جداً، لأنه أحد الأشياء القليلة في مرحلة الشباب التي تستطيع إخراجك تماماً من ذاتك. إنّ له تفرّداً بحتاً لا يترك أي مجالٍ لتفكيرك الطبيعي. كل الأشياء التي أعشقها في حياتي -الجنس، الرومانسية، والمشروب- لها ذات التفرّد أيضاً.

أعلم أنّ هناك اعتباراً لما أريده. يجب أن يكون ما أرغب به بذات الأهمية التي تظنّها عندما تنظر إلي، ولكن جميع الأشياء التي تثيرني وتجعلني أميل للتواصل الجسدي، وأصبح عنيفةً وجامحةً، مثل رجل، لها علاقة بالأشياء التي يتمّ فعلها بي. ودوماً يتمُ فعل الأشياء لي. نادراً ما أفعل الأشياء بنفسي.

في بداية شبابي، عندما كنت لا أزال مقتنعة بأنني فتاةٌ بشعة، نظرت دوماً إلى جسدي على أنه من ذلك النوع الذي يرغب الرجال بالنوم معه وليس بالنظر إليه. وسعيت لأن يصبح هذا حقيقة من خلال عدم السماح لهم بالنظر إلي. مارست الحب في الغرف المظلمة، وحرصت بعد الممارسة على تغطية نفسي بحماقةٍ كالأطفال وبالفعل لم ينظر أحدٌ منهم إلي.

وذات مرّة أخبرت نظريتي هذه لرجلٍ اسمه **لوكا** التقيته خلال رحلةٍ إلى **برلين** وكنت آنذاك في السابعة عشرة من عمري. كان أكبر مني، ربما في أواسط العشرينات، وضمن المجموعة التي انضممت إليها لقضاء العطلة. لم تربطني به معرفة مسبقة كباقي أفراد المجموعة، لكن جذبتني ابتسامته المتغطرسة ورفضه غير المتكلّف للأشياء التي لم ترُقه سواءً كانت كتاباً أو شخصاً أو طعاماً. جلسنا ثملين على حافة الرصيف في **كروزبرغ** بعد

خروجنا من الحانة، وهناك حدثته عن مشاعري باندفاعٍ أحمق من الجدّية. أبدى تعاطفه وتفاعل مع حديثي بقول أشياء لطيفة ومريحة.

وفي وقتٍ لاحق، عندما طُردنا جميعاً من حانةٍ أخرى، وكانت صديقتنا **صوفي** تتحدث عن ممارستها لرياضة اليوغا، ومدى فائدتها في إكسابها جسدها الرشيق القوي عندها التفت **لوكا** إليّ وقال: «ربما عليكِ ممارسة اليوغا أيضاً» وابتسم بهدوء. أجفلتني قسوته اللامبالية كثيراً وبكيت حتى انهمرت دموعي في كوب الفودكا الورقي.

مشيت مترنحةً وابتعدت عن المجموعة هائمةً على وجهي إلى أن وجدت بقعةً خضراء من العشب، واستلقيت فوقها أتخبّط وسط أحزاني العبثية. اقتربت مني عجوزٌ ذاويةٌ ترتدي طبقاتٍ من المعاطف في فجر يوليو الدافئ، وجلست معي وعرضت عليّ مشاركتها مشروبها. «الحكاية فيها رجل؟» سألت، فأجبتها بإيماءةٍ برأسي رغم أن مشكلتي كانت مختلفة عما ظنّته. وفي الليلة التالية، وكما هو متوقع، نمت مع **لوكا**.

ارتكبت أخطاءً كهذه طوال الوقت، سعياً وراء تأكيداتٍ من أرذل الأشخاص، وبالتالي ما كنت أسعى إليه في أعماقي، كان تأكيدات لمخاوفي بدلاً من طردها. أثبت لي **لوكا** وآخرون غيره أنني خُلِقت فعلاً لأكون مجرّد شيءٍ للاستخدام وأداةً للمتعة - ولكن ليست للاستمتاع بالنظر إليها، ليس لها أن تكون جميلة أو طاهرةً.

وهكذا أصبح الجنس الشيء الذي يمكنني الاعتماد عليه، وكان تعبيراً واضحاً لهدفي. وتعلّمت جيداً أن أحب هذه الفكرة، لتعويض افتقاري للجمال - تعلّمت كيف أحبها وكيف أتكئ عليها لتجعل تجوالي في الأماكن التي ذهبت إليها وعشت فيها مليئةً بالأمان والمتعة.

أفلتت مني تلك المهارة في بعض الأحيان، دون سابق إنذار. وسط بعض الأزمات التي مررت بها، ازداد وزني كثيراً في زمن قياسي، لدرجة ضاقت فيه كل ثيابي، فكنت أمشي في الشارع مرتبكةً ومذعورةً. وعانيت في فتراتٍ متقاربة من هجمات حساسية، مجهولة السبب، تسببت بتهيج بشرة وجهي واندفاع بثورٍ حمراء قميئة حول عيني وفمي. لقد حمّلتني مظهر

شخصٍ مريضٍ أعجف، وجعلتني أبدو أكبر من سنّي بعشرين عاماً. في تلك الفترات، كان التجول في شوارع دبلن ضرباً من الانتحار؛ فجميع ألاعيبي الموثوقة تلاشت بلحظةٍ واحدة. أي رجلٍ في الشارع سيبدأ بمعاينة حجم جسدي، وما إن يصل إلى الوجه حتى ينفر مبتعداً. آلمني الأمر كثيراً لدرجة أني بالكاد اتخذت عملاً، وأحياناً لم أعمل قط، وفضلت الالتزام بالسرير إلى أن يتحسن مظهري وأبدو مليحةً إلى حدٍ ما، من جديد.

لا أعرف من ذا الذي يعيش دون جنس، ولا أعرف الوصول إلى الطرق التي تجلب لي الراحة والفرح، دون جنس. كل الأشياء مرتبطة بالجنس بشكلٍ او بآخر. جميع الأغاني التي أسمعها مرتبطة بشخصٍ ما تعلّقت به يوماً. الأفلام التي تأسر قلبي وتعتصره، تلك العيون الكبيرة المشرقة بروعة على كامل الشاشة؛ تنضح بحيوية معجزة، وذلك الشغف الذي يتدفق ويتدفق ولا ينتهي أبداً، لأنّ ترجيع اللقطات إلى نقطة البداية متاح دوماً.

والأهم من هذا كله، هو ذلك الشعور الذي يغلي في صدري مع النزول من طائرة الإيرباص في مدينة جديدة والتجول فيها بفستاني القصير ونظارتي الشمسية، مع دعـاءات مفعمة بالأمل لخوض مغامرة. وذلك الشعور بالظهور، والتجدد الحقيقي الذي يمنحني إياه جميع الأشخاص الذين يرمقونني بدافعٍ من الفضول أو الإعجاب؛ وتلك الأشياء المتبادلة تجعل الأجواء متاحةً لأكون الشخص الذي أريده، وأبدأ بخوض قصصٍ جديدة، وأعيش ألف حياة.

-13-

عندما كنت طفلةً في الثامنة أو التاسعة من عمري، أذكر أنني استيقظت مرّةً على حلمٍ مزعج في منتصف الليل، ونزلت إلى الطابق السفلي لأشرب كأس ماء. وعندما فتحت باب المطبخ المضاء بضوء الردهة الخافت، رأيت صديقة والدي غافيةً هناك على الطاولة مع سيجارةٍ في يدها.

انحلّ مئزرها مفتوحاً من الأعلى، واستطعت رؤية ثدييها الصغيرين مرتخيين فوق صدرها، وأصابني المشهد بالفزع.

وعبر السنوات التالية، كانت صورتها تعود إلى خيالي في أوقاتٍ غريبة. وكانت هناك عشرات الصور، أو نحو ذلك، من صور الطفولة المماثلة لتلك الصورة؛ صور لحظاتٍ لعشيقات والدي أو عشّاق أمي، علقت في ذهني لأنني كنت صغيرةً جداً على استيعابها، أو إدراك عفوية سياقها، (لا يمكنني مثلاً نسيان مشهد طاهي المعجنات الفرنسي خارجاً من دورة المياه مبتسماً، وقضيبه يتأرجح خارج سرواله الداخلي، وهو يهمس بكلماتٍ لا أذكرها.)

لم تكن صديقة والدي بشعة أو عجوزاً، ولم أشعر بالارتباك لترهلها؛ فالمرأة كانت جذابةً ورشيقة المظهر ومفعمةً بالحيوية في ساعات يقظتها، ولكن تلك الليلة بقيت عالقةً في ذهني فقط لأن ذلك المشهد علّمني أنّ عُري المرأة ليس مثيراً للشهوة دوماً، ولا حتى جذّاباً دوماً، وأنه في بعض الأحيان يبدو للناظر إليه مثيراً للشفقة.

-14-

في الفترة التي سبقت عيد الميلاد بقليل، طلب **كياران** ذات مساء استخدام حاسوبي لإرسال بعض الرسائل الإلكترونية، لأنه ترك حاسوبه في مقرّ عمله. وبعد فترة، اكتشفت أنه نسي تسجيل خروجٍ من بريده الإلكتروني على حاسوبي، وعندها تذكرت تلك المرّة التي وقفت فيها في مطبخه ساعة الفجر، وشعرت بأنّ ذلك حدث منذ وقتٍ بعيد، وكيف رحت أقرأ رسائل العشق الطويلة المليئة باليأس، الواردة من **فريجا**.

شعرت بالغثيان مع السقوط المفاجئ لموجةٍ من النفوذ والإمكانات بيدي. فالوقت كان هذه المرّة بيدي، وأمكنني الإطلاع على كل كلمةٍ قالها عني، أو قالها لها. أخيراً أصبح بمقدوري معرفة كيف حدث الصلح بينهما في فترة عيد الميلاد وكيف انفصلا فيما بعد، وماذا دار في رأسه عندما عاد لي، وما إن كان قد فعلها عن رغبةٍ حقاً.

لعدةِ أيامٍ تلت، رحت أغوص فيها في كل لحظةٍ فراغٍ استطعت انتهازها في العمل. ازداد غثياني. شعرت بنفسي أمتلئ بتفاصيله. تشبعت به حتى الاحتقان، مثل حشرةٍ احتقنت بالدماء.

ولكن هذا كله كان لا شيء، لا شيء على الإطلاق، فليس من شيء لم أكن أعرفه مسبقاً. كان هذا الاختراق أشد قذارةً من الأول، بسبب رتابته المطلقة. على الأقل آنذاك، كان هناك شيءٌ مروعٌ حكماً.

وحينها فقط شعرت بالملل. من المؤكد أنّ الرسائل تضمنت فقراتٍ قاسية وموجعة، فقرات لا يمكن تحملها، مثل محاولاتها المستفيضة في التقليل من شأني وانتقاد مظهري؛ وسعيه المحموم لطمأنتها بأنني كنت مجرّد فتاةٍ عابرة، لست مثلها أبداً، ولا شيء جدي بيننا.

وما أهمية ذلك؟ فكرت، وتابعت سحب الشاشة للأسفل.

كنت بحاجةٍ للمزيد، للمزيد من التجريح. أردت معرفة أنهما استمرّا في خداعي، وأنهما كانا يخططان للهرب معاً، وأنهما أرادا قتلي.

أردت قراءة نصوص طويلة عن كل عيبٍ في جسدي، عن كل سلوكٍ جعلني أبدو موضع سخرية، ومادةً مسلّية لحديثهما المليء بالشفقة عليّ.

كان كل ما قرأته عادياً ومحبطاً بالنسبة لي. فقد كانا مجرّد شخصين معتوهين يعيشان حالةً من فوضى، يدوران في حلقة مستمرّة من محاولات الإقناع ثمّ عدم الاقتناع أحدهما برأي الآخر حول بعض الأمور. لم يكونا مثل عاشقين فرّقهما القدر، وإنما مجرّد شخصين مترددين يحتاجان بعضهما إلى بعض، وغير قادرين على الابتعاد بعضهما عن بعض، لأنهما لم يفلحا في تصور نمط آخر للحياة.

لقد تخليت عن الكثير من الأشياء في حياتي لأكون جزءاً من هذه القصّة الدرامية، وأدركت أي جزءٍ منحطٍ كنته، وأدركت مدى رداءة النص.

استمررت في البحث، علّني أجد شيئاً، شيئاً أبرر فيه بحثي، إلى أن وصلت إلى مراسلاتٍ بينهما بتاريخٍ يعود إلى سنواتٍ سابقة، قبل معرفتي به. وفي إحداها وجدت أنه أرسل لها صورةً التقطها لكليهما في السرير، ظهر فيها جاثياً فوقها وممسكاً قضيبه بيده فوق فرجها العاري المكتنز. ثمّة قوة رهيبة أرغمتني على النظر إلى الصورة، وعلى الفور سجلت خروجاً من بريده وحذفته من حاسوبي.

في تلك الليلة حلمت بأنني هو وأمارس الجنس مع **فريجا**. ومع أنني حلمت من قبل بأنني نمت معها، أو بأنني أشاهده وهو يمارس الجنس معها، ولكن في هذه المرّة كنت هو نفسه، كنت مليئةً به، مُترعةً به، كان ذاك قضيبي القاسي الأرجواني الذي ينفرك على جسدها.

ومن ذلك الوقت لم أعد أشعر بالغيرة منها قط. ورغم أنّ الشعور ظلّ موجوداً في مكانٍ ما بداخلي، وأحسست كلما تحدث عنها أو رأيتها على صفحات الإنترنت، ولكنه كان مجرّد إحساسٍ لا إرادي.

كانا في طريقهما إلى الزوال، والخروج من حياتي وشخصيتي الحقيقية إلى الأبد.

بدا الأمر كما لو أنني كُنت أُضرَبُ بالسوط لسنوات، وفجأةً تبدّل لحمي بشيءٍ آخر، شيءٍ جامد لا حياة فيه. ورغم أن الألم ظلّ موجوداً ولكنه لم يكن يصيبني وإنما يصيب تمثالاً جامداً.

يناير 2014

-1-

اعتاد **كياران** زيارة والده **بيتر** مرّةً واحدة في العام بعد عيد الميلاد، وكان الأب يقطن بالقرب من جبال **ويكلاو**.

ترك هذا الأب عائلته في **الدانمارك** عندما كان **كياران** في السابعة من عمره. وبعدها أصبح كل بضع سنوات يظهر في **كوبنهاغن**، بشعرٍ أشعث وجسدٍ ذاوٍ وقلب حاقد ورأسٍ ثمل، ويصطحب ابنه للعشاء.

وكلما تقدم بالعمر عاماً، ازدادت كراهية **كياران** لخواء هذه اللفتة العرضية، و**لبيتر** نفسه. وربما استشعر **بيتر** ذلك البغض المتنامي في قلب الصبي الجميل الجالس أمامه، فازداد بدوره فظاظةً وتهكماً.

في يناير من عام 2014، رافقت **كياران** في زيارته لوالده، حيث انطلقنا من **وترفورد** بعد قضاء عيد الميلاد فيها. أخذنا القطار أولاً، ثمّ استقللنا حافلة، وبعدها سيارة أجرة حتى وصلنا إلى مكان سكنه. كان كوخاً مستأجراً لا يصلح للسكن، بارداً حدّ التجمّد وقذراً ومليئاً بالعفن.

كان قد استأجره وسكن فيه قبل عدّة سنواتٍ من زيارتنا، وبالتالي كان من الواضح أنّ قذارة المكان جزءٌ متأصلٌ من نمط حياته. لم يكن من بقعةٍ نظيفةٍ سوى مقهاه والموقد، ومنضدة اعتاد استخدامها لكتابة سيلٍ غير منتهٍ من الرسائل، التي لم يُنشر أيٌّ منها، للصحف حول الأعطال غير المقبولة في شبكة الطرق المحلية ونقص الخدمات. ولكنه تجاهل كل ما تبقى.

ثمّة شيءٌ لافتٌ في رؤية الرجل العجوز واقفاً أمام **كياران**. كانت ملامحه

لا تزال محتفظةً بوسامتها، رغم ما تحمله من قسوةٍ طاغية، مع بشرته المليئة بالبقع والمصبوغة بالكامل باللون الأحمر. بدا لي كأنه قبع العام بطوله في كهفه، يحشد كل طاقاته لتكون لديه القوة الكافية لتدمير ولده. لم تمرّ حركة دون أن يحمّلها شيئاً من المعنى ويسخر منه بمهارة الكوميديان المجنون المنفرد بالمسرح. راقبته وهو يفتعل إيماءاتٍ مقلّداً الطريقة الرقيقة التي يدخن فيها **كياران** سيجارةً، وقد استغرق في ذلك لوقتٍ طويل لدرجةٍ انتفخت فيها عروقه عند صدغيه بمنظرٍ مخيفٍ، واصطبغت وجنتاه ببقعٍ وردية.

قدم لنا عشاءً، وكان عبارة عن بطاطا مهروسة مع لفائف دجاج كييف، التي اشتراها جاهزةً من المتجر. تناولنا طعامنا ونحن نحمل الطبق على ركبنا الملتصقة بعضها ببعض أمام موقد النار. روى **كياران** بعض الحكايات السخيفة عن العمل، مثل حادثة نفاد النبيذ من إحدى صالات العرض وتوزيع علب قديمة من مشروب **درويد سيدر**، تم إحضارها من غرفةٍ سرّية، وبدا متوثباً في حديثه، حيث ثنى معصميه قليلاً وشبك يديه قليلاً لتأخذا شكل خيمة، وهذه عادته عندما يكون متحمساً.

وضع بيتر صحنه على الأرضية القذرة، ومال بمقعده إلى الأمام نحو النار، وراح يقلّب معصميه ويحني رأسه إلى ركبتيه، مفلتاً لسانه من فمه في حركةٍ بشعة، ثمّ قفز منتصباً وهو يضحك، وينظر إلي.

ولكن مع هذا، لم يبدِ **كياران** أي ردة فعل، بل ابتسم وراح يجرّ شوكته في البطاطس المهروسة. ولم يتوقف عن حديثه أيضاً. كان هذا ضرباً من مساومةٍ معهودةٍ بينهما. يستطيع والده أن ينفث كل سمومه وجنونه في وجهه، ولكن **كياران** لن يصرخ، لن يرفع صوته، ولن يثور. سوف يحتملها، وبتحمله هذا يمكنه معاقبة والده. كان لديه من القدرة الخارقة ما يكفي ليبقى هادئاً، كي لا يترك لوالده أي متنفس، ويبقى الألم مكبوتاً أبداً. هكذا عرفا بعضهما بعضاً في مرحلة النضج. لم يكن الرجلان متشابهين ظاهرياً. فقد كان **كياران** يشعر بالاشمئزاز من بيتر، وذلك لأن رائحة العفن كانت تفوح من ملابسه القديمة ومن جزمته المهترئة، ولأنّه اعتمد في طعامه على المعلبات والوجبات الجاهزة، ولأن الزجاجات الفارغة كانت متناثرة حول منزله، دون أي شعورٍ بالذلّ أو الخجل. ولكن في تلك الليلة، نظرت إليهما وهما يجلسان هناك

ويجهدان في تحمل بعضهما بعضاً تحت الضوء المرتعش، وأذهلني مدى تطابق تعابيرهما.

عقودٌ من الامتعاض والأشياء التي لم تُقل تراكمت وتكلّست، وتركتهما مشلولين في حالةٍ من الاحتقار المتكافئ. وآنذاك، لم يعد هناك أي مجال ليقولا إنهما أحبا بعضهما بعضاً يوماً، فالرجلان لم ينطقا بها يوماً، ولكنهما كانا عاجزين أيضاً عن التصريح بكراهيتهما. ربما أتى وقتٌ كان فيه **كياران** قادراً على قول: «أنا أكرهك، لأنك تركتني، لأنك تركتني عندما كنت طفلاً صغيراً،» ولكنّ تلك الفرصة إن وُجدت يوماً، فقد عفا عليها الزمان.

ولو أنّ **بيتر** انحنى يوماً ليضع عينه في عين ولده ويقول له إنه آسف، وإنه هو نفسه كان صغيراً يعاني من الضياع وعدم الاستقرار – لو أنه أراد يوماً مدّ يده للإمساك بيد **كياران**، تلك اليد التي كثيراً ما انشغلت بالخيوط المتناثرة من الكمّ عند لقاء والده، لو أنه أراد يوماً أخذ تلك اليد في راحته والقول: «عندما تركتك، لم أكن سعيداً قط. لم أشعر بطعم السعادة في حياتي منذ أن تركتك. ولكنني لم أعرف كيف أعتني بك، وليتني عرفت. أتمنى لو أنني عرفت آنذاك، وأتمنى لو أنني عرفت الآن».

لو أنه أراد لفّ ذراعه تحت ذراع **كياران** ومعانقته وقول: «أنا أبوك. لا يمكن لأي شيءٍ أن يغير هذه الحقيقة. فأنا لم أساهم فقط في صناعتك – هناك جزءٌ بداخلي صنعته أنت عندما وُلدت، وسيكون لك دوماً».

حتى لو أنه أراد فعل أي من ذلك – فقد فات الأوان.

عندما كان والدي صغيراً، توفي والد أحد زملائه في المدرسة، فشعرَ يقيناً أنّ والده سوف يلقى المصير ذاته قريباً. وصار في نهاية كل يوم، يجلس عند أسفل شارع المنزل، الذي كان في مقاطعةٍ بُنيت حديثاً للطبقة العاملة الوافدة للمدينة، منتظراً عودة والده من العمل. كان يبدد الوقت بقضم أظافر يديه الصغيرتين، وسحب أكمام سترته المدرسية المزعجة، وهو يصلي قلِقاً من أجل تلك اللحظة التي يظهر فيها الرجل الضخم عند زاوية الشارع، ويرسم ابتسامته العريضة الساحقة، ويحمله عائداً إلى المنزل.

عندما كنت في نفس المرحلة العمرية، لمرحلة والدي تلك، شاركت

بالغناء في كورال الكنيسة، وعشقت المقاطع المتفرّقة التي انفردت بغنائها، حتى كنت أغمض عيني بخشوعٍ أثناء ترنيم التراتيل المفضلة، بدافعٍ من إيماني آنذاك. وذات مساء، كنت أترقب حضور والدي لمشاهدتي، ويومها اخترت إلقاء فقرة شعر طويلة لوحدي، ولكن الرعب بدأ يملأ قلبي مع رؤية الحشود تتوافد، ولم أستطع رؤيته. رحت أبكي بصمت، وأنا أقف بين زملائي في الكورال، مع إبقاء عيني مفتوحتين قدر المستطاع، كي لا ينتبه الجمهور في الصالة لذلك. تساقطت دموعي على خديّ خلال فقرتي المنفردة، ثمّ غادر الجمهور، وعندها انخرطت بالبكاء، ورفعت قبضتي إلى عيني أضغطهما داخل محجريهما وأتكور أكثر على نفسي، وفكرت بأنه من المؤكد، حتماً، أنه مات.

وبعدها، ركض نحوي، فقد كان موجوداً طوال الوقت، ولكنه فقط تأخر بسبب حركة المرور. أخذني بين ذراعيه وهو يقول لي ويكرر أنه كان حاضراً طوال الوقت، حتى لو لم أستطع رؤيته.

كم كنت محظوظة لكون أعظم آلامي سببها الخوف من فقدان ما أملكه فعلاً، وليس المعاناة من الغياب الكامل، كما هو حال **كياران**.

-2-

تحدد موعد الحفل السنوي لموظفي الشركة في شهر مارس، وكنت أريد احتساء الكحول فيه، مع أنني قبلها حافظت على عادة احتساء الكحول باعتدال إلى حدٍ ما، وبدرجة لم يستطع **كياران** معها فعل أي شيء سوى إلقاء بعض النظرات السريعة الغاضبة.

كنت بحالٍ جيد لفترة طويلة سابقة. ولكن الآن، عاد إلي ذلك الشعور الذي كان يجتاحني على الدوام قبل التقائي به، تلك الحاجة الهائجة المتزايدة لقضاء ليلةٍ صاخبةٍ كبيرة، ويبدو أنها كانت تتصاعد سرّاً طوال الوقت.

قبل أيامٍ من موعد الحفل، اشتريت فستاناً جديداً، من قماشٍ رماديٍ لاصق، له عقدة في منتصفه، وفتحات تكشف الانحناء الناعم الأنيق بين خصري وأوراكي. واشتريت مساحيق تجميل جديدة، وجرّبتها عندما كنت وحدي في المنزل قبل عودته مساءً. خففت كثيراً من تناول الطعام، لكي أكون مفعمةً بالخفّة والنشاط.

في نادٍ مغمورٍ في شارع **هاركورت**، اجتمع أربعون موظفاً من الشركة، وأنا معهم، بعد العمل. جهزت نفسي في الحمامات مع بضع فتياتٍ أخريات، ومع ارتدائي لفستاني حدقن جميعهن بي وهلّلن بانفعال ما بين الإعجاب والتهكم. كان فستاني مبالغاً به. فقد كنت أرتدي فستاناً كهذا أيام كنت أذهب لحضور حفلةٍ لمنسق موسيقى مشهور، أو حفل لفرقة يعزف فيها شخصٌ أخطط للنوم معه. انسكب جسدي في فستانه مبرزاً تفاصيله بإفراط وإثارة مع الكعب العالي، والمكياج البرّاق الصارخ. استوعبت نظراتهم، متأملةً أنهم يحسدونني، راغبةً في الاستئثار بالمتعة القصيرة من الإحساس بأنني أفضل منهم.

في النادي احتسيت كثيراً من كؤوس نبيذ **البينو غري** المثلّج في وقت قصير جداً، كنت أقرع الكأس وأعيدها، ثمّ أتوجه بتثاقل إلى طاولةٍ أخرى، ومجموعةٍ أخرى من الأشخاص لأحتسي الكأس التالية. تحدثت إلى أشخاصٍ لم أتحدث إليهم يوماً، وفاجأت نفسي وإياهم بخفّة دمي وجاذبيتي واهتمامي بما يقولون. لا مفعول كمفعول النبيذ.

وبحلول الساعة العاشرة، كان معظم المديرين قد غادروا، ودخلت في مرحلة الجوع الحقيقي والحاجة الماسّة. تسارعت دقات قلبي بمرح، وأسهبت في أحاديث طائشة لا نهاية لها. دخنت السجائر الواحدة تلو الأخرى وواصلت احتساء المشروبات الكحولية، ودخلت في تلك الحالة التي يكون فيها ما تحتاجه شيئاً واضحاً ذا طعمٍ لاذع، عندما تحتاج ذلك المسحوق المرّ الذي يحرق حنجرتك مثل مادة التبييض، وتكون الحاجة ماسّة.

وبينما أنا أرقص، انسلّ رجلٌ يعمل معنا في قسم المعلوماتية، لم أتحدث معه يوماً، ووقف خلفي تماماً، ووضع يديه على خصري حيث الفتحات المنكشفة. استدرت في قفزة مباغتة لأرى وجهه وضحكت ودفعته بعيداً عني. كان قصير القامة ووردي اللون ويتصبب عرقاً، وأظنه أكبر مني بنحو عشرين عاماً. وكان شعره يلمع من كثرة الجل.

«أليس لديك حبيب؟» سألني.

«بلى» أجبته، وقد أجفلني سؤاله.

مالَ نحوي وهمس في أذني: «وكيف بحق الجحيم سمح لك بالخروج هكذا؟» ثم انزلقت يداه الكريهتان على مؤخرتي وقرصني، وأبعدهما على الفور وانسلّ مبتعداً بسرعة قبل أن أصرخ أو أدفعه بعيداً عني.

بعدها عدت سيراً إلى المنزل، وبسبب حذائي استغرقت وقتاً أطول للوصول، فالمسافة عبر شارع **راثمينز** لا تحتاج أكثر من ربع ساعة مشي عادةً. وأثناء ذلك فكرت كثيراً في تلك الجملة: كيف بحق الجحيم سمح لكِ بالخروج هكذا؟ كيف بحق الجحيم سمح لكِ بالخروج هكذا؟ كيف بحق الجحيم سمح لكِ بالخروج هكذا؟ كيف بحق الجحيم سمح لكِ بالخروج هكذا؟

حاولت تحليل كلماتها، والبحث عن المعنى المقصود فيها، والسبب الذي جعلني أجفل لدى سماعها.

وصلت إلى المنزل في ساعةٍ متأخرة عن الوقت الذي قلت إنني سأعود فيه. كان **كياران** مستيقظاً، ومن المؤكد أنني كنت أتصرف بغرابة، لأنه صرخ في وجهي وطالبني بتفسير عودتي في وقتٍ متأخر، واتهمني بأنني كنت مع رجلٍ آخر، وهو أمرٌ لم يفعله من قبل.

أطلقت ضحكة، فقبض على معصمي وضرب به على طاولة الطعام، وقلت له في قلبي: اكسره، لمَ لا تكسره؟ افعل شيئاً. لماذا بحق الجحيم تركتني أخرج هكذا؟

ثمّ استعاد هدوءه وتذكر أنّ التجاهل أفضل طريقةٍ لإيلامي. تركني وذهب إلى غرفة نومنا، بينما حبست نفسي في الحمام. رفعت فستاني المثير ومارست العادة السرّية بسرعة وأنا أشعر بالخزي، وأفكر في الرجل القبيح الذي لمسني في الحفل، وفي الطريقة التي أكد فيها أنّ **كياران** يملكني. وقبل أن أصل للرعشة بقليل، فكرت في اتهام **كياران** لي بأنني كنت مع رجلٍ آخر.

كانت تلك المرّة الأولى التي تخيلت فيها أن أكون مع رجلٍ آخر غيره منذ أن التقينا. شهقت لاهثةً وأمسكت بالمغسلة.

أثينا 2019

فيما سبق، كنت أعتبر تفضيل الرجل الذي أحبه لامرأةٍ غيري، أو اختياره لجسدها دون جسدي، ولو نظرياً، أحقر تجربة أتخيل حدوثها معي. في بعض الأحيان، لم أستطع تحمل مشاهدة فيلم مع كياران، لم أكن قادرةً على ضبط أعصابي لساعتين كاملتين يشاهد فيهما امرأة تلفت الانتباه أكثر مني. كنت أخمش فخذي بأناةٍ وبقوة تحت اللحاف. وكنت أعدُ نفسي بالامتناع عن تناول السكر والحليب والخبز وأي مادة قد تزيد من وزني، وأقطع عهوداً على ذاتي بالاستيقاظ عند الخامسة صباحاً وممارسة تمارين المعدة حتى ينقطع نفسي.

أعتقد أن تقديم نفسي للآخرين بهذه الطريقة السهلة هو سبيلٌ للنزاع مع هذا الألم، وللصراع مع نفسي. فمن يهتم بما يفعله أي شخصٍ آخر، من يهتم إن كنت أنا من فعل هذا بنفسي؟ إن كنت أنا من تجاهل نفسي أولاً، فما الضير في أن يكون هو قد تجاهلها أيضاً؟

أكره كتابة ذلك، أكره وضع حقائق عن نفسي في أيدي أناسٍ سوف يسخرون ويشعرون بالانزعاج من انحطاطهم المبتذل.

أولئك الأشخاص الذين تعرّضوا للخيانة الذين لا يطيقون الغدر، ويعتبرونه جريمةً يجب أن يحاسب عليها القانون، ومن ضمنهم أصدقاءٌ لي، سوف يرونها مسوّغاً لخياناتي، وعـذراً عاطفياً عميقاً يصب في مصلحتي الشخصية.

سوف ترى تلك الشريحة المستنيرة منكم في قبولي طواعيةً للحطّ من قدر نفسي أمراً مخزياً. سوف تقولون إن خياراتي أمرٌ شخصي ولا يجوز

أن تتحكم بها حاجتي للرجال وموافقتهم. إنهم يرون أنّ النهم الجنسي حقٌّ يخصني، ليس لأحدٍ شأنٌ به، ويجب تقبّله، وأنني ببساطة يجب أن أحرّر نفسي من الارتباط بشريكٍ واحد، وأبتعد عن العشّاق المتزمتين وسيطرتهم الذكورية، وأن أنغمس في علاقاتي الجنسية الشبقة وأستمتع بها دون أي خجل.

ولكن كلا الأمرين صحيح.

نعم، صحيحٌ أنني أحب ممارسة الجنس، ولكن هذا الحب ليس متعلقاً بممارسة الفعل بحد ذاته وإنما ينجرف للتعددية أيضاً. فأنا أحب ممارسة الجنس مع شخصٍ أعرفه لسنواتٍ طويلة وهذا بالضبط ما يجعل العلاقة تنكسر وتنهار، ولكن في نفس الوقت أحب ممارسة الجنس مع أشخاصٍ جدد لمجرّد أنهم جدد، لا أكثر. وأتمنى، عندما أتركهم، لو أستطيع البقاء والنوم معهم مجدداً مئات المرات إلى أن أستنزف كل جديدٍ وغريبٍ لديهم، ولكن حقيقة أنني لا أستطيع فعل ذلك هي التي تجعل اللقاء مقدساً جداً، وهذه حقيقةٌ أعرفها جيداً.

كانت تلك اللحظات تحتضن الانسلاخ الغرّ الأكثر رّقةً عن نفسي، لحظاتُ العودة إلى بساطة ما أعرف أنه هدف الحياة إلى حدٍ ما، لحظاتٌ أكون فيها مع شخص آخر دون أي تفكير بما سيجلبه الغد، وتواصلٌ مفاجئ خالٍ من أي خوف.

ومن جهةٍ أخرى أيضاً، صحيح أنني ورغم استمتاعي الماجن البحت بلذّة النهم الجنسي، فإنّ ممارستي غير الشرعية له كانت أحياناً مدفوعةً بشعورٍ من كراهية الذات. ومن الحاجة الماسّة الفجائية لأثبت لنفسي أنني امرأة جميلة، لأنني لحظتها كنت أفتقد رجلاً وأردت الانتقام منه ومن نفسي لخسارته، لأنني أردت التخلص من حبيب رائع لم أشعر بأنني أستحقه.

أعرف أنه من المضجر قول أشياء كهذه. فالحديث عن شهوات المرأة أصبح شائعاً أكثر وأكثر بين الناس في هذه الأيام، وجميعنا متفقون على أنه أمرٌ جيد وخطوةٌ تقدمية، ولكنني أُذهل لدى سماع أصوات النقّاد المستاءة من أي تلميح إلى أنّ شهوة المرأة ربما لا تزال، بيد الرجال إلى حدٍ ما.

في النهاية، يجب أن تكون لنا شهواتنا التي نحددها بمعزلٍ عن الرجال!

علينا فعل ذلك بالطبع. لا يمكنني إلا أن أتخيّله؛ ولكم أودّ لو أشعر به. ولكم أحبُ لو أحظى بدقيقةٍ واحدةٍ من الحاجة في حياتي، أكون فيها واثقةً من أن ما أشعر به يخصني بالكامل ولا علاقة للرجل به، أو بما حدث معي من مواقف مع الرجال في الماضي، أو بما قالوه عني وعن جسدي، أو بالأفكار التي زرعوها في رأسي دون دراية مني.

ولكن هذا لا يعني أنني ألقي بكامل اللوم عليهم، أو أعفي نفسي من اللوم. ولماذا يجب أن أصفهم بالأشخاص السيئين وأصف نفسي بالشخص الصالح، وأمتثل ببساطة لما يحدث في العالم؟ إنّ السلطة التي امتلكها الرجال عليّ تبدو حقيقةً محايدة أكثر من كونها سبباً لأكرههم، ومن أكون حتى أكرههم على كل حال؟ ألم يكن بإمكاني تحصين نفسي منهم بالإرادة والعلم والكبرياء في هذا القرن المستجدّ؟ ألم يكن بإمكاني الحصول على حبٍ عظيمٍ في حياتي غير حبهم؟

بالطبع كان بإمكاني ذلك، ولكنه لم يحدث. وهذه الحكاية، حكايتي، حكاية ذلك الفشل.

-3-

في شهر أبريل، طار **كياران** إلى **كوبنهاغن** لزيارة والدته. وأخيراً، انفردت بالشقة وحدي. صنعت كوكتيل التيكيلا مع الصودا والحامض، وجلست على الأريكة أشربه وأدخن السجائر من السادسة وحتى منتصف الليل.

قضيت الوقت أقلّب بشغفٍ الصفحات اللامعة لمجلات المرأة بيدٍ واحدة، بينما اليد الثانية مشغولة دوماً على الإنترنت تنقر على أيقونات الدخول والسحب للأسفل والتحديث. لم أترك ليلةً واحدةً تمرّ دون الذهاب إلى الفراش وأنا مخمورة.

كان عقلي مثل شيءٍ ينبض ويخفق دون لحظة سكون. أدركت في غيابه أنني أنا من اعتاد استغلال كل فعل قام به **كياران** لقتل هذا الشعور لحظتها، بغض النظر عن الفعل، سواءً أكان جنساً يمارسه معي أم تجاهلاً لي أم سخريةً مني. كنت أنزعج مما ينتابني من هستيريا وأسى... غير أن غيابهما كان مزعجاً كذلك... كان خواءً... كان الخواء الكبير لقلبي، لجشعي غير المحدود وعدم قدرتي على إشباع نهمي مرّةً أخرى.

كان اختياري لشخص انعزالي جداً وغارق تماماً في حب امرأة أخرى، ضرباً من الحظ.

وربما اخترته لهذا السبب، لأنه قابل حبي بمقاومةٍ شرسة.

ولكن هذا لم يكن مهماً في النهاية.

ومهما قُدّم لي، لن يكون كافياً أبداً.

أنا من اخترت شخصاً لا مبالياً بطبيعته، وأخذت على عاتقي مهمة جعله يحبني.

بدا ذلك مستحيلاً آنذاك، ولكنني فعلتها ونجحت في النهاية.

أدركت هذه الحقيقة عندما ذهب. فقد اتصل بي وقال إنه يفتقدني.

«أريد أن أكون معك في السرير» قال لي، وسمعت نغمة ابتسامةٍ في صوته أذهلتني بزخم العاطفة فيها وخلوّها من أي زيف.

كيف فعلت ذلك؟ كيف أطحت بهذا الرجل الذي بدا مثل تمثال، رجل جامد ومثالي؟ أنا نفسي تعجّبت من قوتي.

يقول الناس إنّ الوقوع في الحب يحتاج منكِ أن تكوني على طبيعتك، وأن تكوني قويةً ومستقلةً.

ويقولون إنّ الخنوع والاستكانة لا تنفعان سوى في إثارة نفور الرجال، وإنّ الثقة جذابةٌ بالنسبة إليهم. لكنني فعلتها، تمكنت من إنهاكه بسلاح الضعف.

لم يكن ذلك الرجل يحبني، لم يستطع أن يحبني، فما الميزة التي أمتلكها ليحبني؟ وما الذي عرفه عني؟ ولكنه أصبح متعلّقاً بي، ومعتمداً عليّ.

أنا من هيأتُ بكل عنايةٍ الظروف المناسبة لنمو شيءٍ من الحب بداخله، تماماً كما يفعل العالِم عندما يتلاعب بشروط المُختَبر.

لقد استنفدت كل احتياطياته وأنهكت مقاومته الطبيعية، والآن انتهيت من كل شيء.

مايو 2014

-1-

دوّنت لحظات إحباطي لنفسي فقط، في البداية. سمحت لنفسي بالبوح ليومياتي بحذر بأنني من الصعب أن أكون مع كياران، أن أكون مع شخص سلبيّ يفتقر إلى العاطفة.

وبعدها عاد الرجال يلفتون انتباهي، وأصبحت كل بضعة أسابيع أرى رجلاً ما يجذب نظري بطريقةٍ معينة، ويجعلني أشعر بأنني مفعمة بالحياة ومثيرة جنسياً بشكلٍ واضح. كان قد مضى وقت طويل مذ شعرت بنفسي جريئةً هكذا، وتذكرت كم كنت أحب الطبيعة الصفيقة لهذا الشعور.

وقفت في الحافلة ممسكةً بالقبضة المنسدلة من السقف، وعندما رفعت نظري رأيت رجلاً جذاباً بهيئة الأثرياء يرتدي معطفاً بلونٍ أخضر قاتم، يحدق بي. نظرت إليه مرّةً ثانية بذات الجرأة، وبقينا نتبادل النظرات مراراً وتكراراً حتى نهاية الرحلة. وحتى في اللحظات التي لم أكن أنظر فيها إليه مباشرةً، عبّرت عن انجذابي، حيث رحت أحرّك شفاهي وأرطبهما بطريقةٍ تبدو طبيعية على نحوٍ معقول. شعرت بجسدي بأكمله يتأجج بحرارة الشعور، وما بين ساقي يفيض توقداً به.

دوّنت هذه الأحداث. وكتبت معها الأشياء والأفعال التي أحببت أن يقوم بها الرجال معي. كنت أكتبها بتهيّبٍ في البداية، وبانغماسٍ أكبر فيما بعد، وهكذا أصبحت كتاباتي متنفساً لي.

بقيت على عادتي في العودة إلى المنزل وإعداد الوجبات لكلينا، وسؤاله

عن يومه، ولكن مع شعور من التشوق للحظة الانتهاء من كل ذلك حيث الجلوس وحدي مع أفكاري. لم أعرف إن كان قد لاحظ أنني لم أعد أبدي أي إلحاحٍ عند تجاهله لي أو التصرّف بلؤم، ولم أعد أبكي أو أُصاب بالذعر أو أحبس نفسي في الحمّام.

تناقصت جلساتنا الحميمة الجنسية شيئاً فشيئاً، ولكن بتدريج لم يتسبب بأكثر من تذمره، وبتواتر يمكن أن يُعزى للانخفاض الطبيعي للرغبة مع الزمن. بدا كأنه لم يلاحظ حدوث أيّ تغيّر لديّ.

كنت آنذاك لا أزال محافظةً على اعتقادي بأني أحبه. كان الحب حقيقياً جداً بالنسبة لي. وكتبت عنه في مذكراتي. وفيها أيضاً ألقيت باللوم على نفسي وحمّلتها مسؤولية ما يحدث بيننا من مشكلاتٍ؛ من انجرافي وراء أهوائي الجنسية وشبقي. كتبت أنني عشقته، ولكنه لم يكن يكفيني جنسيّاً. كتبت أنني أحببته، ولكنه لم يكن يحب الأشياء التي أحبها. كانت لديّ حاجةٌ للاستكشاف ولخوض تجارب جديدة، ولكن هذا لا يعني أنني لم أكن أحبه!

حتى ذلك الوقت، كنت لا أزال مؤمنةً بذلك الحب. كنت بحاجةٍ لتصوير نفسي كعاهرة ذات ميول غير قابلة للاستقامة، لأجعل الأمر منطقياً.

فكرت دوماً بتلك اللحظة التي شعرت فيها بإحساسٍ قويٍ وصريحٍ بأنني لن أؤذيه ما حييت. كنت آنذاك قد صممت أن لا أكون مثل **فريجا** أبداً.

(بلهجةٍ تأنيبية، حاولت منع نفسي من التفكير بأن جموده الشديد هو السبب وراء خيانة حبيباته السابقات له؛ ولكن أعتقد أنني فعلت ذلك باطمئنانٍ شافٍ.)

كتبت في مذكراتي أنه: «لن يكتشف ذلك أبداً. **كياران** الجميل، أجمل رجلٍ في العالم. لا يمكنني تأكيد شكوكه بأنّ جميع الناس، وخاصة النساء، جميعهم سيئون بالأساس. رغم أنني على ما أعتقد أثبت صِحةَ كلامه بما أفعله».

وتعود أفكاري للتضارب مرّةً أخرى.

-2-

وردني اتصالٌ من والدي في شهر يونيو: كان في المشفى في **وترفورد**. كان يعاني من تضخم في منطقة الحنجرة، مما سبب له صعوبةً في البلع والتنفس. نقلوه إلى المشفى لأخذ خزعة من النسيج المتضخم المعيق، ولكنّ أعراض ضيق التنفس لديه أثارت قلقهم، فأبقوه في المشفى.

كانت قد مضت بضعة أسابيع على آخر اتصالٍ بيننا آنذاك، فالعلاقة كانت باردةً جداً وقتها؛ وذلك لأنه في العام الأسبق توفيت عمته الغالية عليه، وأنا اختلقت عذراً لعدم حضور الجنازة. أذكر أنّ علاقتي **بكياران** كانت متوترة جداً خلال الأسبوع المحدد لإتمام مراسم الجنازة، وشعرت بأنني غير قادرةٍ على المغادرة وسط تلك الظروف. كنت مضطرةً للبقاء لمتابعة الظرف السيئ، والحفاظ على نيران الغضب خافتةً والحيلولة دون تفاقمها لمرحلة الخطر. لقد فضّلت البقاء مع **كياران** والتشاجر معه على الذهاب إلى منزلي والوقوف مع عائلتي.

لم يستطع والدي فهم سبب عدم ذهابي؛ فأنا تذرّعت بالعمل، ولكنه كان يعلم أنّ عملي من نوع الأعمال الروتينية التي يصل فيها الموظف متأخراً ويقضي الوقت في مراقبة الساعة. والأمر الذي جعل موقفي ضعيفاً هو أنّ الرحلة قصيرة ولا تستغرق سوى ساعتين بالسيارة؛ وكان هو سيقطعها من أجلي.

من الصعب الكذب على والدي؛ فهو يعرفني عندما أكذب ولكن لباقته تمنعه من قول ذلك صراحةً. كان يعلم أنني أكذب لأقنع نفسي بإمكانية تجميل كل الفوضى الموجودة في حياتي. ومن المؤكد أنّ هذا جعل وقْع الكذبات على مسامعه أكثر إزعاجاً؛ لتغطيتها على أشياء يعجز عن تبيانها.

-3-

بعد اتصال والدي، رتبت أمر أخذ إجازةٍ من العمل للذهاب لزيارته. جلست خلف مكتبي لأرسل رسالةً إلكترونية إلى مديري وأحجز تذاكر السفر. أخبرت كياران بسفري دون أن أطلب منه مرافقتي.

انتابني شعورٌ قوي بأنّ والدي سوف يموت. اعتبرته عقاباً. عقاباً لي على إهمالي لعائلتي؛ وعقاباً لي على حَصرِ حاجتي بشخصٍ واحدٍ عاجزٍ عن فهمي، بدلاً من حصرها بأشخاصٍ قادرين على ذلك.

أحببت والدي بجنون طوال حياتي. خلال سنوات مراهقتي البائسة المليئة بالفوضى وما بعدها، وفي أسوأ الظروف، كنا دوماً مقرّبين بعضنا من بعض، وكنت دوماً بحاجةٍ إليه. لم أتغيّر سوى في وقت علاقتي بكياران، والآن حان وقت العقاب على ذلك، وهذا أكثر ما خشيته في كل حياتي.

انتابتني صحوةٌ مفاجئة أدركت فيها عمق وحدتي المروّع. كان والدي بالنسبة لي واحدة من الدعامات القليلة التي أمتلكها في حياتي. في اللحظات التي شعرت فيها بنفسي ضائعةً عن ذاتي، كنت أفكر به وأعود بالسنوات إلى الوراء نحو لحظة البداية.

عندما كنت أتوه عن معرفة ذاتي ومن أكون، كنت على الأقل أستطيع التفكير به والقول إنني ابنته. من دونه، هل سأجد نفسي مرغمةً على التحول لبقية حياتي إلى هذا الشخص الجديد الذي وصلت إليه الآن؛ الشخص التابع لكياران؟ ما الذي سيعيدني إلى أصلي، وما الذي سيجعلني حقيقية؟ شعرت بأنني ببساطة سأطفو بعيداً، وبأنه لن يبقى شيءٌ من شخصيتي التي كنت عليها قبل لقائي بكياران.

بقيت طوال الرحلة أطرق بأطراف قدمي على الأرض وأهمهم باضطراب

من شدّة القلق. كنت بأمسّ الحاجة لرؤيته. إذا استطعت رؤيته قبل حدوث أي أمرٍ طارئ، فسيكون كل شيءٍ على ما يرام. إنه الشعور ذاته الذي استحوذ عليّ مرّة، قبل سنوات، عندما تركني كياران. أحسست حينها أن جميع الأمور سوف تصبح على ما يرام بمجرد أن أتمكن من جعله يردّ على هاتفه أو ينظر في عينيّ. هكذا كانت (الأنا) المتضخمة السخيفة – الإيمان بأنني قادرة على إيقاف العالم وإعادة إحيائه بمجرّد حضوري.

عندما وجدت غرفته، ابتسم لي، فانفجرت بالبكاء وركضت إليه لأركع بجانبه على ركبتي وأقبض على يده وأنا أقول: «أبي، أبي أبي». لم يكن يبدو عليه المرض، وإنما التقدم بالعمر. كانت عيناه كعادتهما تفيضان بالدفء والمرح ولكن مع وجود المزيد من التجاعيد، وتحوّل شعره بالكامل إلى اللون الأبيض، وأصبح رقيقاً وخفيفاً مثل شعر الطفل. لقد مرّ وقتٌ طويل. مرّ وقت طويل على آخر مرّة فكرت فيها بصفاء بشيءٍ آخر غير كياران.

ضحك من تصرّفي المبالغ به، وربت على ظهري بذات الطريقة الناعمة الخجولة التي اعتدناها للتعبير بأجسادنا عن عاطفتنا بعضنا لبعض.

قال لي: «كل شيءٍ على ما يرام، وإن لم يكن كذلك، سوف نتدبر أمره وعندها سيكون على ما يرام» كان يتكلم ببطءٍ تحت ضغط الألم.

بكيت، ولكن ليس لأنني لم أصدق كلامه، بل لأنني صدقته.

كنت مشتاقةً جداً لسماعه وهو يقول هذه الكلمات، هذه الكلمات التي لطالما كررها أمامي خلال حياتي بأكثر من مليون طريقة. كان دوماً يقولها، وكنت دوماً أصغي له وأصدّقه مهما بلغت فظاعة الظروف التي أقاسيها. ولكن كانت آنذاك قد مرّت سنوات منذ أن سمعتها، فقد أهملت الإصغاء إليها، وبكيت لأنني شعرت بالخجل من نفسي على ذلك، وعلى كل الأشياء التي صممتُ أذنيّ عن سماعها، على كل الأصوات المماثلة التي لن أستطيع استعادتها. كان والدي قادراً دوماً على إنقاذي من أي شيء، كان قادراً على إنقاذي حتى من أكثر المواقف تهوراً وتعقيداً. كان دوماً قادراً على إنقاذي من أي شيء، إلّا من نفسي.

-4-

في مساء ذلك اليوم، وبعد أن أكد لي والدي وطبيبه أنه ليس هناك أي مؤشرات سيئة بعد تدعو للقلق، ولا مجال أبداً لحدوث مكروه بين ليلةٍ وضحاها، شعرت بقلبي لا يزال منقبضاً وبأعصابي متعبةً، لم أكن قادرةً على الجلوس والحفاظ على هدوئي أو البقاء وحيدةً مع أفكاري. كنت بحاجة لرؤية شخصٍ ما، وتوجهت إلى المدينة أبحث عن صديقي **روبين**.

روبين هذا كان حبيّ الأول. التقينا عندما كنت في الخامسة عشرة وكان هو في السابعة عشرة، وغرقنا في علاقة حبٍ محيّرة لا مثيل لها على الإطلاق. وإلى أن التقيت **كياران**، كان كل فتىً أو رجل أتعرّف عليه يخضع لمقارنةٍ مع **روبين**، ثمّ يفشل وأتركه للفارق الكبير بينهما. من الناحية الجسدية، كان **روبين** السلف الحقيقي الوحيد **لكياران**.

التقينا في حفلة **تكنو**، وهو نوع موسيقى شائعٌ جداً في **وترفورد**، وبعد أسبوعٍ واحد كنا مرتبطين.

كان شاباً طويلاً ونحيلاً وعظامه بارزة مثل **كياران**، ولكنه مشرقٌ ببشرةٍ ذهبية قاتمة، وليس ببشرةٍ شقراء شاحبة، ولديه ثلاثة وشومٍ على جسده. كانت عيناه ناعمتين تلمعان بلونٍ بنيٍ صافٍ، مثل عيون حيوانات الغابة في الرسوم المتحركة. ورغم كونه في السابعة عشرة من عمره آنذاك، فإنه كان يبدو أكبر مني بكثير، وكان في المرحلة الجامعية وذلك لتمكنه من اجتياز عامين دراسيين بعام واحد.

عندما التقينا، كنت لا أزال عذراء وقلقة من موضوع الجنس. واعدت قبله فتياناً ولكن لفتراتٍ وجيزة. كانوا فتياناً أحببتهم كثيراً، ولكنهم دسّوا أيديهم داخل سروالي أو في قميصي بخشونةٍ ودون أي تمهيد. دفعتهم بعيداً عني، وتركوني بسبب ذلك.

تبادلنا الرسائل طيلة أيام الأسبوع، حينما كان روبين ملتزماً بدوام الجامعة في دبلن وأنا في وترفورد. تبادلنا أسبوعياً خمس صفحاتٍ ورقية من القياس الرسمي أي فور (A4)، وحملت تلك الرسائل قصائد غنائية، ومقطوعاتٍ شعرية، أو رسوماتٍ صغيرة، إضافةً لسرد كل ما كنا نفعله وما نشعر به. كانت تلك المرّة الأولى التي أكتب فيها بتلك الصراحة وذلك الانفتاح خارج مذكراتي.

في تلك الفترة كنت أكتب الشعر، وحصلت على بعض الجوائز. فالقصائد كانت جيدة أحياناً لشدّة مصداقيتها، ولأنني لم أكن حينها محنّكةً كفاية في كيفية تجنّب انتحال الفكرة والأسلوب. نلت جائزة على إحدى القصائد التي كتبتها عن روبين، وشعرت بخجلٍ شديد وأنا ألقيها في مكتبة للأطفال لاحتوائها على الكثير من التعابير الحميمة والجسدية. كان جسده أول جسدٍ عرفته وأحببته بشدة. وكانت تلك أول مرّة أحبّ فيها جسد رجل، والمرّة الوحيدة التي لم يكن فيها الحب كئيباً أو معقداً أو مُدمّراً. لم نمارس الجنس قط.

كان خجولاً وغير راغب أو ربما غير قادر على تسمية ما كان بيننا. لم يكن هذا مهماً – فالأمر كان حقيقياً وواضحاً وملموساً كما هي أجسادنا. في عيد الحب (الفالانتاين) أعطاني روبين بطاقةً في الساحة حيث اعتدنا لقاء أصدقائنا أيام العطل الأسبوعية للوقوف والتدخين وشرب القهوة وتبادل الأقراص المضغوطة (CDs).

«لا تقرئيها الآن» قال لي، ثمّ قبّلني. وفور مغادرته وغياب آخر ظلٍ له عن النظر. مزّقت المغلّف وقرأت ما كُتِبَ فيه على عجل.

كتب فيها: «أنا متحمس لأننا سنكون في إجازةٍ معاً قريباً، لكي أستطيع رؤيتك طوال الوقت. أحبك».

تلك كانت المرة الأولى التي يقول فيها شابٌ هذه الكلمات لي. ما زلت أتذكرها كأنها أمامي، لأنني عندما قرأتها فعلت شيئاً طائشاً كاريكاتيرياً: قفزت حرفياً في الهواء لفرط سروري، في الشارع هناك في منتصف مدينة وترفورد، على مرأى من الجميع.

وبعد ستة أشهر انفصلنا، بسببي أنا. فحتى في ذلك الوقت، لم أكن

سعيدة، رغم أنني كنت معه في منتهى السعادة. كنت غارقةً في أفعال تجويع نفسي وتشطيب جسدي. في البداية، عرفت جيداً كيف أخفي الأمر عنه، ولكنني صرت أسهو عن ذلك شيئاً فشيئاً. بدأت أثق به وأُسرُّ له بأحاسيسي، وعجزي عن أداء أعمالي، وبما كنت أفعله بنفسي بدافعٍ داخلي.

أثار الأمر استياءه. كان قاسياً معي - فالأمر كان قاسياً عليه بكل الأحوال.

«لا يمكنك التذمر من الشعور بالاستياء، ومن الإحساس بالاكتئاب، إذا كنتِ ترفضين النوم والأكل والاعتناء بنفسك».

وجدت كلامه مهيناً، وصُدمت بعدم تأثره أو رضوخه أمام رهافتي وضعفي كما فعل غيره من الفتيان. لماذا لم يجد حزني الهشّ الخلاب مغرياً؟ اليوم أدرك أن هذه كانت أول وأكبر غلطةٍ في حياتي؛ أنني لم أستمع لتلك النصيحة. رغم أنه كان لا يزال مراهقاً، وبالتالي ليس كل ما يقوله صائباً، وربما معظمه، ولكنه كان مُصيباً في نصيحته تلك.

كنت أتقلّب وسط غواية حزني. في ذلك الوقت قرأت مقالاً في مجلّة فوغ، كُتبَ فيه بما معناه: «تميل الألبسة في هذا الموسم لأقمشة الجوخ، والجوارب التي تغطي الركبة، وخطوط الكحل العريضة، في عرضٍ لأمرٍ تعرفه الفتيات المراهقات: هذا الحزن يمكن أن يكون ضرباً من ضروب الجمال».

بقينا معاً لفترة بعد ذلك، ولكن العلاقة انتهت بالنسبة لي. انفصلت عنه بعد عامٍ تقريباً من اليوم الذي ارتبطنا فيه. التقينا بضع مرات بعدها بعد انتقاله إلى إنكلترا في فترة أعياد الميلاد وفي الصيف.

لم تنشأ بيننا أي ضغائن. لم نلتقِ مرّةً دون انهمار دموعنا وتقبيل بعضنا بعضاً. أصبح روبين بالنسبة لي أشبه بمقياسٍ مع خروج كل جوانب حياتي عن السيطرة. ذات مرّة التقينا، وكنت في التاسعة عشرة آنذاك، وكالعادة بكينا وتبادلنا القُبل، وعبّرنا عن حب بعضنا لبعض.

قلت له: «دعنا نتوقف عن اللف والدوران حول الموضوع، نحن نحب بعضنا بعضاً. أعرف أني أخطأت من قبل. لنعد بعضنا إلى بعض ونرتبط بعلاقةٍ صحيحة».

وافق على فكرتي، وبعدها ركبت الباص عائدةً إلى دبلن، ولم نتحدث في الأمر مجدداً. ولكن كان يكفيني أن أعرف أنه على قيد الحياة وأنه يحبني.

-5-

التقينا في الساحة مع حلول المساء. بدا بحالٍ جيدة، كتفاه أعرض قليلاً، لاكتسابه جسد سبّاح بعد انضمامه إلى فريق سباحة لدى انتقاله إلى **مونتريال** لإنجاز زمالته الجامعية.

ازداد جسده سُمرةً ووشوماً، وبدا مثل أولئك الشبّان، الذين كنت أيام مراهقتي أشاهد صورهم في مجلاتٍ إعلانية وأشتهيهم، كمجلّة (**إن إم إي**) ومجلة (**فايس**). بدا مثالاً للشخصية التي تمنيت أن أكونها في المستقبل. كان جذاباً في نحوله وأقراطه وليونة جسده على دراجته الأنيقة.

ابتسم لي من خلف مقوده، واجتاحني الذهول كعادتي دوماً عندما أراه بعد طول غياب، فالشعور تجاهه لا يزال دائماً ذاته لدى لقائنا أول مرّة. كان شعوراً يندفع بلمسة خفيفة، لمسةٍ أشبه بلمسة سحر ندرك فيها بلحظة أن الحبّ بيننا لا يزال كبيراً، وما من شيء استطاع تدمير ما بيننا قطعاً.

كنت أشعر بذاتي على حقيقتها مع **روبين**، أشعر بجذوري لا تزال متأصلةً في مكانها.

هل غياب الجنس السبب في ذلك؟ مثل الفتيات في فيلم (**الهالويين**)، كان من الصعب تجنّب التفكير بأنّ الجنس وحده هو قدَري؛ من الصعب عدم التفكير بأنني سأكون على ما يرام من دونه. وبأنني سأكون (الفتاة الأخيرة).[1]

ذهبنا إلى حانةٍ وانحشرنا في واحدةٍ من زواياها، ملتصقين بعضنا ببعض

1- هو مُسمى مجازي في أفلام الرعب، ولا سيما أفلام القتل المُتسلسل. ويُشير إلى آخر امرأة تنجو وتبقى على قيد الحياة لتواجه القاتل، بحجة أنها البطلة المُتبقية لرواية القصة - المترجم

لنستطيع سماع حديثنا وسط ضجيج موسيقى فرقة **السيليد**[1]. أخبرته عن مرض والدي، وعن **كياران**، ورويت له تفاصيل تتعلق بحقيقة شخصية **كياران** لم أذكرها سوى في يومياتي.

سمعت نفسي أسرع في سرد الحكاية بأكملها في حبكةٍ تقوم على تعرّضي للظلم من **كياران** بشتى الطرق، دون التطرّق إلى تجاوزاتي ورضوخي الطوعي.

لم آتِ على ذكر المستجدات الأخيرة؛ انفعالاتي الخائبة ومغامراتي الجنسية التي كنت أخوضها في مخيلتي يوماً بعد يوم آنذاك.

حاولت لفت انتباهه إلى مدى اهتمامي بصحتي والعناية جيداً بغذائي، وممارسة بعض التمارين الرياضية أحياناً. أخبرته أنني أصبحت أنام بعمقٍ طوال الليل، ولكن لم أذكر له أنّ أرق المراهقة الذي عرفه قد تحوّل إلى نوعٍ من النوم المرضي، لدرجة أستطيع النوم اثنتي عشرة ساعة متواصلة أو أكثر، وكنت سأفعل ذلك لو كنت وحدي.

تأخر بنا الوقت وبلغ السكر منّا مبلغه، وبتنا ثملين يمسك أحدنا بيدي الآخر.

«هذا هو أنتِ» قال **روبين**.

«ماذا تقصد؟»

«تظنين دوماً أنّ وجعك هو أشد وجع على الإطلاق. تعتقدين دوماً أنّك وحدك من يعاني الآلام المهولة».

بادلته نظرةً عميقةً صامتةً (مع انتباهي، حتى في تلك اللحظة، إلى أنّ وجهي يبدو أجمل مع فراغه من الإيماءات، وحتى في تلك اللحظة انتبهت لفتح عينيّ باتساع اندهاشاً، ولانفراج شفتيّ بعذوبة.)

أطلق ضحكةً، وقال: «حسناً، لن أقول المزيد. أنا أعرفك جيداً. أعرف أنك هكذا. ولكن كل ما في الأمر أنكِ بالكاد سألت عن أحوالي. ليست لديكِ أدنى فكرة عمّا يحدث معي في حياتي. أنت فعلاً لا تعرفين شيئاً عن ذلك».

1- السيليد بالأصل هو حدث اجتماعي إسكتلندي يتضمن الموسيقى الشعبية التقليدية والرقص - المترجم

«أخبرني،» قلت له، مقرّبة وجهي نحوه أكثر.

«لا! لن أسرد لكِ كل الأمور السيئة التي تحدث في حياتي ليتسنى لكِ تقديرها، ومن ثمّ مقارنتها بما يحدث معكِ».

ما قاله كان مزعجاً، وصحيحاً، ولكنه كان يبتسم في النهاية.

«لا أعرف كيف تسمحين لنفسك بفعل ذلك» قال وهو لا يزال يبتسم ويهزّ رأسه، وعندها اقترب أكثر وقبّلته.

أثينا 2019

أرى الآن صبيةً مراهقين جميلين فيخفق قلبي لمشهد أكتافهم العريضة وجذوعهم الناعمة، وتلك التقاطيع المثلثية الذهبية عند سيقانهم الطويلة وسواعدهم الرائعة المُسمرّة.

أنظر إليهم بنهمٍ كما ينظر الرجال الذين أكرههم للفتيات. لا يمكنني منع نفسي من مشاهدة هؤلاء الفتية بذات الطريقة التي كنت أشاهدهم بها عندما كنت مراهقة. أحدق فيهم لأميّز من كان منهم سيجذبني، وأحاول تخمين أي منهم سيبادلني الشعور ذاته.

من الغريب أن تدرك أنك لن تكون مع ذلك الشخص الذي جعلك تقع في الحب لأول مرّة، ذلك الذي يترك أثراً يحفر عميقاً في الذاكرة. ليست لديك الكثير من الفرص للعودة إلى الوراء، إلا إذا أردت أن تصبح ضحية - فالفتية الذين أحببناهم في ذلك الوقت، كبروا الآن، ولكن شخصية المراهق بداخلهم لا تزال موجودةً وواضحة، على الأقل بالنسبة لنا.

معهم، وفقط معهم يمكنك أن تشعر بنفسك جذلاً وبريئاً وعلى سجيتك كما كنت من قبل، ويرى كل منكما الآخر جميلاً كما كان يراه وهو صغير.

من اليوم فصاعداً، لن يعرف أحدٌ أبداً، لن يعرف فعلاً أو يصدق فعلاً، أنني كنت يوماً طفلةً جميلة.

-6-

بقيت في المنزل ثلاث ليالٍ أخرى بعد إتمام عملية الخزعة. كتبت الأعراض التي يعاني منها والدي على محرك البحث **غوغل** وقرأت عن الأمراض المحتملة دون كلل أو ملل، ووجدت مليون شخصٍ يقول إنها عادية ومليون شخصٍ آخر يقول إنها مميتة!

عندما نمت مع **روبين** في غرفته القديمة، شعرت كأنني نائمةٌ مع روحٍ خارقة. لمست في جسده أماكن كنت قد نسيتها ثمّ تذكرتها بلحظة. لمست أجزاء جديدة فيه، أجزاء لم ألمسها عندما كنا يافعين، ولكنها بدت مألوفة.

أصابني الجمود مع أول لمسةٍ له، فقد خشيت أن لا أكون بالرشاقة والرقّة اللتين كنت عليهما عندما كنا معاً، ولكن بين يديه بدا جسدي منقلباً ومطواعاً وبِكراً من جديد. شعرت بعذريتي، وأحسست أننا معاً نستطيع تصحيح أخطاء عقدٍ من الزمن. تحسست يداه أضلاعي وبطني دون أن آخذ نفساً واحداً، في حركةٍ غريزية فعلتها مع **كياران** لأجعل جسدي يبدو أكثر نحولاً.

جرى كل شيءٍ بسلاسةٍ ورقّة، دون أي شيءٍ مفاجئ. وتقريباً كان الأمر مضحكاً ومليئاً بالمرح. ضحكنا كلانا. كان ذلك الشعور الحلو الذي ينتابك مع الحديث آخر الليل، بعد إطفاء الأضواء، ومحاولتك منع ضحكاتك من الانفلات منك.

كان المذهل في الأمر ذلك الاختلاف الكبير عن تجربة النوم مع **كياران**. وأعتقد أنّ العامل الأكبر الذي جعلني أدمن على جسد **كياران** والرغبة في ممارسة الجنس معه، هو نوعية حاجتي الجنسية؛ كانت حاجةً ماسّة ومستميتة وكظيمة. كانت تطمح للفوز كما لو أنها تخوض نزاعاً.

أردت إرغامه على الاستسلام لي؛ فإما أن يهيم بي حبّاً ويكون لي

وحدي، أو يلعب دور المسيطر علناً وبطريقةٍ محسوبة. ولكنه فقط كان موجوداً، يعتمد السلبية والنأي بذاته سلوكاً، يضاجعني بطريقةٍ تجعلني أشعر كأنه يقوم بواجبٍ ضروري، وتذكرني بالطريقة التي يتناول بها طعامه؛ التي لم تكن تخلو من شهيّة ومتعة، ولكنها تحمل حسّاً أدائياً ثقيلاً. لن أصبح يوماً أكثر قُرباً منه، ولن أستطيع إرضاء نفسي. وهذا تحديداً ما جعلني راغبةً به أكثر لسنوات، وجعلني أكثر جموحاً مع رغبةٍ جارفة.

والآن، وبدونها، استطعت إدراك الوجه التافه للجنس لأول مرّة في حياتي. لم يكن سينمائياً أو جميلاً. تمكنت مرّة أخرى من الإحساس بجسدي، ولم أشعر به غير مكتمل كما شعرت دوماً مع **كياران**. لم أشعر به ناقصاً كأنه في منتصف عملية خَلقِهِ تُرِكَ دون إتمام، ولم أشعر به كأنه لوحةٌ رُسِمَت على عجل دون إتقان خطوطها. لم أشعر به في حالة انتظار.

شعرت به منساباً وناعماً ودافئاً أمام جسد **روبين**، ولم تبدُ المناطق المكتنزة فيه ناشزةً عنه وإنما في مكانها الصحيح وذات جدوى. ملأت حضنه بجسدي وأدخلت السعادة إلى قلبه. فوجئت بمدى شراهتي، وبكل الممارسات التي رغبت فعلها معه، وبجرأتي التي بلغت حدّ الوقاحة في استئذانه بفعلها. كان جميلاً، وكان صديقي، وأردته بشدّة، وهو ليس **كياران**.

لم أشعر بالذنب قط في تلك الليلة.

استيقظنا في صباح اليوم التالي، وكانت أنفاسه حلوة ووادعةً كأنفاس الأولاد. ابتسمنا بعضنا لبعض بخجل وتبادلنا القُبل، ثم تمططنا وتثاءبنا في مكاننا على السرير، على أمل أن يكون والداه قد غادرا المنزل. هذه المرّة لم أقل له إننا نحب بعضنا بضاً ويجب أن نكون معاً.

لم تكن هناك حاجة للحديث عن أي شيء. كانت الأمور مثالية - هو سيعود إلى مونتريال، وأنا لديّ مُغتربٌ أعود إليه. كنت أخفي سرّ **كياران** عن نفسي، أخبّئه بإحكام مجنون بعيداً عن أفكاري الهائجة. كنت أشعر به قابعاً هناك في قُمقُمه منتظراً لحظة تحرّره واندلاعه ليدمر ألق صباحي الهادئ مع **روبين**، ولكنني أبقيته بعيداً.

-7-

عندما غادرت منزل **روبين** للذهاب سيراً إلى المشفى لوداع والدي، تدفقت موجةٌ من الأدرينالين في جسدي. شددت عزمي وأسرعت في خطواتي وحشدت كل تركيزي في التفكير بوالدي، وبالأسئلة التي سأطرحها على الطبيب، في محاولةٍ لاستنفاد موجة الرعب تلك في موضوع والدي. ومع اقترابي من شارع **أردكين**، انطلقت أهرول دون هُدىً -اخترقت رأسي صورة **كياران** وهو يدوّر عينيه نحوي ليشاهدني وأنا ألهث، حركتي اللعوبة!- ورحت أنفض رأسي بعنف، أقلبه من جهةٍ لأخرى بقوة كلما اقتحمته صورةٌ مماثلة؛ صورتي وأنا أزج بمفتاحي في الباب، وصورته وهو ينظر إلي. تصوّرت معرفته بما فعلت، وتصورته يشمّني رغم افتقاره لحاسّة الشّم، وأدركت فوراً أنني مثيرةٌ للقرف، وأنه كان مصيباً طوال الوقت في تفكيره بأنني امرأة غير جديرةٍ به.

نفضت رأسي حتى تخضخض عقلي وتشوشت رؤيتي، وعندما لم ينفع كل ذلك، انحنيت على جانب الطريق السريع وأغمضت عينيّ وضغطت بإبهاميّ عليهما بقوة نحو محجريهما، وأطبقت بمفاصل قبضتي على صدغيّ بشدة إلى أن فاضت رؤيتي بوميض نقاطٍ لامعة وقاتمة أتخمت ذهني بالكامل.

في المشفى، كان والدي يتناول طعامه دون شهيّة، وأحزنتني رؤيته في حالة الملل تلك. قضيت معه بضع ساعات تابعنا فيها برامج إخبارية وبرامج مسابقات ودردشنا حول هذا وذاك. سألني ما إذا كنت أقرأ شيئاً آنذاك، ووجدت صعوبةً في تذكر آخر كتابٍ قرأته، فسردت له رأياً حول روايةٍ كنت قد قرأتها في ملحق مجلة **صنداي**. بدا صوته أوضح من اليوم السابق. أحببت أن ألمسه، أن ألفّ ذراعيّ حوله، أو أن أستلقي على السرير بجانبه، ولكن لم يكن هناك مجال لكل ذلك.

في طريق العودة إلى دبلن، جلست في الحافلة في وضعية الابتهال. توسّلْت وتضرعت وقمت بالمساومات. قطعت وعوداً بالتوقف عن احتساء الكحول، والإسراف في تناول الطعام والملذات، وتخيّلاتي عن ممارسة الجنس مع الغرباء، والتوقف عن كتابة أفكارٍ قذرة في يومياتي. تعهدت بالتراجع، ووضعت في المقام الأول العودة إلى فعل كل ما جعله يستسلم.

وعندها لن يستطيع الموت خطف والـدي، ولن يستطيع كياران التخلي عني.

لن يحدث أبداً أن يتألم كياران بسبب اكتشافه لحقيقة ما كنت عليه - امرأة تستميت لإشباع ملذاتها، لتكون قيد الاستخدام، وترجوه.

سأكون ضئيلةً وآمنةً ونظيفةً وهادئة. سوف أتعلم التواضع والخنوع الحقيقي، وليس تقمّصهما فحسب.

-8-

عندما وصلت في ذلك المساء، سلّمت عليه وتكوّرت بجانبه على الأريكة، حيث جلس يكتب مرتدياً منامته ونظارته. كان شعره أطول قليلاً، وخصله المتموجة المبعثرة تفوح منها رائحة تعرّق كريهة، وتحمّلت استنشاقها. رميت حقيبتي ومعطفي على الأرض موحيةً بأنني منهكةٌ تماماً، ثمّ سحبت بطانية نحوي وتغطيت بها.

سأل عن وضع والدي، وقلت له إنّ علينا الانتظار فترةً لنعرف. أسندت رأسي إلى كتفه، وراح قلبي يدق بسرعةٍ في صدري، والتساؤلات تثور في رأسي: ماذا لو أنّ صوتي قد بدا مختلفاً، وماذا لو كانت هناك شعرةٌ أو أيّ أثر يخصّ **روبين** لا يزال عالقاً بي، وقد يؤدي إلى انفضاح أمري.

وفي الحمّام لاحظت وجود بقعةٍ لكدمةٍ صغيرةٍ على فخذي، ورغم تعدّد أسباب حدوثها، فإنني أخذت سكين مطبخٍ صغيرة وغرزتها في منتصفها، مدفوعةً مرّةً أخرى ولفترة وجيزة بشعورٍ طافحٍ من الجنون الحاسم للمراهقين. كنت سأحفر اسمه على كامل جسدي لو أمكنني ذلك، لو عرفت أنّ هذا سوف يسعده.

بعد أن أصبحت في المنزل، تلاشت كل الأفكار المخففة للألم.

في **وترفورد**، حاولت وضع مبرراتٍ لما فعلته. قلت لنفسي إنّ علاقتي مع **روبين** شيءٌ من الماضي وبالكاد يمكن اعتبارها خيانة، أو بأنني كنت أشعر بالتعاسة وبحاجةٍ للمواساة، أو بأنني كنت ثملة.

ولكن مع عودتي إلى **دبلن**، وعودتي إلى مكاني المعهود -متكومةً على البلاط، ورأسي مستند إلى حوض الاستحمام، أكبت شهقات بكائي في صدري لأتجنب الشجار- كنت أعرف الحقيقة. لقد فعلت ذلك لأنني أردت

فعله. فعلته لأنني أردت شخصاً غير كياران، أردت شخصاً صادقاً بعاطفته وكياسته. أردت شخصاً يَسهُل فهمه، وأنا أفهم روبين وأفهم الجنس معه، وقد حصلت على ما أردته. ظلّ كياران ينام إلى جانبي في السرير، ويقترب ليلمسني، ويبادر برغبةٍ حقيقية لمضاجعتي، دون أن يعرف أنني كنت امرأةً قذرة وكاذبة.

لم أستوعب قط كيف كذبت في أشياء كثيرة وبدت حقيقية وصادقة آنذاك. لقد أحببته كثيراً، ولم يحدث في حياتي أن اكتويت بنار الحب كما اكتويت بحبه. كنت صادقةً عندما قلت إن أكثر شيءٍ أريده هو عدم إيذائه، ومساعدته على استعادة ثقته بالناس.

أعتقد أن هذه كانت كذبةً أيضاً - فأنا لم أكن أريده أن يثق بالناس، وإنما أردته أن يثق بي، وفقط بي.

أردت أن أكون ذلك الشخص الذي ينجح في كسر قوقعته واختراقه والوصول إلى مواضع الطيبة فيه، أردت أن أكون القديسة التي تجعله يدرك أن النساء لسن كلهن كاذبات وفاسقات؛ أو ربما أردته أن يدرك أن كل النساء كذلك فعلاً، إلا أنا، وأنني أنا فقط الامرأة التي يحتاجها.

ولكنني حنثت بكل ذلك، وخربت كل شيء. رغم كل الروعة التي حملتها تلك اللحظات التي جمعتني مع روبين، ورغم عذرية وبراءة علاقتنا الرومانسية القديمة، فإنّ الحقائق الملموسة كانت أمراً بائناً لا يمكن تجاهله. لقد سمحت لشخصٍ آخر بتقبيلي ولمسي ومضاجعتي، ولو عَلِمَ كياران بتلك الحقائق لاحتقرني وهجرني. بكيت بحرقة، وعضضت على معصميّ لكتم صوتي، بينما يكاد عقلي ينفجر بعجزه.

بعد أن استعدت هدوئي، ذهبت إلى غرفة نومنا وأخذت منها حاسوبي. حظرت روبين على جميع منصات التواصل الاجتماعي، ثمّ حظرته على هاتفي أيضاً.

دفعني اليأس للتفكير بهدوء وذهنٍ صافٍ. لم يكن هناك أي شيءٍ يجمع بين الرجلين سواي. لن يعرف به أبداً إلا إذا أخبرته أنا. لن يكتشف الأمر. كان الأمر بيدي فقط، ولا أحتاج إلّا لدفنه، وأكون بخير.

-9-

قضيت شهراً أخر على هذه الحال، تظاهرت بأنّ شيئاً لم يحدث، واعتبرت الأمر شيئاً يمكن تجاهله.

استمررت في إعداد العشاء يومياً، وتوقفت عن احتساء الكحول. عدت إلى قراءة الكتب، وأقلعت عن متابعة البرامج التلفزيونية التافهة. وفي أيام الجمعة التي يخرج فيها، كنت أقضي الوقت بانتظاره، لا أفعل شيئا سوى الجلوس وانتظار عودته. وبدا في تلك الفترة سعيداً جداً، سعيداً أكثر من أي وقتٍ مضى. أصابتني ممارسة الجنس معه بالذهان والاعتلال النفسيّ؛ فشعرت بروحي تنفطر، ولكنني أجبرت نفسي على الأمر بكل الأحوال، وتعاملت معه كواجبٍ آخر لضمان الأمان من جديد.

وفي يوليو اتصل والدي ليخبرني بأنه تعافى تماماً. إذاً، لن يموت والدي، بل إنه حتى لم يكن مريضاً قط.

كان كل شيءٍ على ما يُرام.

في تلك الليلة، اتصلت **بكياران** لأخبره بأنني سوف أتأخّر في العودة للمنزل، وذهب إلى الحانة.

جلست وحدي أشرب النبيذ حتى ثملت، ثمّ ذهبت إلى حفلة، حيث التقيت برجلٍ عرفته لفترةٍ قصيرة منذ عدة سنوات. تبادلنا القُبل مستندين إلى الحائط، ثم غادرنا إلى غرفةٍ في فندق، وهناك مارسنا الجنس طوال الليل، هو يشدني من شعري ويصفع وجهي ويقبض على حنجرتي، بينما أحثّه على الاستمرار في ذلك، وأطالبه بالمزيد والمزيد والمزيد.

وفي الصباح، غادر **نوح** الفندق للحاق بفرقته الموسيقية ومتابعة رحلته معهم، حيث كانوا سيستقلّون عبّارة إلى **ليفربول** لإحياء حفلٍ موسيقي هناك مساء ذلك اليوم.

ابتسم لي ابتسامةً مائلة شقيّة، ومال نحوي يزيح غرّتي عن جبيني ويطبع قبلاً عليه، ويهمس لي بأنه سوف يعود خلال بضعة أسابيع وسيتصل بي. وغادر بعدها.

استحممت بماءٍ ساخنٍ جداً. كان شعري كتلةً واحدةً متشابكةً بسبب عقصه بعضه حول بعض بثنياتٍ عشوائية، واضطررت لتفكيكه خصلةً خصلة، لأتمكن من غسله جيداً بالصابون وإعادته إلى شكله الطبيعي. فركت كل بقعةٍ في جسدي، خاصةً الجزء الداخلي، الذي كان متقرّحاً من ممارسة الجنس، وزاده التنظيف والفرك تقرّحاً. لم أعرف قط ما سأقوله لكياران عندما أعود إلى المنزل، خاصّة أن هاتفي كان مغلقاً منذ مساء اليوم السابق بسبب خلُوّه من الشحن.

غادرت الفندق، ومشيت عبر ساحة فيتزويليام.

في الحقيقة، كنت مع كريستينا في حفلة في بورتوبيللو، وكنت سكرانةً تماماً، وهناك رأيت نوح وتذكرته. بدا كتلةً من الجاذبية الساحرة المُخضِعة، شابٌ وسيمٌ ممتلئ الجسم بطريقةٍ أوحت بالانغماس اللذيذ والعربدة. كانت لديه سنٌ أماميّة مكسورة وثيابه غير متناسقة. بدا بشعره الطويل وابتسامته المتغضّنة وعينيه الضاحكتين اللماحتين مثل راكب أمواجٍ ضلّ الطريق. رأيته يحدق بي.

مشيت إليه وقلت له: «أظنني أعرفك، أليس كذلك؟»

أجابني بالموافقة، وعندها تذكرت أننا التقينا منذ عدة سنوات في حفلة موسيقية كان يعزف فيها مع حبيبٍ سابقٍ لي.

«هل ما زلت مع ذلك الشاب؟» سألني، وأجبته بالنفي.

حاولت كثيراً إدراك تلك اللحظة التي قفزت فيها من حالة الاقتناع التام بأنني أحب كياران والتصميم على فعل أي شيءٍ لأبقى معه، إلى حالة الوقوف مترنحةً في بهو فندق عند الخامسة صباحاً، مع شخص غريبٍ تقريباً، متخليةً عن كل شيء مرّةً تلو الأخرى.

في الطريق إلى المنزل، تفحّصت كشف رصيدي، واكتشفت أنني دفعت فاتورة الفندق التي كانت تعادل أجرة أسبوع عمل، وهذه إهانةٌ صغيرةٌ أخرى ادخرتها لوقت لاحق.

تزينت بمكياج جميل، وحاولت أن أبدو طبيعية ومقنعة قدر المستطاع، ولكنني شعرت بنفسي أتصبب عرقاً.

لم أشعر بالخوف في حياتي كما شعرت به في ذلك الصباح، وأنا أقف أمام شقتنا، وأرفع نظري إلى النافذة وأرى كتبه وسجائره على حافتها، وأعرف أنه في الداخل.

في اللحظة التي وطئت فيها قدماي الشقة عرفت أنّ كل شيءٍ قد تغير في علاقتنا، وللأبد. اختفى **كياران** الجامد، البارد، الذي جعلني أشكك حتى في نفسي.

كان يستشيط غضباً ويرتجف كالمسعور، وعيناه حمراوان. كان يصرخ بطريقةٍ أقرب للعويل.

كنت قلقةً جداً بشأن ما اقترفته من آثام، الذهاب إلى فندق وممارسة الجنس، ونسيت تماماً حقيقة أن الذنب الذي ارتكبته كان ببساطة التغيّب عن المنزل.

«أين كنتِ؟ أين كنتِ بحق الجحيم؟» صرخ بنبرةٍ ساخطة متأججة، وهو يقبض بيده على ياقة معطفي ويشدّها بعنف.

قلت «أنا آسفة، أنا آسفة» وكررتها مراراً ريثما يهدأ، وريثما أستحضر الكذبات. حاولت لمس معصمه لتهدئته، فدفعني بعيداً عنه. وقعت جالسةً على كرسي في المطبخ.

«أما زلتِ ثملة؟» سألني، فأنكرت فوراً دون تفكير. ثم أخبرته بأنني شربت وثملت، وقلت له إن أخبار والدي أفرحتني جداً وشعرت برغبةٍ باحتساء الكحول، وبأنني التقيت **بكريستينا** وشربنا كثيراً ثم ذهبنا إلى شقتها وهناك غفوت على الأريكة دون أن أشعر.

صدقني، ولم أصدق كيف حدث ذلك. كان لا يزال غاضباً جداً، ولكن بسبب احتسائي الكحول وتغيبي عن المنزل، وخوفه عليّ. لقد صدقني بكل بساطة؛ معتقداً أن ما قلته هو الحقيقة لمجرد قولي إنها كذلك. تعجّبت كيف أمكن لهذا الرجل الذي كذب عليّ لفترة طويلة حول علاقته **بفريجا**، أن يفترض أنني كنت أقول الحقيقة.

خلعت ملابسي ودخلت لأستحم مرّة ثانيةً، فأنظف نفسي أكثر، وأتركه

مع نفسه حتى يهدأ ويرتاح قليلاً من نوبة الصراخ تلك. وعندما انتهيت وعدت إلى غرفة النوم، احتضنني وأفلت المنشفة عني، وحملني إلى السرير.

«أنا آسفة» كررت اعتذاري، بينما هو منغمسٌ في تقبيل عنقي والتجويف أعلى صدري.

«أعرف» قال، واستمرّ في تقبيلي برغبةٍ لجوجة، رغم جمودي وعدم تجاوبي معه. تحركت يداه على جسدي، وراح يلمسني كعادته عندما يكون راغباً بمضاجعتي.

لم أنبس بكلمة، ولكنني لم أبتعد عنه. ولجت أصابعه بداخلي، رغم عدم وجود أي رطوبة.

«أنا متعبةٌ حقاً» همست له، وأنا أتلوى محاولةً التملص منه. لم أرغب بخذله، ولكن تلبية رغبته كانت البديل الأسوأ. كان جسدي يتأجج انفعالاً.

ابتسم لي ووضع رأسي برفقٍ على كومة الوسائد بعد ترتيبها، ثمّ نفض شعري ليرتخي خصلاً فوقها، وأبدو مثل دميةٍ، أو جثةٍ هامدة. جثا فوقي وقبلني بنعومةٍ على جبيني، وهبط بخفةٍ، بتلك الطريقة التي تجعلني عادةً أرتعش، ليقبل شفتيّ.

«أنا آسفة» اعتذرت مجدداً، ولكنه أسكتني بلطف. لو أنه أبدى كل ذلك الحنان والاهتمام والمعاملة الرقيقة قبل ذلك بفترة قصيرة، لكنت أسعد امرأةٍ في العالم. ذكّرني باهتمام الأطباء، اهتمامٌ حثيث ومُطمئن. لبضع مرّاتٍ خلال العام كنت أنتهز فترة استراحة الغداء للذهاب والتبرع بالدم، فقط لإعجابي بمدى الحرص المُتبع في التعامل معك، وطريقتهم في لمسك بتأنٍ متمرّس.

في تلك اللحظة، كان هذا الاهتمام موجعاً. أردته أن يسامحني، ولكن أن يتركني وشأني، أن يسمح لي بأخذ قسطٍ من النوم، ثم أستيقظ لأبدأ من جديد وكأن شيئاً لم يحدث. أغمضت عينيّ، ولكنه لم يتوقف. استمرّ بتقبيل عنقي ومداعبته ثانيةً، وراح يهبط بشفتيه للأسفل.

قلت له: «أرجوك» وبعدها قلت: «لا رغبة لي بذلك» وهذا ما لم أضطر لقوله من قبل.

فيما مضى كان يدير ظهره مبتعداً بغضب، عند أصغر تلميح من الممانعة.

«إنه يعلم» جال في خاطري «لا بد أنه يعرف بشكل ما أنني اقترفت ذنباً»
«لا بأس» قال لي وظلّ يبتسم لي بلطف. «ليس عليكِ فعل أي شيء. أنا سأفعل كل شيء. سوف أجعلك تشعرين بالراحة».
وعاد يقبّلني، ويلمس بشفتيه ثديي وأضلاعي. صلّيت في قلبي لئلا تكون الكدمات، التي من المؤكد ستظهر واضحةً، قد ظهرت بعد.
حاولت مرة أخرى منعه عني؛ بالتملص والالتفاف إلى الجهة الأخرى، بينما أقول: «أنا..أنا.. أنا» دون أن أقوى على تركيب جملةٍ واحدةٍ تعبّر عن كرهي للأمر.
«لا بأس». ابتسم مجدداً، كأنني أحرم نفسي المتعة لمعاقبة نفسي، وكأنني كنت أحتاج تأكيداً بأنه سُمِحَ لي بالحصول على تلك المتعة.
وبلطف دسّ ذراعه تحت ركبتي ورفعها وباعد بين ساقيّ، ثمّ انحنى يمصّ عضوي.
كانت يداه تقبضان على يديّ تثبتهما على الجانبين، وهو يفعل ذلك.
أدرت عينيّ في محجريهما للأعلى بأقصى ما أستطيع، في محاولة للوصول إلى الوميض الأبيض حيث يسكت كل صوت للعقل لأمنع تسلل أي فكرة. أردت أن أصرخ من شدة النفور من فكرة وجود فمه حيث كان قضيب نوح قبل بضع ساعات. مع ذلك، لا يمكنني إيقافه دون إخباره الحقيقة، ودون أن أجعله يكرهني. لم أكن أستطيع تحمل فكرة كرهه لي. كنت خائفةً منه، ولكنني كنت أنانيةً أيضاً.
حسمت أمري، وعندما شعرت بقدرتي على تنفيذ قراري تظاهرت بالوصول إلى هزة الجماع، متصنّعةً أقسى التشنجات في أدق الأوتار في الطرف الداخلي لفخذي، مع اللهاث وشدّ القبضة على يده.
دفعت بجسدي نحوه مرة واثنتين وثلاثاً، ثم استلقيت بعدها منهارةً.
«شكراً» قلت له، واضطررت لمعانقته بقوة لدقيقةٍ أخرى قبل أن أدير ظهري وأتظاهر بالنوم.

-12-

كان يجب أن تنتهي الحكاية عند تلك اللحظة. واليوم أرى استمراري في العلاقة ضرباً من الجنون إلى حدٍ ما، ولكنني حتى تلك اللحظة كنت أعتقد أنني ما زلت أحبه وأن الخيانة كانت عرضاً من أعراض القذارة المتأصلة في جيناتي. لم أكن أستحق الحب، ولكنني كنت بحاجة إليه.

فكرة أن أبوح بالحقيقة كانت ببساطة خارج خيالي تماماً. لم أستطع تصوّر فكرة الانقطاع طواعيةً عن تكريس ذاتنا لحياتنا اليومية المشتركة، أو فكرة الاستيقاظ صباحاً من دونه. لم يكن الأمر أنني كنت أخشى تلك الفكرة فحسب، وإنما كنت حقيقةً غير قادرة على تصور عالمٍ تتحقق فيه تلك الأفكار.

كنت أعاني ألماً فظيعاً بسبب الأكاذيب وكبتها، وبسبب الابتسامات المصطنعة والمضاجعات التي اضطررت لممارستها. ولكنني عشت مع الألم من قبل.

ولكن كنت أعلم أنّ هذا الشعور سوف يخفّ، فالإنسان قادر على التعود على أي شيء.

وثمّة سبب آخر أيضاً: لا يمكنني تصوّر العودة إلى الخلف في سرد حكايتنا. كنت أعلم أنني امرأة سيئة، ولكن ليس هناك أحدٌ آخر يعلم بذلك. ومع البوح بالحقيقة، لا بد من إعادة الكتابة.

فكرة أنّ جميع أصدقائي كانوا يكرهونه سرّاً أو علانيةً إلى حدٍ ما، وحقيقة أنه كان يحب **فريجا** وتركني مرةً من أجلها، برودته الفظيعة، الطريقة التي عبّر بها بجسده عن نفوره الكامل، وإشاحته بوجهه عني عندما كنت أبكي، الطريقة التي كان يخاطبني بها والتي جعلتني أشعر يقيناً أنني إنسانةٌ مجنونة. كل هذه الحقائق والأفكار ستكون مختلفة مع إعادة تشكيلها. مع البوح، سوف يتغير كل شيء، والمشاعر السيئة في داخلي ستصبح حقيقية.

أغسطس 2014

-1-

بقيت **ونوح** على تواصلٍ يومي بالرسائل. أرسلت له صوراً لجسدي، وهو أضحكني بردوده كما لم أضحك في حياتي.

وفي أحد الأيام وبينما كنت أدردش معه وأنا في المكتب، طلب مني الذهاب إلى الحمّامات، وإقفال الباب على نفسي في إحدى الحجرات الصغيرات ثمّ الاستمناء وأنا أتخيل ما فعلناه في الفندق. دسست هاتفي في حمالة صدري كي لا يراني مديري أحمله معي إلى الحمام، ونفّذت ما طلبه مني **نوح**. وصلت إلى رعشةٍ جنسية ملتهبة مع تخيّل ابتسامته الشقيّة تشرق فوقي، وقضيبه في فمي. وبعد ذلك، أرسلت له صورةً لوجهي المتوقد احمراراً، ليرى أني فعلتها.

بدا الأمر بالنسبة لي لعبةً آمنةً ولهواً متعقلاً، لأنه غير موجود في **دبلن**، فقد كان يطوف في مكانٍ بعيد جداً؛ في **أمريكا**.

كنت أفكر فيه طوال الوقت. تخيّلته يقضي الليالي معي في المنزل. فكرت فيه وأنا أطهو الطعام، وأثناء الاستحمام، وحتى عندما كنت أمارس الجنس مع **كياران**.

ثمّ عاد آفلاً من جولته باتجاهنا. كان لديه حفلات في **إسكتلندا وإنكلترا**، والحفلة الختامية في **لندن**، حيث طلب مني المجيء لرؤيته.

تعمّدت التكتم على حياتي الشخصية، واكتفيت بإخباره أنني أعيش مع شخصٍ ولكن الأمور ليست على ما يرام بيننا، مع التلميح إلى عدم وجود

التزام بيننا أو ربما انفصلنا بالفعل. لم يكن هناك أي داعٍ للقلق، لأنه لم يكن ليهتم بالأمر بكل الأحوال. فالعلاقة بيننا قامت جزئياً على اعترافٍ تآمريّ بأننا كنا لاهثين وراء غريزتنا، وأننا شخصان فاسدان، وأن النجاسة هي ما يربطنا بعضنا ببعض. وهو نفسه كان على علاقة متقطعةٍ مع إحداهن منذ فترة طويلة، وهذا ما ألمح إليه في بعض الأحيان بطريقةٍ عرضية، دون الاستفاضة في الحديث ودون خوف.

في اللحظة التي طلب مني القدوم عرفت يقيناً أنني سأذهب لرؤيته، فلم أستطع تصور عدم القيام بذلك. كنت أملك مالاً في حسابي المصرفي، ولا شيء يمنعني من ذلك. وخلال لحظة تراءت أمامي الحافلة مغادرةً إلى المطار، والطعم الرديء للقهوة على متن الطائرة، ومدى الإثارة التي سأشعر بها مع دخولي إلى المحطة. حجزت تذكرة طائرة بسرعة قبل أن أغيّر رأيي.

قلت لكياران إن ليزا وكريستينا ذاهبتان لحضور حفلة وأنني سأذهب معهما. بدا منزعجاً قليلاً، ولكن دون فرض أي رأي صارم، فقد حاول التعامل بكياسة مع الموضوع.

«ولكنني سأشتاق لكِ» قال وهو يلوي شفتيه متبرّماً. «العطلة طويلة، وكنت أفكر في الخروج معاً والتسكع».

ابتسمت له وقبّلته وحجزت غرفةً في الفندق.

كانت تلك أول مرة أخطط فيها لخيانةٍ ويكون فيها التخطيط رائعاً كما التنفيذ، وحتى اللحظات المملة للرحلة امتلأت بتأثيرها القوي. أعلن المنبه ساعة البدء عند الساعة الخامسة صباحاً. نظرت إلى وجهه الجميل الغافي وانتابني شعورٌ غامرٌ بألمٍ بالغ الرقة لدرجةٍ لا يرتقي فيها أبداً لوصفه بالألم. غادرت وأغلقت الباب خلفي مع كامل معرفتي بالحقيقة اللاذعة بأنني كنت أغيّر مجرى الأمور. كنت أفعل شيئاً. أخيراً، كنت أفعل شيئاً.

في الحافلة إلى المطار، وضعت مكياجي بتأنٍّ مع تفاصيل رائعة جعلتني أبدو بغاية الجمال.

وعندما وصلنا، وضعت سيدتان مسنّتان، كانتا تجلسان بجانبي في الحافلة، يديهما على كتفي لتقولا لي إنهما كانتا تراقبانني طوال الوقت بقلق

خشيةً أن أؤذي عيني بالخطأ، وكيف أذهلتهما مهارتي في وضع المسكرة والكحل بخط ثابتٍ لا تعرّج فيه. قالتا إنني أبدو رائعة الجمال وأوصتاني بالاستمتاع بعطلتي. ابتسمت لهما بلباقة وذهبت أبحث عن حمام لإلقاء نظرةٍ على مظهري.

عدّلت مكياجي في القطار المتجه من **ستانستيد** إلى **لندن**، وشربت ربع زجاجة نبيذ ومشطت شعري والتقطت صوراً لنفسي. اخترت واحدةً منها ووضعتها على **انستغرام**، وأرسلتها أيضاً **لكياران**.

ردّ قائلاً: جميلة جداً.

ومع دخول القطار إلى محطة **ليفربول ستريت**، تدفّقت الأضواء عبر السقف وشعرت بذات الحماس المتلهف الذي أحسست به عند انتقالي إلى **دبلن** وأنا ابنة ثمانية عشر ربيعاً.

إنه ذلك الإحساس الذي تشعر فيه بنفسك شاباً في مقتبل العمر في مدينة جديدة، تترك لها زمام الأمور لتمنحك أشياء جديدة، مدينةٍ ترغب بأن تصبح فيها شخصاً مختلفاً.

وصلت إلى الفندق في وقت الغداء. كان فندقاً رخيصاً يقع بالقرب من جسر **لندن**. أخذت حماماً طويلاً وأزلت كل مكياجي.

دردشت مع **نوح**، وعبّر واحدنا للآخر عن سعادته باللقاء. كان قلبي يدق بالفعل، ولم أستطع منع نفسي من الابتسام طوال الوقت. ذكّرت نفسي ألا أبدأ بالشرب قبل حلول المساء، فقد اتفقنا على اللقاء عند الثامنة مساءً في **بريكستون** في الحانة التي كانت فرقته تعزف فيها.

في السادسة مساءً، أعدت وضع مكياجي كاملاً وارتديت فستاناً قصيراً بلونٍ أزرق اشتريته خصيصاً لهذا اللقاء، ثم ذهبت إلى بار الفندق واحتسيت قدحين من مشروب **الجين** مع **التونيك** في البهو. كان هناك مجموعة شبانٍ ثملين من مشجعي كرة القدم الألمان. هللوا وأطلقوا الصيحات لدى رؤيتي، فبادلتهم نظرةً باردةً لا مبالية. كنت أبدو بأفضل حال. إنّ ذلك التناقض بين ما كان يعتلج بداخلي وبين مظهري الخارجي الأنيق جعل قوتي المؤثرة هذه تبدو لا حدود لها.

منح مظهري الخارجي روحي المتخبطة زاداً من الرونق وسحراً مُربكاً. وسوف أكون سعيدة بذلك عندما أتقدم في السنّ، هذا ما قلت لنفسي وأنا أطفئ سيجارةً أخرى. سوف أرغب بتذكر هذا الشعور تحديداً، شعوري وأنا أجلس في بهو فندق أنتظر لحظة الذهاب لممارسة الجنس مع رجلٍ أريده بشدة وبلهفة تصل حد الإغماء.

سوف أرغب بتذكّر معنى أن أمتلك جسداً لا يمكن إنكاره أو النظر إليه بتناقض. سوف أفتقد كل ذلك، سوف أفتقد حتى الأسرار والأكاذيب.

-2-

عندما وصلت إلى الحانة، كان **نوح** واقفاً يدخن سيجارة في الفناء مع باقي شبان الفرقة. قدمني لهم، فألقوا التحية عليّ وابتسموا دون سخرية أو أي إيماءة تبعث في نفسي شعوراً بالضيق، رغم أنني أتخيل أنهم جميعاً كانوا يعلمون الغاية التي أتيت من أجلها، فلا يمكن أن يكون هناك سبب آخر لوجودي.

شغلوا أنفسهم بالتجول في المكان، بينما التفت **نوح** نحوي ليحتضن وجهي بيديه الخشنتين ويلمس شعري، وهو يحدق بي كأنه غير مصدق، ولكن دون رصانة أو جديّة أو إحراج، بالضبط كما لو كان ينظر إلى نباتٍ أو حيوانٍ أو دميةٍ جديرة بالاهتمام بشكل خاصّ، إلى شيءٍ ممتع ومُبهج. كان رجلاً بسيطاً وعفوياً، وكذلك كانت البهجة التي استقبلني بها، وما كنت عليه أيضاً.

قادني إلى شاحنته المليئة بفوضى من الآلات الوترية وعلب الأطعمة الجاهزة الفارغة. صعدنا إلى المقعد الأمامي الذي كان مغطىً بظلّ حائطٍ مكسوٍ بأوراق شجرة لبلاب، ولكن كنا مكشوفين لدرجة تدفعك للشعور بالخطر والعبث. جلست بجانبه وحنيت عنقي لتقبيله فاقترب حتى غطت خصلات شعري المنفلتة وجهه. فكرت دون تأثر بفارق النظافة الكبير بيننا. كانت أشمّ رائحة شامبو الخزامى الذي استحممت به في الفندق، وهي تفوح من جسدي، بينما كان جسده ينضح برائحة سجائر معششة فيه منذ أسابيع.

ألقيت نظرةً على نفسي، كنت ألمع ببشرتي البيضاء الوردية تحت الفستان الأزرق الرقيق، الذي أبرز بتقويرة قبته المربعة الجزء الأعلى من ثديي، وانسدل حتى منتصف فخذي. كنت مثل قطعة مثلجات بنكهة الفراولة تحت سماء زرقاء. كانت رائحتي عطرة بدرجةٍ جنونية.

كانت الشمس قد لوحته بقوة، وقد ازداد وسامةً مع نحوله، بسبب حياة الترحال والعيش على البرغر والمشروبات الكحولية. بدا جلده أسمر وخشناً مثل جلد فلاح. تحسس سحاب بنطاله يفتحه، فاندفع قضيبه سائباً؛ ومعه تسربت رائحة بولٍ خفيفة، وزادني الشعور بالنفور اهتياجاً.

استطعت إطلاق العنان لنفسي، كما فعلت في أحلامي الجنسية مع فريجا، لأصل إلى المتعة بحمل نفسي على التخيل بأنني أنا من أفعل الإيلاج وليس هو.

زججت بنفسي داخل عقله في محاولة لإدراك ماهية الإحساس باختراق شيءٍ أو شخصٍ والولوج فيه عميقاً.

نظرت إلى جسدي، وكان كتلةً من الهستيريا المحمومة بحرارة التغلغل المتوقدة من جسدينا.

وبسرعةٍ قضى وطره، وتركته يقذف ماءه بداخلي. ثمّ عدنا إلى البار. هو يمسك بيدي، وأنا أسير خلفه وأشعر بالانسكاب الدافئ لمائه ينساب بين ساقيّ.

شعرت بعيون الرجال الآخرين في البار ترمقني بنظرات إعجاب. وفكرت أنهم ربما استشعروا الأمر؛ وأحسوا بتوقدي المحموم، أو تحسسوا رائحته على جسدي ورغبوا بوضع رائحتهم فوقها.

لماذا يتطلب الأمر كل هذا لأشعر بنفسي؟

كنت نفسي وفقط نفسي، لم أفكر في أحدٍ سوى نفسي، ولم أكن سوى نفسي في تلك اللحظات.

أثينا 2019

في هذه الأيام، عندما أشعر أحياناً بالملل والوحدة، أخرج وأحاول التحدث مع الناس. تحدثت مع أشخاصٍ التقيتهم في البارات حيث كانوا يجلسون وحيدين مثلي، وحاولت طرح أسئلةٍ صادمةٍ جداً لحملهم على قول شيءٍ مثيرٍ للاهتمام، أو الإشاحة بوجوههم والانصراف عني.

لو أنك رأيتني لاعتقدت أنني كنت قاسية جداً، فقد كنت أغلب الوقت أضحك أمام وجوهٍ حزينةٍ واهنةٍ لرجالٍ جلسوا يحتسون المسكرات دون صحبةٍ في هذا البلد، الذي يعتبر ناسه احتساء المُسكرات دون نديم أمراً غير طبيعي، بينما هم يتملصون مني ويبتعدون عني. كانت لهم بشرةٌ رماديةٌ داكنة ورؤوس صلعاء ويرتدون نظارات طبية، وباختصار كانوا من صنف الرجال الحمقى غير الجذابين ممن يرتدون قمصاناً عليها صور لفرق **البلاك ميتال** الموسيقية مع سراويل قصيرة رثة، ويحاولون مغازلة النادلات الحسناوات في الحانات دون أملٍ بتجاوبهن. لم يعودوا ينتبهون لوجودي. فأنا لم أعد فتاةً.

سألتهم في حديث معهم: «هل تظنون أنكم أشخاص محبوبون؟» وخلال تفكيرهم بالإجابة أو لدى محاولتهم للتملّص مني والابتعاد، كنت أباغتهم بسؤالي: «هل تعتقد أنه من الممكن أن يحبك شخص إذا كان بإمكانه رؤية كل شيء تفعله؟» ثم أراقبهم يتخبطون كأنني بسؤالي مددت يدي وصفعتهم.

ثم أقول لهم: «أنا جادة في سؤالي. تخيل لو أنّ الناس يستطيعون رؤية كل شيء تفعله. يستطيعون معرفة كل أسرارك، وكل فعل قذفٍ منحطٍ

لجسدك، وكل ضروب الإباحية التي شاهدتها في حالةٍ من الخدر تلك التي تغيب فيها حواسك عن إدراك ما حولك. فكر بكل هذا. فكر بكل لحظة عار، وكل لحظة يأس - هل تعتقد حقاً أن هناك شخصاً واحداً قد يحبك بعد كل هذا؟ هل هناك ولو شخصٌ واحد فقط؟»

-3-

أذكر ما كان عليه حالي عندما أحببت كياران أولاً، قبل هجرانه لي أول مرّة في عيد الميلاد، عندما كنت أفتقده كثيراً عند ذهابه إلى أي مكان. أذكر أنه ذهب إلى ليمريك في عطلة نهاية الأسبوع لحضور مؤتمرٍ، ولم يكن لديّ أي شيء أفعله لوحدي، ولم أكن أرغب أصلاً بفعل أي شيء، أردت فقط الانشغال بافتقاده.

أذكر استلقائي على ذلك السرير الوحيد والتفكير فيه والبكاء. لم أكن أبكي حزناً أو قلقاً، فأنا لم أكن حزينةً أو قلقةً بعد. ولم أكن أبكي من ألم الاشتياق له. كنت أبكي مع ذلك الشعور بالمتعة لحقيقة إحساسي بافتقاده، لإحساسي بذلك الألم المعتدل الذي كنت أشعر به كلما افتقدت رجلاً.

شعرت به ألماً صحيّا، وحالةً أساسية يبدو فيها سبب بكائي وجيهاً ومريحاً جداً. كان من المستحيل أن أشعر بالسعادة دونه، ولكن ألم افتقاده كان جميلاً، لأنه قابل للشفاء، فأنا كنت أعرف كيف أداويه.

وهذا أمرٌ يشفع للحب: فالحب يمتلك قواعد واضحة مثل أي لعبة، وفيه تُقال أشعارٌ وكلماتٌ قد سمعتها في الأغاني والأفلام. وللحب درجاتٌ وخطوات يجب اتخاذها. خسارة اللعبة احتمالٌ قائم، ويجب التعامل معه، ولكن بكل الأحول، هناك لعبةٌ تخوضها على الأقل.

أذكر كيف كنت في فترة انفصالنا، أستيقظ باكية على حلمٍ امتد طوال الليل، رأيته فيه يقول لي «أحبك».

كان يقولها في الحلم، وكنت أبكي لأنني كنت أعلم أنه يعنيها.

كنت أشعر بها، وأستطيع تذوّق كلماتها التي كانت باردةً ولذيذة كالنبيذ، ولكن كنت أعلم أنها ستبقى في الحلم ولن تقفز لتصبح حقيقيةً لدى استيقاظي.

أذكر مرّة أنني جلست أراقبه عندما كنا نتشاجر، أو بالأحرى عندما كنت أنا وحدي من يعيش حالة الشجار.

كان دوماً يخرج بملاحظاتٍ على ما أعده من طعامٍ لكلينا، ويلقي بتعليقاته على أنواع وكميات الطعام التي أتناولها، إلى أن طلبتُ منه في النهاية الكفّ عن ذلك، وسألته عن السبب الذي يجعله يفعل ذلك طوال الوقت.

وعلى الفور امتقع وجهه وتجمدت ملامحه، وقال إنّ الحفاظ على الأمور التي تخصّ سلامتي شأن يخصني وليس لي أن أنتظر منه إعادة ترتيب كل شيءٍ يتعلق بها. لم يكن بإمكانه الانتباه لكلماته طوال الوقت لمجرّد أنني شعرت بحساسية معينة حيالها.

بكيت مع تغير ملامح وجهه، وقلت له: أنا آسفة، آسفة، آسفة. ولكنه تركني وسار مبتعداً عني ليجلس بجانب النافذة وينظر من خلالها، متجاهلاً إياي.

كانت أضواء مصابيح الشوارع والأضواء المنعكسة من الحافلات في الطريق تضيء وجهه، وكنت حتى في ذروة الجنون الهستيري تأخذني الدهشة من شدة جماله عند شروده، وكيف يبدو مثل لوحةٍ فنية أو تمثالٍ يجلس هكذا هناك. كان قادراً على الانفصال عني تماماً خلال لحظة. كنت أحسده على قدرته على عزل نفسه عني.

كان مرة بعد مرة يتحرر قليلاً من برودته مع تعمق معرفتنا بعضنا ببعض، بينما ادخرت برودتي كاملةً للنهاية.

-4-

أذكر أنني قرأت عن إيان توملينسون، بائع الصحف الذي توفي إثر تلقيه ضربةً من أحد رجال الشرطة في لندن أثناء تظاهرة احتجاجات قمة مجموعة العشرين لعام 2009.

كنت أقلب صفحات الجريدة عندما رأيت صورته وعرفت أنه مات وأحزنني الأمر كثيراً. في اليوم التالي حملت الصحف المزيد من التفاصيل عن حياته، حيث كتبت أنه كان يعيش في نُزلٍ ومدمناً على الكحول، وأنه في لحظات احتضاره قال بوضوح: «أنا فقط أحاول الوصول إلى منزلي، أنا فقط أحاول الوصول إلى منزلي» قرأت كلماته هذه وأنا أجلس بجانب والدي في سيارته وانفجرت بالبكاء. تخيّلت حياة هذا الرجل ومعيشته في نُزلٍ، وإدمانه على الكحول، وأنه كان فقط يحاول الوصول إلى منزله. بكيته لأيام.

في بداية مراهقتي، سمعت قصةً قيل إنها حدثت منذ زمنٍ بعيد في إحدى القرى القريبة من وترفورد، عن امرأةٍ فقيرة تقتات من بيع الهوى لبعض رجال القرية، ولكن زوجات رجال القرية وضعن خطة للتخلص منها وقتلنها. ربما لم يكن في نيتهنّ قتلها، ولكنهن فعلن ذلك. فقد هاجمنها ودفعنها على الأرض فسقطت مفارقةً الحياة.

وثمّة قصة أخرى قرأتها في إحدى الصحف عن شابٍ يعمل وكيلاً في كنيسة، تلاعب برجلٍ محترمٍ وطيبٍ في منتصف العمر. كان الرجل مسيحياً مؤمناً ولكنه مثليّ، وتائهاً في سبيل التصالح مع دينه بوجود تلك الحقيقة. أوهمه الشاب بأنه يحبه، وقد أضمر النوايا لاستغلاله وتحييده عن إيمانه. أقام احتفالاً رسمياً لإعلان علاقتهما، وبعدها راح يسمّم الرجل ببطءٍ إلى أن اعتقد أنه يعاني مرض الخرف، ولكن ليس قبل إقناعه بأنه وجد الحب أخيراً. فقد كتب الرجل وهو يحتضر: «أخيراً لست أخشى احتمال الموت وحيداً».

لك أن تأمل بأنه مات قبل أن يدرك كم كان وحيداً في الحقيقة. لك أن تأمل بأنه مات وهو يعتقد أن هناك شخصاً أحبه بالطريقة التي أراد أن يكون محبوباً بها.

وعندما كنت في الثانية عشرة من العمر، قرأت في الصحيفة المحلية قصةً تقول: كانت هناك امرأةٌ مُسنّة تسمح لأولاد الحي باللهو داخل منزلها، وكانت تصنع لهم الشاي وتقدّم لهم الكعك، وبالطبع تطورت الأمور بأن أصبح بعض الأولاد الأكبر سنّاً يأتون حاملين معهم علب المشروبات، ويدخنون الحشيش. ولم تجد السيدة طريقة لإيقافهم، وفي أحد الأيام آذاها أحد الأولاد الكبار. عندما تلحق الأذى بشخصٍ متقدم في السنّ تدرك أن له جلداً رقيقاً كالورق. تركت أذيتهم وجهها يتلون بالأزرق والأرجواني، والنظرة في عينيها تقول: «لماذا قد يفعلون ذلك؟ لماذا قد يفعلون ذلك حقاً؟»

آلمتني هذه القصص كثيراً، ولكنها علّمتني التصدي لهذا الألم بالتفكير فيها مراراً وتكراراً، مع إرغام نفسي على استعادة التفاصيل فيها عشرات المرات، إلى أن تبدو لي تافهةً.

إما أن تتحول إلى شخصٍ باردٍ، أو تقتل نفسك.

سبتمبر 2014

-1-

تتالى بعدها دخول أشخاصٍ آخرين إلى حياتي بتتابع سريعٍ مجنون: كان الأول صديقاً، وبعده رجلٌ من زملائي، وآخرهم كان فناناً.

في تلك الفترة كنت أشرب أكثر فأكثر، وأدرك كياران أنني تغيرت. كنت معه لطيفةً حد الخنوع في الأوقات التي كان فيها مزاجي في ذروة انتشائه، ولكن بعدها أختفي وأغيب عن المنزل لياليَ بطولها دون أن أعتذر له عن ذلك، بل أعود سكرانةً مترنحةً وألقي بنفسي على السرير.

بدأت ألتقي بأصدقائي القدامى بعد مرور سنوات كبرنا فيها ونضجنا، فقد كان المخلصون للخمر منهم فقط لا يزالون محافظين على معدل الشرب ذاته الذي عهدتهم به من قبل وقلّة منهم فقط استطاعوا تحمل أعباء تلك اللقاءات مادياً وبدنياً. كانوا مرتاحين دون هموم ولديهم إحباطٌ مزمن، فنانين وموسيقيين لا يملكون سوى شبكةٍ ضخمةٍ من العلاقات الاجتماعية، ويعيشون على الإعانات وسيبقون هكذا حتى آخر يومٍ في حياتهم.

كانوا أظرف ناسٍ في دبلن طالما أنك ثملٌ مثلهم.

كانوا يعملون منسقي موسيقى ومروّجي حفلات في النوادي الليلية، ومنهم من أبلى بلاءً حسناً في عمله هذا، وهؤلاء استطاعوا تبرير تواجدهم الليلي المستمر بغير حساب، وبرروا وجودنا معهم بصفتهم وكلاء. - ونحن كنا نخرج للقاء الأصدقاء فقط، ويحدث أنّ هؤلاء الأصدقاء يعملون في حاناتٍ لا تفتح أبوابها لغاية الساعة الحادية عشرة ليلاً، ولا يصحّ اللقاء دون

احتساء كمياتٍ كبيرة من الكوكتيلات الكحولية الرخيصة المقدمة ضمن عروضٍ مجانية خلال الأسبوع، ودون الذهاب لعدة مرات ضرورية إلى المرحاض مع أولئك الأصدقاء الذين يساعدونك لاستنشاق مخدر ما من مفتاح يمسكونه لك ويضعونه تحت أنفك بكل لباقة.

نمت مع الشخص التالي في مكانٍ كهذا وبحالة عالية من النشوة وانعدام التركيز بسبب الكحول. مارست الجنس مستندةً إلى حائط مرحاضٍ مُعطَّل، في حانة في شارع **هاركورت**. كان صديقاً قديماً يُدعى **مارك**، ويعمل في بيع المخدرات وعازفاً في أربع فرقٍ موسيقية. عندما تعرّفت على **مارك** قبل سنواتٍ عديدة، اعتاد اصطحابي إلى **ماكدونالدز** للهو والتسلية، دون ممارسة الجنس.

في ذلك اليوم، لم أتذكر لاحقاً حدث ممارسة الجنس، وإنما فقط ضحكات أصدقائه المكبوتة وهم ينظرون إلينا من خلف مقصورة الفرقة بعد خروجنا من المرحاض، وتذكرت أنني بعد ذلك سرت وحدي مترنحةً على طول القناة في الطريق إلى المنزل.

-2-

كنت أدردش مع نوح طوال الوقت في تلك الفترة. كان رجلاً من الخيال، أو هذا ما كان عليه بالنسبة لي - ولكنه بدا مثل معجزة، يكاد يخرج من شاشة هاتفي كلما اتصل بي، ينبض ذكاءً ومرحاً سحرياً. كنت أتحدث إليه وأتجول طوال النهار دون رفع نظري عن الشاشة. كان يلتقط صوراً لوجبات طعامه وما يراه من مناظر ويرسلها لي، ويحدثني عن كل ما يجول بخاطره دون أن أطلب منه ذلك.

بعد علاقةٍ مليئة بالصقيع مع كياران، جاء دفء نوح صاعقاً، مغرقاً لكل الأحاسيس، كان شخصاً لا يعرف الحواجز. وكانت فكرة وجود شخصٍ قادرٍ على العيش بتلك الطريق مذهلةً جداً، فكرةٌ تركتني أتأرجح بين تصديقها أو عدم تصديقها. هل كان الأمر مجرّد خيار؟

الجميل في نوح هو أنه هو بحد ذاته لم يكن العنصر الأهم الذي جعله شخصاً جيداً بالنسبة لي، هذا الرجل جعل العالم بحد ذاته يبدو جميلاً ويانعاً ومُهيّأً لاستقبالنا، وهو من جعلني أشعر بأنني شخصٌ دمث ومتجدد ونابضٌ بالحياة، وأن هذا هو الواقع، ولا حاجة حتى لوجوده ليكون حقيقةً.

–3–

تلقيت رسالةً إلكترونية من ليزا، وكانت لا تزال في برلين تنعم بالسعادة مع حبيبتها وحياتها الجديدة المليئة بالخبايا.

رغم أننا لم نكن نعرف الكثير عن أخبار وأعمال بعضنا، ولكنني كنت أعلم أننا ما زلنا نحب بعضنا بعضاً كثيراً. أخبرتني أنها على وشك إنهاء المسوّدة الأولى لكتابها. ابتلعت ريقي بصعوبةٍ، وغصّت حنجرتي بإحساسٍ من الفخر والحسد – فتأليف كتابٍ كان حلمي الوحيد في طفولتي.

عندما كنت صغيرة، قبل دخولي عالم المُسكرات والرجال وغير ذلك، كانت الكتب الشيء الوحيد الذي يمكن أن يستحوذ على كل تفكيري وأحاسيسي ويجعلني أنسى نفسي.

لطالما أحببت فكرة صنع شيء وتقديمه لشخصٍ آخر لتطبيقه في حياته. أعتقد أن هذا هو الشيء الوحيد الذي كانت لديّ رغبةٌ حقيقيةٌ للقيام به.

كان هذا منذ زمنٍ بعيد طبعاً، واليوم أصبح تكريس إنسانٍ الكثير من وقته وجهده في صنع شيءٍ دون معرفة النتائج، يبدو أمراً عصيّاً على الفهم بالنسبة لي.

كانت الحياة مليئةً بالعبث، ومبهمةً جداً وكثيرة التقلّب لدرجة أنني لم أكن قادرة على التفكير سوى بالمشاعر الآنية.

كانت الآنية تسيطر على كل شيءٍ في حياتي.

-4-

أما الرجل الثاني فكان ذلك الزميل الخبيث القبيح الذي لمسني في حفل الشركة، حيث التقيته في سهرةٍ أخرى. إنه ذات الرجل الذي جرحني في الصميم بسؤاله عن **كياران** وكيف أنه سمح لي بالخروج بذلك المظهر.

وفي هذه المرّة أيضاً ترك ذكرى ضبابية كئيبة، أذكر فيها رضوخي المتردد مع بداية انتشائي. ثمّ الشعور أخيراً بما يشبه اللذة أو الحاجة على الأقل، الحاجة لحمل يديه البغيضتين على لمس كل نقطة في جسدي، وأذكر صراخي وهو يضع يديه على عنقي، والرائحة المقرفة المنبعثة من جوفه النتن، وكيف جعلني أشعر بأنني مملوكة **لكياران** وبأنني نفسي في آنٍ واحد، كان شعوراً قوياً للغاية ومريعاً للغاية.

-5-

أما الشخص الأخير فقد كان فناناً وشريك كياران في المُحترف. كان طالباً شاباً، أنيقاً، له عينان ناعستان وتسريحة شعر انتقاها من آخر صيحات الموضة الرهيبة.

في ليلة يوم سبت، وصلت إلى المُحترف الذي كان في الطابق الرابع لبناءٍ يقع على رصيف الميناء، بعد استمتاعي بسهرةٍ مليئة بالشرب والرقص حتى الثانية صباحاً. ذهبت إلى هناك لأرى إن كان كياران لا يزال موجوداً، فهاتفي كالعادة خالٍ من الشحن منذ المساء. كنت قد نسيت أمر ذلك الفتى الصغير الخجول المُهمّش في الذاكرة.

عندما قرعت الباب، فتح لي وقد ارتسمت على محيّاه تعابير الانزعاج والخوف، وأخبرني أن كياران قد غادر منذ بضع ساعات. قدم لي زجاجة من الجعة وجلسنا على المقاعد الموجودة، حيث رأيت أعمال كياران. وتحدثنا واحتسينا الكحول إلى أن ثمِلَ هو أيضاً. ثمّ تبادلنا القُبل ومارسنا الجنس بعدها.

بدا متخبّطاً بين شعوره بالخوف واندفاعه العنيف المتقطع؛ فقد كان يصفعني ويقرصني في أكثر المناطق نعومةً حيناً، ثمّ ينكمش على نفسه حيناً آخر.

شعرت بالأسف فيما بعد، ليس على نفسي فقط وإنما على الفتى أيضاً. شعرت بالأسف عليه لأنني أقحمته في ورطةٍ بشكلٍ من الأشكال.

شعرت بالأسف لكل ما اعتلج بداخله من اضطراب، لكل شيء جعله يكرّ ويفرّ، يُقبل ويدبر.

-6-

استيقظت في الصباح لأجد نفسي وحدي في المكان، كانت أشعة الشمس تخترق بقوة نوافذ المُحترف الكبيرة، تلفح بحرارتها كامل جسدي، وكنت ألهث من شدة جفاف فمي.

كنت عاريةً تحت غطاءٍ من قماشٍ مشمع. شددت القماش حول جسدي ولففت نفسي به، ثمّ ظللت عيني بيدي ورحت أحدق بذلك الضوء الرمادي العظيم الذي ينتشر فوق نهر ليفي في الصباح الباكر البارد.

كان ذلك اليوم الأول من نوفمبر، يوم عيد ميلادي. كنت قد أتممت الخامسة والعشرين من العمر.

شعرت بمعدتي متشنجة تطفح بالحموضة، وشفتاي متشققتان ومتورمتان من شدّة العضّ. وركبتاي وما بين فخذيّ مليئة بالكدمات، والدم يلوث ما بين ساقي، وسائل منويّ يسيل منيّ.

كنت وحيدةً.

وضعت يدي على رأسي الذي كان يخفق بالألم، وزحفت على الأرض لأبحث عن حقيبتي وأتحسس هاتفي بداخلها. أخرجته منها ووصلته بالشاحن، ثمّ استلقيت منهارةً بقوة إلى جانبه.

أسندت خديّ الدافئ المتورم إلى الحائط، حيث انبعثت منه رائحة الطلاء وأعادت لي ذكريات أيام المدرسة.

(تذكرت يوم تمّ طلاء جدران المدرسة، وتذكرت كم كنت أحب صديقتي بيا، وكيف كنا نقضي النهار بطوله ونحن نمرر بعضنا لبعض قصاصات عليها تعليقاتنا، ونجاهد في كبت ضحكاتنا وقمع اختلاجاتنا لدرجةٍ يحمرّ فيها وجهانا، وكيف كنا نفشل أحياناً في ذلك وننفجر بالضحك على ما نفتعله من

خربشاتٍ وألقابٍ وتفاهاتٍ، وتطردنا المعلّمة خارج الصفّ. تذكرت كيف عدت يوماً إلى المنزل وأنا أصلي من أعماق قلبي أن لا تحرمنا المعلمة من الجلوس بعضنا بجانب بعض في الصفّ -بعد تهديدنا بذلك أكثر من مرّة- لأنني كنت أحبها حبّاً جمّاً.)

شعرت بالحائط بارداً وناعماً على الأجزاء الحساسة المتورّمة من وجهي حيث صفعني ذلك الفتى الغريب التعيس دون سابق إنذار.

تساءلت في نفسي، كيف عرف الرجال دوماً أنني شخصٌ يجب إيلامه. لقد عرفوا، دون أن أخبرهم حتى، أن جزءاً مني كان متقبلاً أو راغباً بالألم.

ولكن من أين لهم معرفة ذلك؟

ولماذا لم يخطر لأحدٍ منهم أن يسألني عن الطريقة التي أرغب بالوصول إلى الألم من خلالها، أو عن درجة الألم التي أرغب بالشعور بها أو كم من الوقت أرغب بالاستغراق في هذا الألم؟

وفي حال سألوا، هل كنت سأعرف بماذا أجيبهم؟

شغلّت هاتفي.

كان هناك عشرات المكالمات الفائتة من **كياران** تخطيتها دونما اهتمام، ورسائل واردة من **نوح**؛ رسائل مداعبة تحمل ألفاظاً همجية يخبرني فيها عما يفعله ويقول إنه يفتقدني.

نوح....

كان مجرد التفكير فيه داعماً في ذلك الصباح المليء بالدمار. كان رجلاً قوياً مليئاً بالعزيمة والبهجة. هو من رسم الضحكة على وجهي، وجعلني أشعر أننا دوماً قادرون على البدء من جديد.

كان ذكياً دون أن يكون مضجراً، ومتحدثاً بطريقةٍ جعلتني أفكر في أشياء جديدة لم يخطر لي التفكير فيها من قبل.

عرف **نوح** ما أراد فعله في العالم، وحقق سعادته بالاستمتاع بعمله. أردت أن أكون قريبةً منه، وأن أنهل من ثقته.

أردته أن يلمسني بلطف في بعض الأحيان، وبخشونةٍ في أحيانٍ أخرى،

وأردت لكلينا أن يعرف واحدنا ما يرغب به الآخر ليفعله دون سؤاله عمّا يَرُوقه أكثر في تلك اللحظة.

فكرت في عينيه الناعستين وهما تنظران إلي بولع، وأحببت أنني كنت شيئاً قيّماً اشتهاه وأدرك أنه يستحقه. فكرت في ابتسامته الكسولة وشخصيته غير القابلة للاختزال.

وكان للغوص أكثر قليلاً في معرفته إحساسٌ بالغنى المفرط لشخصيته وانعكاسها القوي في كل نكتةٍ وقبلةٍ وإيماءة تعجّب.

كانت لديه الكثير من المزايا التي تدفعني للتعلّق به؛ مزايا فوضوية متكدسة ومتزاحمة ونابضة، يستحيل أن أشعر بالملل مع سبرها. بدا العالم معه مليئاً إلى اللانهاية بالمواضيع القابلة للنقاش، ومعه لا وجود لسطرٍ فارغ أو علامات توقف.

شحنني التفكير به براحةٍ عارمة، وخفّف من الغصّة العالقة في بلعومي المحترق من التدخين، وبَلسَمَ كدماتي. مع التفكير به شعرت بانخفاض الأدرينالين والخوف الناجمين عن الإفراط المريع لاحتساء الكحول. لو أنني أستطيع لقاءه لدقيقة، والجلوس والتحدث معه، ورسم ابتسامةٍ على وجهه وهو ينظر إلى هاتفه كما كنت أفعل في تلك اللحظة.

كتب في رسالته أنه سيغادر إلى **لندن** في شهر يناير وسيبقى فيها بضعة أشهر لتسجيل بعض الأغاني مع فرقته وليرى المسار الذي ستتخذه الأمور، وسألني إن كنت أرغب بالمجيء وقضاء بعض الوقت معه.

هل كنت أرغب بذلك؟

وعلى الفور، تخيلت الرحلة وشعرت بكل لحظةٍ فيها.

الانطلاق إلى المطار، بعد حزم حقيبتي على عجل في الشقة، بينما **كياران** يصرخ في وجهي.

ذلك الشعور الغامر الساحق بأني شابةٌ أنطلق بمفردي إلى مغامرتي التالية.

والهواء البارد العذب يهبّ بقوة فوق مدرّجات الانطلاق المتجمدة باتجاه المحطات النهائية، ومتعة الشوق للقاء **نوح** هناك، وفكرة أنني متحررة من كل شيء فعلته بنفسي.

الاستمتاع بمعرفة ما سيأتي من الأحداث ببساطة. سوف نتحدث عن كل شيء، عن **كياران**، وعن الخطأ الجسيم الذي ارتكبته عندما اخترت شخصاً كهذا، وكم كانت تجربة مؤلمة أنني حاولت أن أحب شخصاً لفترةٍ طويلة. وسوف يطمئنني بأن الأمور ستكون أفضل الآن، ويمنحني فرصةً للبكاء قليلاً، ثمّ نمارس الجنس بعدها، وننعم بالسعادة معاً في هذا المكان الجديد ونفتح صفحةً جديدة في حياتنا.

وفي أيام الآحاد سنذهب لزيارة أصدقائه في **دتفورد ونيو كروس**، ونستمتع بشواء قطع الدجاج واحتساء المشروبات الغازية التي تُباع بخمس باوندات في متجر **سينزبريز**.

وسوف أعمل في المقاهي أو الحانات، وأمارس الكتابة في ساعات النهار، بينما يكون **نوح** مشغولاً بعمله، وفي ساعات الصباح نخرج للتسكع في منتزه **بيكهام**، أو نأخذ الطريق سيراً إلى جسر **لندن** ثم نتمشى على ضفة النهر.

سوف أذهب معه إلى سوق **برودواي** وأتذوق عينات من جميع الأصناف الفاخرة المباعة فيه، وأشتري بعضاً من الزيتون المُخَمّر لنتسلى بتناوله أثناء تسكعنا. لن يكون لدينا أي هدف آخر ننجزه، سوى التسكع في المكان.

سوف أحضُر بعضاً من الحفلات التي سوف يحييها -ليس جميعها، فأنا ستكون لي حياتي الخاصة أيضاً- وسوف أنظر إليه وهو يعزف ويشعر بالفخر والإثارة لخصوصية عمله البارز، وأشاهد قسمات وجهه تلتوي وتنفرج في لحظات النشوة عن ابتساماتٍ غريبة مليئة بالغبطة.

لن يكون العالم بالنسبة لنا محصوراً فينا فقط، لأن **نوح** ليس من هذا النوع من الأشخاص، فهو رجلٌ لا يمكن تقييده حتى لو رغبت بفعل ذلك به. سوف أحبه لرحابة روحه، وقلبه الكبير وشهيته الشرهة. لن أرغب بتقييده.

وفي بعض العطل الأسبوعية سوف نأخذ القطار إلى **كينت**، ونقضي النهار بطوله ونحن نتنزه مشياً، ونسير بخطوات وئيدة على الشريط الساحلي مسافة خمسة عشر ميلاً.

(لو سمع **كياران** بذلك سيقول: ولكنك في هذا لا تشبهين نفسكِ. المشي لمسافاتٍ طويلة؟ هذا هو الهدف - وفي هذا لن أكون أبداً أنا.)

ولكن ربما يكون الأمر مختلفاً، وربما يكون هذا نمط حياةٍ لم أستطع حتى تخيله. ربما هو أمرٌ لم أختبره يوماً، أمرٌ لم يسبق له مثيل في حياتي.

أطلقت العنان لنفسي للتفكير بكل هذا لبضع دقائق وشعرت بالراحة التي يحملها.

كان السماح لشيءٍ جديدٍ تماماً بالسيطرة على كل تفكيري وأحاسيسي، الطريقة الوحيدة للهروب من براثن **كياران** حيّةً. كانت تلك المتعة المثيرة في أنّ أكون قادرةً على ترك حياةٍ بأكملها ومعها ذاتي بكليّتها خلفي في لحظةٍ واحدة.

ولكنني لم أكن أعرفه.

ولكنه كان مجرّد معبودٍ آخر.

ولكنني لن أكون شابةً وبمفردي - سأكون شابةً في طريقي إلى شخصٍ آخر.

صحيحٌ أنّ **نوح** كان مختلفاً كثيراً عن **كياران**، ولكن أنا كنت نفسي، أنا لم أتغير.

عرفت أنّ شخصيتي سوف تبقى على حالها، مهما بلغت بي الرغبة بتصديق أي اعتقادٍ آخر خلافاً لذلك.

قد أشعر في البداية بأنني أغادر تاركةً كل شيء خلفي، منجرفةً بتأثير نشوةٍ جديدة لم أشعر بها من قبل، ولكن سرعان ما ستنهار هذه النظرية ذات يوم (وربما لن يمرّ وقتٌ طويل حتى تظهر مشكلة إفراط **نوح** بالشرب المماثلة لمشكلتي، وعلاقته المحتملة بحبيبته، التي نادراً ما يتحدث عنها، وحاجته الطبيعية لمغازلة جميع الفتيات اللواتي يلتقيهن.)

إذاً، سأغادر في حالة يأس، وليس بفرح، سوف أنتقل من واقعٍ سيئ إلى أسوأ.

لا، لن أنعم بالخلاص بهذه الطريقة. لن يكون لي خلاصٌ ما لم أصنعه أنا بنفسي.

-7-

استقللت سيارة أجرة من قرب المحترف مباشرة، غير راغبةٍ بمنح نفسي بضع دقائق لترتيب مظهري وفرصةً لتغيير رأيي. لا أذكر أنني شعرت بتدفق الأدرينالين في جسدي كما شعرت في تلك اللحظة، كان كل طرفٍ من أطرافي يرتعش ويصطدم بالآخر، أما قلبي فكان يدق بسرعةٍ مخيفة بسبب تأثير الكحول ومعرفته بما كنت مُقدمةً على فعله.

تسلّل الرعب مروّعاً اثنين من الأجزاء بداخلي، لأسبابٍ مختلفة.

الجزء الأول، وهو النموذجي الذي مال باتجاه الحياة اليومية مع **كياران** والوعد الذي قطعته بعدم البقاء وحيدةً أبداً، كان يحاول ردعي وتزويدي بحبكةٍ للتغطية على فعلتي هذه، كان يحاول دفعي لتنظيف نفسي واختراع كذبةٍ ما.

ثمّ كان الجزء الآخر، وكان له نزعة قوية وشديدة، حتى بدا كأنه يزيد من تسارع السيارة بصلابة عزيمته، كان الجزء الذي يدفعني للهرب والهرب والهرب. كان يدفعني للفرار التام بسرعة قصوى قدر ما أستطيع، لإحراق المنزل، لحبس **كياران** بداخله، ونسيان كل شيء يتعلق به بأسرع ما يسمح به الأمر الواقع.

حاول الجزء الأول تهدئتي، وتمرير شريطٍ سريعٍ من ذكريات الأوقات الحلوة التي عشتها مع **كياران**، تلك اللحظات التي هوّنت ثقل بقية الأوقات. وبالفعل رأيتها، رأيت لحظات الطمأنينة عند الاستلقاء على سرير هادئ معه مساءً، والطمأنينة في الأوقات النادرة التي يكون فيها مزاجه جيداً وتكون نتيجة ذلك دماثته مبهرة، ولحظات الطمأنينة لدى اهتمامه بي عندما كنت مريضة.

وعندها فكرت أن كل تلك الأوقات كانت: طمأنينة. جميعها كانت مجرّد شعورٍ بالطمأنينة لغياب الأشياء التي أخشاها، غياب الطباع الحقيقية المعتادة: البرود، والتجاهل، والازدراء والكراهية.

تأنيبي وتحجيمي، التعليقات الساخرة والنصائح اللاذعة. الإدراك الدائم بأنني لن أكون أبداً الامرأة التي أرادها. لم يكن الشعور بالفرح حقيقياً في معظم الأحيان؛ وإنما كان شعوراً بالانعتاق من الألم. كان الأمر أشبه بتحزيم نفسك بالضمادات والشعور بأنك تحسنت عند إزالتها، وأشبه بشق جرحٍ عميقٍ في ساقك لتشعر بأنها تتعافى.

لقد عانيت، وحوّلت المعاناة إلى شيءٍ يمكنني اعتباره إيجابياً. لقد نجحت في هذا حتى باتت المعاناة مهنتي.



-8-

تعثرت في النزول من سيارة الأجرة وفي خطواتي وسط شارع **راثماينز**. كان الوقت ما يزال باكراً جداً، الأمر الذي أعطى الفرصة لثلّة من الشباب في الثلاثينات من العمر للضحك على حالتي، ولربما كانت ضحكاتهم وديّة لرؤيتهم حال ذاتهم في الماضي.

زججت المفتاح في باب شقتنا، وقبل أن أتمكن من إدارته، ارتج مفتوحاً. رمقني بنظرةٍ من الأعلى إلى الأسفل، ثمّ سار مبتعداً باتجاه الدرج مجتازاً كل درجتين بخطوة واحدة. صعدت خلفه، وقلبي يغصّ كما لو أنّ شيئاً علق بحنجرتي. دخلت إلى غرفة المعيشة، ووضعت حقيبتي وأشيائي على الطاولة، وارتميت على أريكتنا.

«أريد الانفصال» قلت له.

كان رأسي لا يزال مثقلاً بتأثير الكحول.

«أوه، حقاً؟» قال متهكماً.

لم يكن متفاجئاً. شعرت بارتياحٍ خاطف. ربما سيتم الأمر بسهولة، أو لعلّه كان يعرف أنّ الأمر سيحدث. وربما كان لديه ذات الرغبة!

«ولماذا تريدين الانفصال؟» سألني، وعيناه لا تزالان تتنمران عليّ بذات الطريقة الباردة الساخرة.

لم أعرف بماذا أجيبه. لقد توقعت أن يكون للتصريح حدثه الخاص، توقعت أن يصيبه بالغضب والصدمة ويدفعه للصراخ.

ثمّ استدار متوجهاً إلى غرفة النوم، ملوحاً لي بإشارةٍ سريعة من يده أن أتبعه.

تحرك بسرعةٍ ومرونة كعادته دوماً.

أما أنا فقد سرت في خطواتٍ متعثرة على طول الممر، مستندةً إلى الجدران، وبدأ رأسي ينتفض بالألم عندها.

دخلت إلى غرفتنا، حيث وجدته جالساً على حافة السرير.

ورأيت أوراق يومياتي تغطي المكان من حوله.

لقد رتبها لتنتشر بغزارة وتغطي جميع أرجاء المكان.

جميع الكلمات كانت ماثلةً في المكان. كل ما فعلته. أسماء جميع من مارست الجنس معهم.

ما شعرت به تجاه **نوح**.

شعوري بالإحباط ووصولي إلى مرحلة الضجر في علاقتي معه، مع **كياران**.

جلس وسط كل هذا، ووجهه يفترّ عن ابتسامةٍ بليدةٍ مخيفة وقاسيةٍ. ثمّ التفت إلى إحدى الوريقات وراح يقرأها لي بصوتٍ عالٍ.

«لا أعرف السبب في مآلي إلى هذا الحال. لا أعرف السبب الذي يولد فيّ حاجةً لتعريض نفسي للنبذ والأذى والإذلال كما أفعل الآن. لا أملك أي أسبابٍ عقلانية. ولكن الحقيقة ببساطة هي أنني أريد فعلاً تلك الأشياء، وأن **كياران** ليس لديه أدنى اهتمام بمنحي إياها»

رفع عينيه ونظر إلي مجدداً مع تلك الابتسامة الفظيعة تغمر وجهه الجميل كعادته.

«أنا آسفة» قلت له، وبدا اعتذاري هذا مضحكاً تقريباً لأنه لم يكن في محلّه قط.

كنت أرتجف. شعرت بحاجةٍ لتناول السُكّر، لجرعة ماءٍ بارد، للاستحمام.

كنت بحاجةٍ للرحيل.

«أنا آسفة،» كررتها ثانيةً. وتردّد صداها هزيلاً جداً، حتى أنا نفسي لم أشعر بصدقها، وبدأت بعدها بالبكاء. جلست في الزاوية مُلقيةً برأسي في حِجري، وبكيت بمرارة. غطيت وجهي بيدٍ ومددت الأخرى نحوه. لمست يده فنهض واقفاً.

«لم تخبريني بأنك كنتِ تريدين ذلك» قال لي.

كنت غارقةً في البكاء، شاردة الذهن عما كان يقوله، أو ما كان يفعله.

كان يحلّ حزامه، ثمّ زرَّرَ سحاب بنطاله، بينما أنا متكوّمة على نفسي في أبعد زاوية عنه في غرفة النوم، أحاول إخفاء ذاتي من الحدث، ومن عاري. كنت أضغط بواحدٍ من قمصانه على وجهي، ألتقط فيه دموعي، وأزفر أنفاسي فيه.

ثمّ وقف عارياً تماماً.

جثا بالقرب مني وقبلني، وأحسست بأنه لا يكرهني، وكان هذا شيئاً رائعاً جداً ومخالفاً لكل توقعاتي.

بادلته قبلةً بنشوةٍ من تنفس الصعداء.

ثم التقط بيديه فستاني ورفعه بحركةٍ قاسية وسريعة، تفاجأت بها وأفلت صيحةً إثرها.

ثمّ راح يقبّلني بكثيرٍ من اللطافة. وشعرت للحظة بأنني حظيت بالغفران. كان يغفر لي.

قبض بيده على سروالي الداخلي بعنف، وسحبه للأسفل ليخلعه عني، ويطرحني أرضاً وسط ذلك.

«مهلاً!» دمدمت هامسةً، وقد أصابتني دهشةٌ وسط نوبة بكائي، وشعرت للمرّة الأولى بالانزعاج من غرابة الموقف وغرابة تصرّفه.

ضغط بيده على أسفل بطني، فوق عانتي مباشرةً، لتثبيتي في تلك الوضعية. بدأت دقات قلبي تتسارع بقوة، ولمساته تثير غثياناً قوياً بداخلي، ولكن بدا أمراً لا مفرّ منه. قلت لنفسي: إن كان الأمر متوقفاً على هذا، وبعدها يمكنني الرحيل، فسوف أستطيع تنفيذ رغبته.

باشر بممارسة الجنس معي، فأغمضت عينيّ وقلبت مقلتيّ تحت أجفاني للوراء في محاولةٍ للوصول إلى الوميض الأبيض والشرر.

ثمّ ضربني.

صفعني على وجهي في البداية، وعندما لم أفتح عينيّ، لكمني بقبضته. نظرت إليه فاغرة فمي، مشدوهةً.

«اعتقدت أن هذا ما يعجبك؟» قال لي.

بدأت أبكي، وأتلوّى.

وعندما بالغت أكثر في التوائي حتى لم يعد قادراً على تثبيتي للاستمرار في ممارسة الجنس معي، جرّني من شعري، ثمّ وضع عضوه في فمي ويده تضغط على رقبتي من الخلف لإرغامي، وراح ينكحني بهذه الوضعية.

بدأت أصرخ، وأبكي من كل قلبي.

عندها قال: «توقفي عن البكاء أيتها العاهرة». رفعت نظري نحوه ورأيت وسط انهمار دموعي كراهيته لي. لقد كرهني تماماً ومقتني بكل ما تعنيه الكلمة.

«اعتقدت أن هذا يعجبك» قال مجدداً، وهو ينكح حنجرتي. ولمّا بكيت أكثر، شخر في وجهي ساخراً وهو يردّد «هذا ما يعجبك».

-9-

وما إن قضى مبتغاه، حتى اتجه مباشرةً إلى الحمام.

حزمت حقيبتي على عجل وغادرت.

مكثت تلك الليلة في غرفةٍ فندقية، حيث نقعت جسدي بماءٍ ساخنٍ سافع.

وبعد أسبوعين غادرت البلد.

مايو 2015

أثينا

-1-

بعد انفصالي عن **كياران**، ومرور ستة أشهر على وجودي في **اليونان**، اتصل بي صديقي **مارك** وأبدى رغبته بزيارتي. كنت قد أمضيت فترةً طويلة في العيش وحدي آنذاك، وكانت لوحدتي طبيعة مختلفة عن تلك الوحدة التي عشتها قبل **كياران** والوحدة التي عشتها خلال علاقتي معه. فقد حلّت هذه الوحدة بطبيعةٍ أكثر رسوخاً وسلاماً، وبدت كأنها أمرٌ يمكنك أن تتوقع بكل منطقية دوامه إلى الأبد. ولم أستطع معرفة ما إن كان عليّ أن أقاوم هذا الشعور.

كان الشعور الجديد بالنفور من المصاحبة، عنيداً وخبيثاً إلى حدٍ ما، وينطوي على عقودٍ آتيةٍ من السلوك الغريب، ويومئ بنهايةٍ لم أكن واثقةً من أنني أريدها.

في أحد الأيام لاحظت أنني لم أتكلم مع أي إنسان منذ أسبوع. في المترو، وقف رجلٌ له شاربٌ وذراعان سمراوان قويان أمامي ولفّ يده على العمود الذي كنت أستند إليه، واضطررت إلى منع نفسي من الانحناء للأمام لمسافة بوصةٍ واحدةٍ والسماح لخدي بملامسة ظهره البني الناعم.

-2-

وصل مارك. شعرت أنه من الخطأ الانخراط في حديث مع شخصٍ آخر، وتحديداً مع شخصٍ بالكاد أذكر معرفتي به. بدت كلماتي متلعثمة، وحتى احتساء الكحول، الذي لم أقربه منذ أسابيع، لم يجدِ نفعاً. عندما أخبرته كيف كنت أقضي وقتي في العمل والمشي والقراءة والكتابة، بدا واقعياً مغرقاً في الراحة والاسترخاء ومخالفاً لشعوري إزاءه الذي كان زاخراً دوماً بإحساس متجدد من الخسارة، وارتياع الفوضى.

ظلّ طوال الوقت يمدحني ويصفني بالمذهلة، ويصف عملي بالمبدع، وقال إنني أبدو جميلةً جداً وإنني شخصٌ مميزٌ للغاية.

وعندما أخبرته، في معرض حديثنا، أنني مررت بيوم سيئ لم أستطع فيه إنجاز عملي بشكلٍ جيد، انبرى فوراً لمعارضتي في الرأي، مؤكداً على روعة عملي رغم كل شيء.

اليوم أكره من الرجال إظهار ولعهم بي بهذه الطريقة، خاصةً أولئك الذين لا يعرفونني. أجد أنّ كلمات إطرائهم تبقى عالقةً دون يقين في المساحة الفاصلة بيننا، وذلك لشعوري بأنها لا تخصّني. أكره سماعهم يقولون لي من أكون، وحتى أو تحديداً عندما يكون ظنهم بي أنني فتاةٌ لطيفةٌ أو لمّاحة أو جميلة. وأكره جداً عندما يصرّون على أنني شخصٌ خالٍ من العيوب، وأن صفاتي من الكسل والعنف والقسوة ببساطة لا وجود لها في شخصيتي.

وعندما يقولون إنني أبدو أكثر نحولاً مما كنت من قبل، أستشعر المرض الذي جعل شخصاً غريباً يحدق بي ويصف شيئاً غير موجود. ما كنت أشعر به حقاً هو تجاهلهم لحقيقتي، وبأنني مُجبرةٌ على ارتداء أي صفاتٍ خياليّة يرغبون بتسليط الضوء عليها.

في كل مرّة يحدث فيها ذلك، أضطر لقمع نفسي ومنعها من الصراخ في

وجوههم لأثبت لهم أنني لست كما يعتقدون. فأنا في هذه اللحظات سعيدة بقبحي وأريدهم أن يروه. ومهما بلغت بشاعتي، أريد الظهور بها، أريد أن أكون قدر المستطاع صورةً عن ذاتي، أيّاً تكن، وبعيدةً قدر المستطاع عن مسلاط الغريب.

«برأيي هذا شيءٌ رائع» كرر هذا التعليق طوال الوقت ردّاً على كلّ الحماقات التي أخبرته أنني ارتكبتها. وقال أيضاً: «أن تأتي إلى هنا بمفردك أمرٌ في غاية الشجاعة».

منعت نفسي من مقاطعته.

ضبطت نفسي عن صدّه برأيٍ مخالف.

أين الشجاعة في ذلك؟ لقد وصلت إلى ذلك المكان وذلك الحال لأنني كنت غبيةً جداً وضعيفة لدرجةٍ لم أستطع معها أن أكون محاطة بالناس. كنت بأمسّ الحاجة إلى الناس وهذا ما دمّرني.

وبعدها أصبحت خائفةً جداً من خوض تجربةٍ مماثلة مرةً أخرى، فالفكرة برمتها خاطئة جداً وتحمل نتائج مأساوية، ولهذا فضلت أن أكون هنا في هذا المكان.

والسبب الآخر لمجيئي إلى هذا المكان هو قدرتي على ذلك؛ فقد كنت محظوظة جداً لتمكني من الفرار. لم يكن لديّ مال، ولكن لا التزامات عائلية أيضاً.

كنت شابةً دون قيود تثقل حركتي، أو أعباءٍ طويلة الأمد؛ فأكبر مسؤولياتي لا تحتاج سوى بضعة أسابيع لتدبيرها.

ليس ثمّة شجاعة في الأمر. فقد كنت أكثر شجاعةً في كل ليلةٍ حبست فيها نفسي في الحمام بعد شجارٍ مع **كياران**. وكنت أكثر شجاعةً في كل مرّة استيقظت فيها في اليوم التالي وذهبت إلى عملي. من ذا الذي يفهم معنى ذلك؛ أن الضعف أيضاً له صلابته ونقاوته؟ أنا نفسي لم أعد قادرةً على إيجاد طريقةٍ لاستيعاب ذلك.

أعترف أنني أكره ضعفي، أكره أنني اقتطعت أجزاءً من نفسي لأمنحها له، ولكنني أحب هذا العطاء أيضاً، وما زلت أحبه، ولم أسترجعه.

أحب الفتاة التي فعلت تلك الأشياء؛ أحبها لأنني أشعر بالحزن عليها، ولأنني أفهمها.

هل الشجاعة أن تكون وحيداً؟ ربما هي كذلك بطريقةٍ ما. ولكن كان ضرباً من الشجاعة أيضاً أنني طلبت من شخصٍ أن يكون معي، حتى لو كان شخصاً غير مناسب، وحتى لو كانت الطريقة خاطئة. كيف استطعت أن أطلب منه الحب يوماً بعد يوم، مع أن الجواب كان دوماً: «لا»؟ أيّ يأسٍ دفعني للعيش بتلك الطريقة؟

أتحسر اليوم على تلك الشجاعة، تلك الشجاعة التي غادرتني؛ ولا أعلم إن كانت غادرتي إلى الأبد أم لا.

قبّلني مارك في تلك الليلة، وسمحت له بذلك. كان أسهل شيء يمكنني فعله، أو الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله. ففكرة أن أمنعه وما يترتب عن ذلك من نقاشٍ كان سيضجرني حد الإرهاق. أتساءل في نفسي: كم مرّة حسبت الأمر بهذه الطريقة في حياتي؟ وكيف سيشعر الرجال لو عرفوا ذلك؟ وهل تراهم سيكترثون لذلك؟

في غرفة نومي كان تزلّفه مزعجاً للغاية لدرجة أن أول قبلة بدت أشبه بالمخلّص. وبعدها راح بين القبلة والأخرى يرتد للوراء قليلاً ليحدق في وجهي ويهزّ رأسه قليلاً في تلك الحركة التي تفيد بـ... ماذا؟... أتراها تفيد التعجب؟ ثمّ يبتسم ويعاود تقبيلي من جديد. في كل مرة فعلها كان شعوري يزداد سوءاً، وقلبي يزداد تحرّقاً للانتهاء من ذلك. كان في بعض الأحيان يضحك قليلاً، موحياً بأنه في حالة عدم تصديقٍ لحظه الرائع. بدت كل تلك الحركات مصطنعة ومحضّرة مسبقاً.

وبعد مرور بعض الوقت، أبعدته عني قليلاً واستأذنته للذهاب لتنظيف أسناني وارتداء ثياب النوم. وأملت أن يكون هذا التصرّف كافياً لإلغاء ذلك الإحساس الموعز بأن الجنس سيكون الخطوة التالية. تمنيت أن ينتهي الأمر بالذهاب الى الفراش والخلود للنوم فقط.

عدت إلى الغرفة وعلى الفور أطفأت الضوء واستلقيت في السرير وأدرت له ظهري، وقلت له «تصبح على خير!» بسرور مفرط ونبرةٍ حازمة.

استلقى خلفي، عاري الصدر ثمّ اقترب قليلاً مني وألصق جسده بجسدي ولفّ ذراعه حولي. وراح يتلمس ضلوعي على مهل، بينما شفتاه تخترقان شعري وصولاً إلى رقبتي. قبل عنقي وأذنيّ هامساً بكلماتٍ من الغزل. لم أتحرك أو أتجاوب معه، أملاً أن يكون في ذلك إشارةٌ كافيةٌ له للتوقف عما يفعله. احتضن بيده ذقني وشده بقوةٍ باتجاه وجهه، وراح يقبلني. بادلته القبلة.

عندما انزلقت يداه إلى صدري وراحت تنسلّ تحت حافة قميصي، وضعت يدي على معصمه.

«أنا متعبة، ولا مزاج لي في هذا. اعذرني» قلت له. استلقى على ظهره. نظرت إليه، كانت عيناه متسعتين وتتوسلان. أدرت ظهري مجدداً ووضعت ذراعي على رأسي وشددت البطانية فوقي.

وما هي إلا دقائق حتى عاد جسده مجدداً لهدهدة جسدي. تجاهلته. اعتقدت أنني أستطيع النوم مع كل هذا، وأن بإمكاني تحمل الأمر. أصبح قضيبه قاسياً وراح يحشره بداخلي بلطافةٍ في البداية، ثمّ بخشونةٍ. وعاد يدسّ وجهه في شعري وشفتاه تقبلانني برقه.

«لا رغبة لي بالمضاجعة» أرغمت نفسي على قول ذلك، خلافاً لما كنت أميل لفعله في السابق؛ التجاوب والاستسلام. أتراه أدرك كم هو مضنٍ وشاق بالنسبة لي قول ذلك له، وهل عرف كيف كانت كل خلية في جسدي تميل للاستسلام!

«أوه، لمَ لا؟» سألني بتلك النبرة التي قد يسأل فيها طفل تلقى تعليماتٍ بعدم السماح له بلعب ألعاب الفيديو.

كيف يمكنني الإجابة على سؤالٍ كهذا؟

لماذا أرفضك الآن يا مارك، مع أنني قبلت أشخاصاً كثيرين، وأنت نفسك كنت واحداً منهم؟

لماذا رغبت بالأمر من قبل، بينما الأن أرفضه؟

لماذا تثير ضحكاتك وابتساماتك الصغيرة اشمئزازي؟

لا يتعلق الأمر بفكرة أن جسدي أصبح يعنيني اليوم أكثر من قبل، وإنما يتعلق فقط بفكرة أنني اليوم أكرهك أكثر.

تغيظني حقيقة أنك قادر على استخدامي لتحقيق متعتك.

في أحد لقاءاته قال الممثل الكوميدي جون بيلوشي: «لقد منحت الكثير من المتعة للكثير من الناس. لماذا لا يمكنني الحصول على بعض المتعة لنفسي؟»

لا أعتقد أنك تستحق ذلك. لا أعتقد أنك تستحقني.

أعتقد أنّ تمثيلك الإيمائي للصداقة والرغبة ضعيفٌ وغثّ.

استمرّ بتقبيل عنقي وتمسيد جسدي بلطفٍ، دون تجاوبٍ مني. ظللت في وضعيتي المتصلّبة دون الالتفات إليه، وعيناي مفتوحتان بقوة تحدقان بذهول في الفراغ أمامهما.

«لمَ لا؟» سأل مجدداً، وما إن التفتّ إليه رأيته يبتسم لي. كان في الواقع يبتسم سعيداً ومرتبكاً. لم يكفّ عن لمسي وفي النهاية فعلت ما يجب أن أفعله لسدّ رغبته عن ممارسة الجنس معي؛ وهو أن أمارس الجنس معه.

تصنّعت أصواتاً صاخبة منخفضة لا يخلط بينها وبين أصوات المتعة الحيوانية سوى شخصٍ أحمق. تقصّدت إفلات تلك الأصوات التي سمحت لي بنفث بعضٍ من الكراهية والنفور بداخلي. وما إن تسارعت حركته وبدأ يؤلمني، حتى انحنيت للخلف ورحت أخدش فخذيه بكل ما أملك من قوة.

وهذه كانت أيضاً حركة يظنها الأحمق فقط أنها دليل على الانغماس والاستمتاع. أثار صوت أنينه الخفيف اشمئزازي.

نظرت إلى السقف والدموع الخائبة الساخنة تتجمع في عيني، متمنيةً أن يقضي وطره وننتهي. حركت جسدي للأعلى والأسفل بسرعة أكثر فأكثر، وأنا أتوسل إليه في قلبي أن ينتهي، ينتهي، ينتهي. وعندما فعلها، تقلبت مبتعدةً عنه ووعدت نفسي بأنني لن أكرر ذلك ثانية، لن أكرر ذلك ثانيةً أبداً، أبداً.

لقد منحت الكثير من المتعة للكثير من الأشخاص. لمَ لا يمكنني الحصول على بعض المتعة لنفسي؟

ثمّة اعتقاد فكرت به مسبقاً عاد ليرتسم في ذهني يتمثل في وجوب فرض حظرٍ على الرجال من استخدام ذلك الأسلوب المتزلف الذي استخدمه

مارك، ذلك الأسلوب الذي يجعل الرفض وقول «لا» للرجل أمراً أقرب للمستحيل، ويتركك في موقفٍ صعبٍ للغاية يتمثل في تقبّل احتمال التعرّض للأذى والشتائم والتحول لشخصٍ مكروه. أن تقول «لا» بعد أن علمتك الحياة قول «نعم» وأن تكون مجاملاً وأن تسعد الرجال.

بمجرّد أن تقول «لا»، يتحول الرجل المتزلف إلى شخصٍ لا يُطاق. ولا يهم إن فعل ذلك بلباقة أو تهذيب لأنه في النهاية يتجاهل المغزى المقصود الذي تمّ التعبير عنه بوضوح. إنه بفعله هذا كأنه يقول: الخيار الذي تفضّلينه لا يهمني في الواقع، رغبتي هي الأهم، ولا أريد أن أشعر بالذنب لإرغامك على تنفيذها، وبالتالي ربما عليك إعادة النظر بالأمر؟

التزلّف فعل جبان وينطوي على العنف. عندما تتمكن من حمل شخصٍ على تغيير رأيه من «لا» إلى «نعم»، من خلال التزلّف، فإنك بذلك تسلبه شيئاً ليس من حقك.

كان هذا آخر شيء رغبت بفعله، وقد فعلته.

جلست في السرير إلى جانبه أنظر إلى فخذيّ. بدا لي جسدي مختلفاً كالعادة بعد خضوعه لعملية مضاجعة مع شخص ما، حيث كان أكثر تناسقاً من قبل. لفّ ذراعه حولي وراح يحدثني عن عمله والفرق الموسيقية التي يعمل معها، ويسرد قصصهم وثرثرة فريق العمل. كان الإصغاء له عندها أمراً يسيراً وأقلّ إزعاجاً، حتى إنني كنت قادرةً على الضحك معه دون الشعور بكثيرٍ من الاستياء.

-3-

عندما يحدث وأنام مع رجالٍ لا أحبهم، رجال مزعجين أو مخيفين أو مقرفين بالنسبة لي، وأفعل ذلك لأن النوم معهم أحلى الأمرّين، أنحدر بنفسي إلى ذات درجة السوء التي هم عليها. أنحدر إلى مستواهم بالسماح لهم بالحصول على ما يريدونه.

ممارسة الجنس معهم تحقّرني، ويحملني ترددي واستسلامي في النهاية إلى أدنى درجات الانحطاط. وعندما أنحدر إلى هذا المستوى من الانحطاط فأنا لا أكون أفضل منهم في الحقيقة، ويصبح هؤلاء الرجال ذاتهم في مستوى يجعلني أكثر تقبلاً لهم.

وتكون كراهيتي لهم فيما بعد أقل لأنني جعلت من نفسي شخصاً مثيراً للشفقة مثلهم.

-4-

استيقظت باكراً صباح يوم الأحد وخرجت إلى الشرفة لأدخّن وأتفقّد بريدي الإلكتروني. كان نهاراً جميلاً حيث بدأت أولى نسمات البرد بالوصول والانسياب تحت السماء الصافية وأشعة الشمس الساطعة.

لقد وهبتني **أثينا** هذه النعم: شعرت بالامتنان في كل يوم عشته فيها. جعلتني أشعر بمزيد من السعادة لكوني مفعمةً بالحياة وليس العكس. فيها بدت فكرة أن لا نكون على قيد الحياة فكرةً سخيفة. في **اليونان**، ستكون مخبولاً إن لم تعش في **اليونان** لأطول فترة ممكنة.

وجدت نفسي راغبةً في السباحة في ذلك اليوم.

وعندما استيقظ **مارك** استعجلته في الخروج من الشقة بأسرع ما يمكن كي ندرك الساعات الأكثر دفئاً من فترة ما بعد الظهيرة. كان أقرب شاطئ يبعد ساعةً عن المكان، وتأكدت من إحضاره كتاباً معه قبل مغادرتنا.

في الطريق على متن الحافلة جلسنا بعضنا بجانب بعض والصمت ثالثنا، وشعرت بالشفقة عليه لأنني كرهته بشدة.

عندما انتهيت من خلع ملابسي على الشاطئ، أخبرني أنه ليس سبّاحاً ماهراً؛ فهو يجيدها إلى حدٍ ما ولكنه لا يفضّل الابتعاد كثيراً والسباحة في عرض المحيط.

«حسناً، لا عليك، أتفهّم ذلك» قلت له بفظاظة غير مباليةٍ بما يستطيع أو لا يستطيع فعله.

مشيت وسط الماء ثم رحت أسبح وسط أمواج المحيط الباردة، انقلبت على ظهري ورحت أتأمل السماء فوقي وأمطّط أطرافي قليلاً تحت سطح الماء قبل الذهاب بعيداً جداً.

كنت سعيدة جداً كعادتي عندما أكون في البحر؛ المكان الوحيد الذي أشعر فيه بجسدي طبيعياً وملكي ومُسخراً لتحقيق مبتغاه. فيه أشعر بنفسي عديمة الوزن ولكن لست عديمة الجوهر. وفيه أكون متأكدةً دوماً مما ينبغي على جسدي فعله. أشعر بنفسي مثل فقمةٍ حيث تبدو الدهون المتراكمة، التي أكرهها عادةً، طبيعيةً ومصقولة في الماء، وحيث يمكن لجسدي غير المتناسق أن يكون قوياً.

اندفع مارك يخوض لاهثاً ومرتعشاً من برودة الماء. كان يشقّ طريقه نحوي وهو يبتسم لي وأسنانه تصطك بعضها ببعض.

استغرق منه الغطس في الماء دقيقة كاملة. ثمّ خبّط بيديه ورجليه حتى وصل إليّ وأمسكني من خصري مطوقاً جسدي في محاولةٍ للفّ ساقي حول جذعه. استسلمت للوضعية لبضع دقائق وتركته يقبّلني، ثمّ أرخيت جسدي للخلف واندفعت أركل الماء مبتعدةً.

وبعد ابتعادي لبضعة أميالٍ، ألقيت نظرةً خاطفةً عليه. رأيته هناك وسط الأمواج يتمايل مرتبكاً ومنزعجاً. أدركت في تلك اللحظة أنّ بعض نقاط الضعف لدى الآخرين لا يمكن تحمّلها - أو على الأقل تبدو لك هكذا لدى الأشخاص الذين لا تحبهم.

تذكرت كيف كان كياران يريد مني أن أفعل أشياء معينة لا أريد فعلها أو لا رغبة لي بفعلها، أشياء حركية مثل ركوب الدراجة أو الجري. كنت أرفض وأعتذر عن عيوبي، تلك العيوب التي كانت قطعاً وبالتأكيد جزءاً لا يتجزأ مني مثلما كان وجهي.

«لن يزعجك الأمر، أليس كذلك؟» كنت أقول له مقطبةً جبيني بطريقةٍ ساخرة لأبدو دمثة، معترفةً بقدراتي المحدودة؛ وأنتظر منه بكل ثقة أن يحبني رغم تلك العيوب.

ويأتي جوابه: «بالطبع لن يزعجني ذلك»، بينما أصدق أنا كلامه. لكن كان هناك دوماً إيماء يعكس ما لم يُحكَ في تلك الحوارات، وتوحي بوجود كلمة قاسية لم يسمح لها بالإفلات منه، وشيءٍ من النفور.

أجد نفسي أفهمها الآن وأنا أنظر إلى مارك. أن يكون هناك شخصٌ

يحتاجك، ولو قليلاً -يحتاج منك أن تُعجب به أو تحبه- وأنت ترى في نقاط ضعفه شيئاً مزعجاً ومنفراً. فكرةٌ بغيضة ولكنها حقيقية.

هذا ليس عدلاً وهو ضربٌ من الظلم، ولكنه قائم. عندما تقع في حب شخصٍ لن ترى هذه الأشياء، بل إنها ستبدو مُحببةً فيه أو حتى مميزةً له. ولكن مع شخصٍ لا تحبه فإنها تُثير أعصابك وتكون منفّرة. والمشاعر الإنسانية للمرء تتكشف سريعاً قبل أن تترك لك مجالاً لغفران نقاط الضعف تلك بعاطفة الحب.

عرفت حينها أن **كياران** لم يكن يحبني. أو على الأقل لم يكن يحبني بالطريقة الصحيحة؛ الطريقة التي تجعله يحبني كما كنت.

كل ما فعلته له وما فعلناه بعضنا لبعض لم يجدِ نفعاً في الارتقاء بالعلاقة إلى درجة الحب. ولكنه سمح لها بالاستمرار، وجعلها علاقةً يمكنني التعايش معها.

سبحت بعيداً في الأعماق قدر ما استطعت دون انقطاع أنفاسي، ثمّ رفعت رأسي فوق سطح الماء ووجدت نفسي بعيدةً جداً عن الشاطئ، بعيدةً لدرجة لا يمكنني تمييز ملامح وجه أي شخصٍ على الشاطئ، بعيدةً جداً لدرجة أنه لا يمكن لأحد أن يتتبع حركتي. شعرت بالسعادة لعدم قدرته على تتبع حركتي، وتابعت السباحة. سبحت حتى أصابني الإنهاك، وشعرت بساقيّ وذراعيّ تنحلّ حتى إنني بذلت جهداً كبيراً في العودة، حيث تراءت أمامي الفنادق والمظلات والأشخاص على الشاطئ مثل خيالاتٍ تتألق بسعادة.

عندما وصلت إلى الشاطئ، كان **مارك** جالساً على المنشفة يقرأ كتاباً وملامح الامتعاض بادية بوضوحٍ على وجهه.

قال لي: «لقد ابتعدتِ كثيراً لدرجةٍ لم أعد أستطيع رؤيتك، وشعرت بالقلق»

سقطتُ منهكة على الشاطئ ورحت أمدد أطرافي وجذعي وسط الرمال وأتلوّى على الجانبين لأغرق فيها وأسمح لحباتها بتغطية جسدي والوصول إلى جميع النقاط الحساسة فيه.

قلت له: «كل شيء على ما يرام، لا داعي للقلق».

-5-

حمل المفاتيح وغادر إلى الشقة بعدها.

رأيت بالقرب مني أخوين توأمين في متوسط العمر، جلسا يتشمسان على الشاطئ ويتقلّبان بحركاتٍ متزامنة فوق منشفتيهما لاكتساب لونٍ برونزي موحد. ثم نهضا معاً في ذات اللحظة ورفعا وجهيهما إلى الشمس لالتقاط آخر خيوطها الغاربة، بعيونٍ مُطبقة وأيدٍ متشابكة، وصمتٍ بليغ.

أثار المشهد في نفسي غبطةً وسروراً فقد كانا مضحكين ومؤثرين ومنسجمين جداً بعضهما مع بعض.

وشعرت بالسرور أيضاً مع تأمل كل الأشياء حولي؛ كشك بيع شطائر النقانق، وزجاجة الجعة التي وضعتها على الرمال بجانبي وسجائري اليونانية اللاذعة وكتبي التي اشتريتها في بداية ذلك الأسبوع من رواق تديره إحدى السيدات.

وبلغت البهجة في نفسي ذروتها وانهمرت دموعي غبطةً لحظي السعيد الذي أوصلني إلى هذا البلد، شعرت بأنني محظوظة جداً لأني أصبحت وحيدةً أخيراً، حتى ولو كان الأمر مؤلماً أحياناً.

أحتاج الكثير من الكلمات، وربما لا أجد كلمات تعبّر عن الأشياء التي كانت تدور بداخلي. كانت أشياء بسيطة للغاية لدرجة أن التفكير فيها قد يبدو صبيانياً ولكنها أشياء لم أكن قادرة على تأملها والتفكير بها منذ فترةٍ طويلة. أشياء مثل تحول السماء للون البرتقالي الدافئ الذي كان أيام مراهقتي ينفطر قلبي مع تأمله ويغدو منفتحاً وحرّاً.

تذكرت كم كنت يوماً أحب اكتساب المعرفة.

استطعت أن أرى نفسي مرّةً أخرى في مكتبة وترفورد محاطةً بالمراجع

والموسوعات، حيث كنت أجلس طوال النهار أقرأ وأتعلم أشياء لأنني أردت معرفتها، وليس لرغبتي بالتبجح بمعرفتها أمام شخص آخر، أو لأبدو شخصاً مختلفاً عما أنا عليه في الحقيقة.

فكرت في مارك وملامح وجهه العابسة وقلقه عليّ عندما انسللت بعيداً وسط المحيط ولم يعد قادراً على اقتفاء أثري، حيث طفوت منقلبةً على ظهري واستمتعت باستنشاق رائحة عطري المنبعثة من قلب الماء.

فكرت في كل القلق الذي استجديته بطريقة أو بأخرى من كياران ومن رجالٍ آخرين غيره، استجديته بحرمان نفسي من الطعام وبتشطيب نفسي والبكاء وممارسة الجنس، وبالاستعراض الكبير الساحق لحنقي وألمي، وبتصنّع الغضب، الغضب من كل فعل أساؤوا فيه لي وكل فعلٍ لم يكلّفوا أنفسهم عناء القيام به لأجلي.

فكرت بمدى امتلاء حياتي وانشغال ذهني بهذه الأشياء آنذاك، بمدى استماتتي للفوز بقلب رجل، وبفكرة أن افتتان رجلٍ بي أو حاجته لمضاجعتي من شأنه أن يخمد جميع نزعاتي السيئة إلى الأبد.

اعتقدت أنّ حبّ الرجل سوف يجعلني مشبعةً حد التخمة. اعتقدت أن ذلك سيطفئ حاجتي لشرب الكحول ونهمي للطعام، ولن أعود أبداً لتشطيب نفسي أو إيذاء جسدي ثانيةً بأي طريقة. ظننت أنه سوف يخلصني من كل ذلك.

ولكن هأنذي في وسط الدوامة ذاتها، دون وجود أي شخصٍ ينقل ما حدث بعد ذلك.

ما الذي يجب أن أفكر فيه طالما أنني لست أفكر بالحب والجنس؟ ستكون هذه الخطوة التالية: محاولة اكتشاف الشيء الذي يمكنني ملء كل ذلك الفراغ به.

ولكن كل شيء كان على ما يُرام. وسيأتي هذا الشيء لاحقاً.

النهاية

كلمة شكر

إلى وكيل أعمالي وصديقي الألمعي الرائع الغالي، **هاريت مور**: لولا وجودك لما استطعت كتابة هذه الرواية، وسأبقى إلى آخر يومٍ في حياتي ممتنة لك ولإيمانك القوي الراسخ في هذا العمل المُربك والمتلوّن بكل صياغاته المتنوعة. أنت بالنسبة لي وللكثيرين غيري موضع حبٍ وتقدير.

كما أتقدم بجزيل الشكر والامتنان للتوجيهات الرائعة والرؤيا الثابتة التي منحتني إياها مؤسسة **جوناثان كيب** للنشر بوافرٍ من الكرم واللطف، وأخصّ بالشكر **ميشيل شافيت وآنّا فليتشر**، ومن شركة ليتل براون للنشر أتقدم بالشكر من الرائعة **جين غارنيت**.

شكراً للأصدقاء الذين وقفوا بجانبي خلال فترة كتابتي للرواية، سواء بتقديم دعمٍ مادي مالي ودعوات عشاءٍ فاخرة أو بتقديم دعمٍ معنوي تجلّى في الاستمتاع بوجودهم وصحبتهم. شكراً جزيلاً لأحبائي مجموعة **تيدي هيدز: ستان كروس، فرانشيسكو غارسيا، جوش ينيس وتشارلز أولافير**. شكراً لنديمات الجعة: **لولي أديفوب وهيذر مالنتوش وثيا إيفيريت**، شكراً لكنّ على تواصلكن اليومي معي والدردشات المطولة التي جعلتني أضحك طوال الوقت. شكراً للأعزاء **كريسبين بيست، مات ريفيه وراشيل بينسون** الذين كانوا معي كأصدقاء حقيقيين عندما وصلت إلى لندن أول مرّة وكل مرّة بعدها: أحبكم جميعاً وأقدّر جميع الأوقات التي قضيناها معاً.

شكراً لكل من منحني فرصة إقامةٍ منزلية قصيرة وعَهِدَ لي برعاية قطةٍ صغيرة حيث تمكنت من إنجاز أجزاءٍ كبيرة من كتابي في بيئة مليئة دوماً بالبهجة، وأخص بالشكر **تومي وكيت فريل وصوفي جانغ**.

شكراً **جيسي دارلينغ**، شريكتي في السكن في **لندن**، فقد كان لوجودك رغم خفّته أثره الرائع والبنّاء، شكراً لمنحي تصوراً عن الإيجابية بدلاً من التضحية للألفة في الحياة العائلية، وهذه أكثر فكرةٍ كنت أحتاجها.

شكراً **جوزيف نونان غانلي، فيونا باين، كريس تيمس، فرانك واسير وأليس ريكاب** على كرم الضيافة والدعوات في أول مرّة أصل فيها إلى **لندن**، شكراً لكم على أطباق البطاطس المشوية وحفلات رأس السنة في **كامبرويل**، وعلى استعدادكم الدائم لمناقشة العمل عندما كان في مراحله الجنينية الحرجة.

إلى الحبيبين **ليندا ستوبارت وتوم**، لكما مني كل التقدير والإعجاب أيها الطيبان الرائعان، فالحب الذي يجمعكما ألهمني الكثير.

بالعودة إلى **إسكيا**. شكراً **لروي كلير بوتر**، صديقي المفضل في حلقات التدخين المتواصل، ورفيق كل الأشياء الممتعة، وأحد أفضل الكتّاب والفنانين الذين التقيتهم في حياتي.

شكراً لرفيقتي السابقة في السكن وصديقتي الرائعة **أزادورا إيبستين** على تلك السنوات التي قضيناها معاً في الضحك واللهو والنقاشات في **دبلن**، وعلى كل ما قدمته من دعمٍ لي خلال فترة إقامتي هناك. وإلى اليوم ما زلت المثل الأعلى والسيدة التي تتربع على القمة بالنسبة لي. شكراً **لأوسين مورفي هول وليز ني ميرتين** على استضافتي في كل مرّة عدت فيها إلى **دبلن** وعلى كل الأوقات التي أثرتما فيها ضحكاتي كما لم يفعل أحدٌ من قبل.

شكراً لصديقتي العزيزة **فيونا هالينان** على ثلاثة عشر عاماً من الصداقة وعلى جميع الأوقات التي قضيناها في السباحة وصيد السمك - أنتِ إنسانةٌ مذهلة. شكراً **شين موريسي**، أنت أعظم متنّمرٍ في حياتي.

شكراً **سيان غوتشر**، الزميل الأسبق والأغلى دوماً على قلبي.

شكراً لأخوي المبهرين **غافان ولوك فلنتر** على كل الدعم والحب وجميع سهرات عيد الميلاد الصاخبة المليئة دوماً بالتسلية والمتخمة غالباً بأقداح الويسكي.

إلى **سيمون تشايلدز**: شكراً على مشاعر المحبة الفيّاضة السلسلة التي

جعلت تسطير الشكل النقيض لهذا الحب أمراً محمولاً. سوف تبقى الأقرب إلى قلبي وأتمنى أن تدوم معرفتنا حتى آخر يوم في حياتنا.

إلى صديقتي المقرّبة **دوريان لاركين**: أحبك جداً ولا أعرف كيف أعبر لك عن امتناني الأبدي لكِ على كل العون الذي قدمته لي عندما أتيت إلى **لندن**، شكراً على بطاقات المواصلات وعلى سكب العشاء وزجاجات النبيذ التي قدمتها لي في لحظاتي الصعبة، وشكراً على كل سهرات الضحك الطويلة التي قضيناها جالستين على أريكتك نسرد بعضنا لبعض ذات الحكايات التي عشناها منذ خمسة عشر عاماً ونستمتع بسماعها أكثر من أي وقتٍ مضى.

شكراً للرائعين: زوج والدتي **جير كيني** وزوجة والدي **ترودي هارتلي**.

والشكر الأول والأخير لوالدي **جيم نولان** ووالدتي **سو لاركين** للبقاء بجانبي في الأوقات التي كنت أنسف فيها حياتي وأمزقها إرباً وفي الأوقات التي أعود فيها للملمتها من جديد. لولا صبركما ومحبتكما وتشجيعكما لما استطعت اجتياز الصعاب والنجاة. شكراً جزيلاً لكما، أحبكما كثيراً.



المحتويات